من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ 137 هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ 138 وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ
وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ 139 إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [من سورة آل عمران: 137 – 140].

* * *

مقدمة

منذ عشرين سنة كان لنا وقفة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، اعتبرتها في حينها وقفة «الحساب الختامي» للقرن بما لنا وما علينا، وهي وقفة طبيعية على رأس قرن، هو قرننا نحن أمة الإسلام، إذ هو يؤرخ لرسالتنا ومسيرتنا وحضارتنا، منذ أسس رسول الإسلام محمد ﷺ أول مجتمع وأول مسلم وأول دولة إسلامية بالمدينة.

واليوم نقف وقفة أخرى في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهو يتميز بأنه بداية الألف الثالث لميلاد المسيح عليه السلام.

المسلمون والقرن الميلادي:

وهذا القرن – وإن لم يكن في الأصل قرن المسلمين – لا يسعنا نحن المسلمين أن نتجاهله، والعالم كله من حولنا يهتم به ويتحدث عنه، ونحن جزء من هذا العالم، الذي تقارب وتقارب حتى أصبح اليوم – كما قيل – قرية كبرى. بل قلت: إنه أصبح اليوم قرية صغرى بعد ثورة الاتصالات. فإن القرية الكبرى قد لا يعلم الناس في شرقها ما يحدث في غربها إلا بعد يوم أو أكثر، على حين نحن نعلم اليوم ما يحدث في العالم بعد لحظات، وقد نتابع الحدث في أثناء حدوثه لحظة بلحظة.

على أننا نحن المسلمين لا نقف موقفا متشنجا من ميلاد المسيح عليه السلام؛ فقرآننا الكريم قد احتفى بهذا الميلاد، وأفرد له جزءا بارزا من سورة سميت باسم أم المسيح «مريم» عليها السلام، وذلك لما صحب هذا الميلاد من خوارق لم تكن لغيره، حتى إن القرآن ذكر معجزة لعيسى عليه السلام، لم تذكرها الأناجيل ولا المصادر المسيحية،

وهي: كلامه في المهد صبيا.

ولكــن الإســلام يحــرص في تربيــة أمتــه وتوجيههــا عــلى أن تكــون متميــزة بشخصيتها المستقلة المتفردة، جوهرا ومظهرا ... تتسامح مع الآخــرين، ولكــن لا تذوب فيهم.

والإسلام يؤمن بالمسيح ﷺ، وبأن ميلاده كان آيــة مــن آيــات الله، ولكنــه لا يتخذه عيدا، فإن لكل أمة أعيادها، التــي تــرتبط بهويتهــا وتاريخهــا. وللمســلمين عيداهم: عيد الفطر وعيد الأضحى، وليس عيد الميلاد.

كما أن المسيحيين للأسف يرتكبون باسم المسيح في ميلاده ما لا يقبلــه هــو ولا أمه عليهما السلام، وما يبرأ منه رسل الله جميعًا.

على كل حال، فنحن نتحدث عن القرن الجديد باعتباره حدثا عالميا مهــما، فــلا حرج علينا أن نهتم به، كما اهتم المسلمون في العهــد المكــي بــالحرب الــدائرة بــين فارس والروم، وحزنهم لهزيمة الروم، وهم نصارى أهل كتاب، أمام الفرس، وهــم مجوس يعبدون النار، ونزول قرآن يتلى في ذلك، وهو أوائــل ســورة الــروم ﴿الٓمٓ 1 غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ 3 فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 1 – 5].

ولعل حديثنا عن هذا القرن الجديد، أو عن «الألفية الثالثة» كــما عــبروا عنهــا، يقرب ما بين أتباع المسيح وأتباع محمد عليهما السلام، ويطفئ تلــك النــار التــي أججتهــا الحروب الصليبية ولم تزل مشتعلة في نفوس كثير مــن الغــربيين إلى اليــوم. حتــى وجدنا المسيحيين تقاربوا مع اليهود، وأصدروا وثيقة تبرئهم من دم المسيح، وهــم

لا يعترفون بالمسيح ولا بإنجيله ولا بأمه. والمسلمون لا يصح إسلامهم، ولا ينعقد إيمانهم ما لم يؤمنوا بالمسيح وبكتابه. ومع هذا لم يقترب المسيحيون منهم إلى هذا المدى، بل رأينا الأمريكان - وهم مسيحيون - يرشحون الإسلام عدوا جديدا، يمثل الخطر المستقبلي الذي يهددهم، بعد زوال خطر الاتحاد السوفييتي.

متى يبدأ القرن الجديد؟

أكتب هذه السطور، ولم يبق إلا شهر واحد، أو أقل على مقدم سنة 2000 للميلاد، بداية القرن الحادي والعشرين، أو الألفية الثالثة، كما هو مشهور ومتعالم عند كثير من الناس، وكما تعلن عنه وتهلل له أجهزة الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئية.

بيد أن الذي أو من به، ويؤمن به كثيرون غيري: أن سنة 2000م هي نهاية القرن العشرين، وأن بداية القرن الحادي والعشرين هي سنة 2001م، وهذه بدهية ما كان ينبغي الخلاف فيها؛ فإن الإنسان إذا بدأ قرنا «أي 100 سنة» فإن هذا القرن لا ينتهي بسنة 99 منه، بل بنهاية سنة 100 منه، ولا أحسب أحدا ينازع في هذا، ومثل ذلك القرن التالي، لو بدأنا سنة 101 لوجب علينا أن ننهي القرن سنة 200 لا لسنة 199.

وهذه قضية قد حدث الخلاف في شأنها عندما استقبلنا - نحن المسلمين - القرن الخامس عشر الهجري، وكان بعض الناس قد حسبوا أن القرن يبدأ سنة 1400هـ ثم انتهى الرأي إلى أنه يبدأ بيقين سنة 1401هـ. وقد كانت بداية الاحتفالات بهذا القرن هو إقامة المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية بدولة قطر.

ربما كان تغيير التاريخ من 1900 إلى 2000، وعقدة الكمبيوتر في ذلك،

ومحاولة التغلب عليها، لها تأثيرها العقلي والنفسي في النظر إلى أن الألفية سنة 2000 هي الفاصل، وليست 2001.

على كل حال، سواء كان مطلع القرن سنة 2000 أو 2001 فالحديث عنه وعن الألفية الثالثة مقبول في هذا الوقت، بل قد بدأ الحديث من قبل ذلك بسنوات.

وأريد أن أنبه هنا على مسألة مهمة تتصل بمقدم هذا القرن، أو هذه الألفية وما يتوقعه الناس من تغير أو تطور إلى الأمام أو إلى الخلف بهذه المناسبة الفاصلة.

هذه المسألة هي: هل الحياة ستتغير في 1/ 1/ 2000م عن الحياة في 31/ 12/ 1999م أو في 1/ 1/ 2001 عن الحياة في 31/ 12/ 2000م؟ أعني هل يبيت الناس بشكل، ويصبحون بشكل آخر؟ أو هل يتغير تفكيرهم وسلوكهم ما بين عشية وضحاها، ولمجرد انتهاء قرن وحلول قرن آخر؟

لا شك أن الناس في يناير هم الناس في ديسمبر، والحياة في أوائل القرن الجديد هي الحياة في أواخر القرن المنصرم. والكون والحياة والإنسان لا تتغير فجأة، لأن قرنا قد تولى، وآخر قد بدأ. فإن كل شيء يمضي في طريقه وفق قوانين الكون، وسنن الخلق ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

ولكن جرت أعراف الناس، وتعلقت أمانيهم من قديم: أن تحدث تغيرات وتطورات، عقب كل قرن يذهب وآخر يجيء ولا شك أن هناك تغيرات تقع قبل انتهاء القرن، أو بعد بدء الآخر، فالحياة لا تزال تتجدد، والدين نفسه لا يزال يتجدد، كلما جد قرن، وفي هذا جاء الحديث النبوي: «**إن الله يبعث على رأس كل**

مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»[1].

والمراد بتجديد الدين هنا: تجديد الفهم لـه، والإيـمان بـه، وإحيـاء الالتـزام بـه والدعوة إليه.

وهذا يشير إلى أن التغيير والتجديد أمر يترقب كلما مضى قرن وأهل آخـر، وإن جاء ذلك أصلا في القرن الهجري، ولكن قد يستفاد من المبدأ نفسه هنا.

دورنا في الألفية الثانية:

وقد أثار بعض الباحثين المسلمين سؤالا عن دور المسلمين في «الألفيـة الثانيـة» المنصرمة، وماذا كان لهم فيها من خلاق.

والواقع أن النصف الأول للألفية الثانية، كان المسلمون فيه هـم سـادة العـالم، وحضارتهم هي المعلمة للدنيا، في حين كانت أوربا ترى النظافة من عمل الشيطان، وترى التطبب على أيدي الكهنة، وكان رجال الدين فيها عقبة في سبيل تقدم الدنيا، وهم مشغولون بإصدار قرارات الحرمان، وبيـع صـكوك الغفـران. كانـت تلـك القرون التي تسمى عندهم «القرون الوسطى» تمثل عصور التأخر والظلام.

عرف العالم أسماء كبيرة لعلماء وفلاسفة وأدباء وموجهين وحكـام ومسـلمين، حازوا شهرة عالميـة، وتركـوا «بصـماتهم» في الحيـاة الفكريـة والأدبيـة والدينيـة والسياسية.

أمثال البيروني والخوارزمي وابن الهيثم وأبي بكر الرازي والزهراوي في العلـم، وأمثال ابن سينا وابن رشد وابن طفيل في الفلسفة، وأمثال الغزالي وابـن تيميـة في

---

(1) رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة، وصححه عدد من أئمة الحديث.

الدين، وأمثال المتنبي، وأبي العلاء وأبي حيان وجلال الدين الرومي في الأدب والشعر، وأمثال نور الدين محمود الشهيد وصلاح الدين الأيوبي في السياسة والحكم، وغير هؤلاء كثير. وأكثر منهم من لم يبلغوا مكانتهم وشهرتهم من النوابغ والعباقرة في العلوم والآداب والفنون، وهم يعدون بالألوف وعشرات الألوف.

هكذا كنا في النصف الأول من الألف الثانية للميلاد.

على حين غدا النصف الثاني للألفية الثانية يتحرك لحساب الغرب ونهضته وتطوره، وانتقاله من الظلام إلى النور، ومن الجمود إلى الحركة، ومن النوم إلى اليقظة، ومن الجمود إلى التحرر، ومن الرجعية إلى التقدم.

ولا ينكر منصف أن الغرب إنما تحرك وتطور عندما احتك بالمسلمين في الحرب والسلم، في الحروب الصليبية وفي الأندلس، وفي صقلية وغيرها من قنوات الاتصال، واستفاد الغرب من جامعات المسلمين، وعلماء المسلمين، وكتب المسلمين، واقتبس المنهج التجريبي الاستقرائي من حضارة المسلمين، وطفق الغرب ينهض ونحن نتعثر، ويصحو من نومه، ونحن نغط في سبات عميق، وينظر إلى الأمام، ونحن مشدودون إلى الخلف.

هل لنا أمل في الألفية الثالثة؟

ترى ماذا يكون دور المسلمين في الألفية الثالثة الجديدة، أو على الأقل في القرن الجديد؟ أيكون لهم مكان تحت الشمس أم يظلون في ذيل القافلة كما هو اليوم؟ يستهلكون ولا ينتجون، ويستوردون ولا يبدعون، ويستقبلون ولا يرسلون، ويقلدون ولا يجددون!!

أنا لست من المتشائمين، وقد علمنا التاريخ أن الحضارة دورات، وأن الدهر قلب، ودوام الحال من المحال، وهذه هي سنة «التداول» الكونية الثابتة، التي قررها القرآن الكريم حين قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

وقد كانت شعلة الحضارة في القديم لدى الشرق، أيام الحضارات الفرعونية والفينيقية والبابلية والفارسية، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان. ثم عادت إلى الشرق أيام الحضارة العربية الإسلامية ... فلما ركد المسلمون وتخلفوا حين أساءوا فهم دينهم وتطبيقه ... هرولت الحضارة إلى الغرب، الذي يقود العالم اليوم، بل كاد الغرب يتجسد الآن في أمريكا، القطب الأعظم، بل القطب الأوحد في العالم، وهي تريد أن تفرض سيادتها الثقافية والاقتصادية والسياسية على العالم تحت اسم «العولمة» وما هي إلا «الأمركة». وسنة الله تعالى، ومنطق التاريخ، أن الدورة الحضارية القادمة لنا نحن المسلمين، حسبما يقتضيه «صراع الحضارات» الذي تحدث عنه الكاتب الأمريكي «صمويل هنتنجتون» وفق قانون «البقاء للأصلح» وليس للأقوى، فإن «البقاء للأقوى» هو قانون الغابة. أما البقاء للأصلح، فهو قانون الإنسان.

وقد كان الاتحاد السوفيتي قوة ضخمة، ويملك ترسانة هائلة من الأسلحة النووية والتدميرية، وجيوشا جرارة مدربة مستعدة، ومع هذا لم تغن عنه هذه القوة العسكرية شيئا، وانهار هذا البناء الكبير؛ لأنه أسس على شفا جرف هار، فانهار بأصحابه، والله لا يهدي القوم الظالمين. إن بقاء الأمم الكبيرة لا يدوم بقوة السلاح وحدها، فلا بد من قوة معنوية وراء القوة المادية. والقوة المعنوية لا تعني الدين وحده، كما يتصور الكثيرون، الدين والإيمان في المقدمة، ولكن القوة المعنوية تشمل

الأخلاق والفكر والمعروفة والمعاني الإنسانية، وهذه كلها ضرورية للبقاء والتفوق، مع ضرورة القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية.

وإن لدينا – نحن المسلمين – من المبشرات الدينية والدنيوية(2) ما يملؤنا ثقة بالمستقبل، ويقينا بغد أفضل، ولا يعني ذلك أن ننام على آذاننا، ونتكل على هذه البشائر، بل يجب أن نحفزنا هذه المبشرات إلى العمل، والعمل الدءوب، المبني على العلم والتخطيط، حتى نحول الأحلام إلى حقائق، والأمل إلى واقع مشهود. ومن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فإذا كان العالم من حولنا، قد أطالوا الحديث عن الألفية الجديدة، فلا علينا أن نتجاوب معهم، وخصوصا المسيحيين الذين يحكمون عالمنا اليوم، سواء بالقوة العسكرية أو بالقوة الاقتصادية، أو بالقوة العملية والمعرفية.

ولنقف بهذه المناسبة وقفة مراجعة ومحاسبة مع أنفسنا، لا لنجلد ذاتنا، ونتحسر على ما ضيعنا، ونردد «لو» و«ليت» ترديد اليائسين المحزونين، ولننشد مع شاعرنا القديم:

وليس براجع ما فات مني بـ «لهف» ولا بـ «ليت» ولا «لو

والحديث الشريف يعلمنا أن «لو» تفتح عمل الشيطان.

إنما علينا – بعد أن نعرف إنجازات البشرية وإخفاقاتها في هذا القرن، وقد خصصنا لها الباب الأول هنا – أن نقف وقفة التاجر الواعي ليعرف أرباحه من خسائره، ليستكثر من الأرباح، ويتفادى الخسائر. وكذلك يجب أن نقف أمام

---

(2) انظر: كتابنا «المبشرات بانتصار الإسلام» من رسائل ترشيد الصحوة.

نجاحاتنا وإخفاقاتنا «وقد خصصنا لها البابين الثاني والثالث من هذه الدراسة» لنستزيد من أسباب النجاح ونعمقها ونحسن توظيفها، وندرس أسباب الإخفاق، ونجتهد في التغلب عليها وتفاديها في المستقبل، والقرآن يعلمنا فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]. أي إن تعاقب الليل والنهار يعطي فرصة للاستدراك لمن أراد.

ثم علينا أن نواجه التحديات، الداخلية والخارجية، المحلية والعالمية «وقد خصصنا لها الباب الرابع والأخير» ببصيرة نافذة، ووعي عميق، وإيمان صادق، وعزم مصمم، وجهد دؤوب، ولا سيما التحديات الكبرى؛ التحدي الصهيوني، وتحدي التجزئة والتفكيك، وتحدي العولمة. وإذا توافر العلم والعزم والإيمان والعمل فإن الله لا يضيع جهد العاملين، ولا أجر المصلحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدوحة - رمضان 1420هـ

ديسمبر 1999م

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

* * *

إنجازات البشرية وإخفاقاتها
في القرن العشرين

- قرن الإنجازات العلمية الكبرى.
- قرن الحقوق والحريات.
- قرن انهيار القيم.
- قرن الحروب والدماء.

* * *

قرن الإنجازات العلمية الكبرى

حققت البشرية من المنجزات العلمية والعملية في هذا القرن – وفي النصف الأخير منه خاصة – ما لم تحقق عشر معشاره، بل ولا واحدا في الألف (0001٪) منه، خلال القرون الماضية كلها، فقد وثبت في هذا القرن العشرين وثبات جبارة في دنيا العلم والتكنولوجيا، على كل المستويات المدنية والعسكرية والطبية وغيرها، وحققت إنجازات كان الناس يحسبونها من المستحيلات.

لقد حاول الإنسان قديمًا أن يجرب الطيران إلى أعلى، كما صنع عباس بن فرناس في الحضارة الإسلامية، ولكن تجربته باءت بالفشل، ولم تكتمل، ولكن الإنسان في هذا العصر صنع الطائرة، واستطاع أن يحلق بها في الجو منذ سنة 1903م.

بدأت الطائرة في أول أمرها صغيرة بسيطة، ثم لم يزل الإنسان يطورها ويحسنها؛ حتى وصل إلى المحرك النفاث، وما زال يطورها في حجمها وسعتها وسرعتها، حتى وصل إلى «الكونكورد».

ولم يكتف الإنسان بذلك، بل اخترع الأقمار الصناعية التي يطلقها في الفضاء بواسطة الصواريخ ذات القدرة الفائقة، وكان أول قمر أطلق في الفضاء هو القمر الروسي الذي كان عليه أول رجل فضاء، وهو «جاجارين».

ثم سابق الأمريكان الروس في هذا الميدان، فسبقوهم، وصنعوا سفن الفضاء، ومنها السفينة التي أقلت أول إنسان لينزل على سطح القمر، ويجلب منه بعض الصخور والأتربة. وذلك في صيف سنة 1969م.

وتطورت سفن الفضاء، فبعضها حمل عدة رجال، بل بعض النساء، وبعضها

دار حول الأرض مددا طويلة.

وحاول العلم أن يلحم مركبة فضائية بأخرى في الفضاء، وأن يصلح ما فيها من خلل، ونجح في ذلك.

ويريد العلم أن يصل إلى الكواكب الأبعد مسافة من القمر، وقد أنـزل سـفينته على الكوكب الأحمر، المريخ، إلى غير ذلك مما يدخل تحت اسم «غزو الفضاء».

ولا يزال الإنسان يطمع في المزيد، والمنهوم بالعلم لا يشبع، كالمنهوم بالمال.

ويا عجبا كيف تطورت مراكب الإنسان من الحمار والجمل، سفينة الصحراء، إلى سفينة الفضاء! وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في عبارة معجزة حين حدثنا عن نعمته تعالى بتهيئته وسائل النقل القديمة، فقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8].

ومن الإنجازات المهمة: اختراع المذياع الذي أدهش الناس عند ظهوره، كيف يسمع الناس صوت إنسان بينه وبينه بحار وجبال ووديان وصحاري، وآلاف الأميال!

ثم ازدادت دهشتهم باختراع «التلفاز» الذي يسمعون فيه الصوت ويرون فيه الصورة معا، وقد كان في أول أمره أبيض وأسود، ثم تطور إلى أن يظهر بالألوان، ثم دخل العالم عصر القنوات الفضائية.

وكذلك تطورت الهواتف «التليفونات» في هذا القرن، فلم تعد بأسلاك، كما كانت من قبل، بل رأينا التليفون المحمول والمتنقل، الذي بدأ يصغر حجمه إلى حد بعيد، ويؤدي أكثر من خدمة.

وهناك التليفون الذي يرى فيه مستخدمه صورة من يخاطبه.

وقد أمكن الإنسان الاتصال عن طريق التلكس، ثم عن طريق «الفاكس» الذي لم يبرح كل حين بتطور، وهو آية من آيات الله. إلى غير ذلك من العجائب التي يطلق عليها الآن «ثورة الاتصالات». وآخرها هذه الشبكة الجبارة التي تسمى «الإنترنت».

وفي مجال الطب: حدث تقدم هائل، وخصوصا في علم الجراحة، ولا سيما جراحة القلب، وجراحة العيون، ولا سيما بالليزر، وزرع الأعضاء من الكلية والكبد والقلب والقرنية وغيرها.

وعرف الطب لأول مرة أطفال الأنابيب، واكتشف مرض «الإيدز».

وفي مجال الأدوية اخترع الأمصال واللقاحات التي وقت البشر من كثير من الأمراض، بعضها وقاية دائمة «مناعة» مثل «الجدري».

واخترع البنسلين وتطوراته، الذي كان له أثره في تقدم الجراحة، وكذلك حبوب منع الحمل.

واخترعت المسكنات للآلام مثل الأسبرين وعائلته، ومسكنات المغص وآلام العظام.

وإذا كان عصر الصناعة الأول قد وفق الإنسان فيه إلى اختراع الآلة لتوفير الجهد البدني والعضلي للإنسان، فبدل أن يحمل على ظهره تحمل العربة، وبدل أن يخيط بيده تخيط الماكينة، فإن عصر الصناعة الثاني، توفر فيه الآلة الجهد العقلي للإنسان، وذلك باختراع هذا الشئ الذي سموه «الكمبيوتر» واحترنا نحن العرب في تسميته: أهو الحاسب الآلي أم الدماغ الإلكتروني أم العقل الإلكتروني أم الحسابة أم

المحاسب أم الحاسوب؟؟

وهذا الاختراع قد أحدث ثورة هائلة في الصناعة والحياة بصفة عامة، فعلى أساسه تسير الطائرات، وتتوجه الصواريخ، وتدور الأقمار الصناعية، وتصعد سفن الفضاء ... ولا يكاد يخلو أمر من أمور الحياة إلا دخلت فيه الثورة الإلكترونية الجبارة، حتى الأطفال أصبحوا يستخدمونه، وفرض التعليم المعاصر إدخاله في المدارس الإبتدائية.

وهناك بجوار الثورة التكنولوجية، والثورة الفضائية، والثورة الاتصالاتية، والثورة الطبية، والثورة الإلكترونية، الثورة البيولوجية، هندسة الوراثة، والتحكم في الجينات، حتى أمكن أن يتحكموا في جنس الجنين، ذكرًا أو أنثى، وربما في شكله وصورته: أبيض أو أسود، ناعم الشعر أو مجعده، أزرق العينين أو أسودهما، إلى آخر ما يقال في ذلك، حتى أطلق عليه بعضهم: طفل حسب الكتالوج.

وقد أقمنا منذ سنوات في جامعة قطر ندوة علمية عن «الهندسة الوراثية وموقف الدين والأخلاق والتشريع منها». وذلك لوضع الضوابط لهذه الثورة؛ حتى تمضي في طريق مأمون.

وقد انتهى ذلك التطور إلى «استنساخ الحيوان» كما في النعجة الشهيرة «دوللي» وأصبح من المخوف أن يتطور ذلك إلى استنساخ الإنسان، وهو ما حذر منه علماء الدين والأخلاق والاجتماع والتشريع، لما يترتب عليه من مضار وأخطار، لا يتسع المقام للحديث عنها.

ولا مانع من استخدام هندسة الوراثة في تحسين سلالات النباتات، وتطعيم بعضها ببعض في ضوء الدراسات العلمية، والتجارب العملية، المتأنية.

وكذلك لا مانع من استخدامه في مجال الحيوان إذا لم يكن في ذلك إيذاء له، أو ضرر به، أو ضرر بالإنسان من ورائه، ذلك أن «الخروج على الفطرة» في أي مجال أمر خطير، ينبغي التدقيق والتأني فيه، وقد بدأ الحديث أخيرا حول أضرار ما استخدمت فيه الهندسة الوراثية(3).

وهناك ثورة أخرى، هي: «ثورة المعلومات»، فنحن في عصر «انفجار المعرفة»، وقد أصبحت كمية المعلومات شيئا لا يقدر قدره، ولا بد من ترتيبها وتبويبها وفهرستها وتنظيم الاستفادة منها.

وقد أنتجت هذه الثورات العلمية بألوانها المختلفة: رفاهية الحياة، واختصار المكان والزمان، وتقريب البعيد، وتوفير الوقت والجهد، والتنقل بين القارات بسهولة وسرعة، وتهيئة أسباب الراحة، من التكييف للهواء في الصيف، وتدفئته في الشتاء، وتبريد الماء أو تسخينه حسب الطلب، واختراع الغسالات الالكترونية والأفران الكهربائية، والميكروويف، والمنظفات الآلية، وغيرها وغيرها.

كما أنتجت ثورة المعرفة والمعلومات أثرها في الاقتصاد وتطوره، حتى غدوا يتحدثون اليوم عن «الموجة الثالثة» فيه. وهي قفزة هائلة، استفاد منها العالم المتقدم، أو «العالم الأول» كما يسمونه، ولم يبلغ الآخرون درجة الاستفادة منها، حتى «روسيا» قصرت بها معرفتها أن تجاري الغرب المتقدم واليابان.

ولم يقف هذا عند المطالب المدنية، بل تعداها إلى المطالب العسكرية، من

---

(3) آخر ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال: ما أعلن عنه والكتاب في المطبعة، وهو اكتشاف «خريطة الجنيات البشرية» أو ما يسمى «الجينوم البشري» وقد ألن عنه الرئيس الأمريكي «كلينتون» بنفسه، وقالوا: إنه أهم من اختراع البنسلين، وأهم من وصول الإنسان إلى القمر!

الدبابات والغواصات والطائرات الحربية المتطورة، مما رأينا بعضه في حرب الخليج الثانية، حتى تكاد تكون حربًا آلية، بلا خسائر من البشر ـ المهاجمين. وقبل ذلك اخترع الغرب القنبلة النووية، وضرب بأول قنبلتين مدينتي هيروشيما ونجازاكي باليابان، ثم طور القنبلة النووية إلى هيدروجينية، كما طور قدرتها، فأصبحت شيئا مخيفا، لا يتصور أثره، وكيف تكون حال البشرية لو قامت حرب استخدمت فيها الأسلحة النووية؟

وهناك إنجازات على المستوى النظري مثل نظرية أينشتين في النسبية، وإنجازات أخرى، يعطى أصحابها جائزة «نوبل» في العلوم كل عام.

وتوجد إنجازات أخرى ذات تأثير كبير في حياة البشر، وسياسة الأمم، وذلك فيما يتصل بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة والفلسفة والقانون والتاريخ واللسانيات وغيرها، مما أخذه بعض الناس في بلادنا كما هو بجذوره الفلسفية، وتأثراته الشخصية والبيئية، وتعصباته الدينية والقومية، الشعورية منها واللاشعورية، وهو ما أنكره عليهم دعاة الأصالة، والمحافظون على استقلال الأمة الحضاري والثقافي، كاستقلالها العسكري والسياسي.

المهم أن هذه الإنجازات الكبيرة والهائلة خلال القرن لم يكن لأمتنا فيها نصيب، بل كانت كلها بما أنجزه الغرب بكل فصائله وأممه، ونحن في المسرح مجرد متفرجين، نصفق أو ننكر، ولا دخل لنا فيما يجري على خشبة المسرح.

كان منا من غير ريب علماء مبرزين لهم وزنهم وقيمتهم، ولكنهم في سياق البلاد المتخلفة، لم يجدوا من يعترف بهم أو يبرزهم على الساحة، فعاشوا مغمورين،

أو ماتوا مجهولين أو شبه مجهـولين. ومـن وجـد مـنهم فرصـة للحـاق بـالغرب، وبأمريكا خاصة، فقد وجد الطريق إلى العالمية، كـما تجـلى ذلـك في الـدكتور أحمـد زويل، العالم المصري الأصل، الأمريكي الجنسية، الذي حصل على جائزة «نوبـل» في العلوم، لسنة 1999م.

***

قرن الحريات وحقوق الإنسان

ومن أعظم إنجازات القرن عند الغربيين: شيوع الحريات العامة فيه، وإعلان مواثيق حقوق الإنسان، وخصوصًا فئات المستضعفين من البشر، مثل حقوق العمال في مواجهة أرباب العمل، وحقوق الشعوب في مواجهة الحكام، وحقوق النساء في مواجهة الرجال، وحقوق الفقراء في مواجهة الأغنياء، وحقوق المسنين والأطفال والمعوقين على الأسر وعلى المجتمع والدولة.

ولم يكن تقرير هذه الحقوق والحريات، مجرد فكرة فلسفية، أو دعوة نظرية، أو حبر على ورق، بل قد سنت قوانين، وقامت مؤسسات محلية وإقليمية ودولية؛ لرعاية هذه الحقوق والحريات ومعونة أصحابها، والدفاع عنهم، أمام من يجحدون حقوقهم، أو يجورون عليها، أو ينتقصونها.

أصبح من حق الشعوب أن تختار حكامها عن طريق الانتخاب الحر، تشرف عليه هيئات قضائية نزيهة، وأن تسائل هؤلاء الحكام بعد ذلك، ومن حقها أن تقدمهم للمحاكمة أما قضاء عادل، وأن تسحب منهم الثقة أو تسقطهم أو تخلعهم وفق ما يحدده الدستور من نظم وإجراءات.

ليس هناك حاكم أكبر من أن يسأل، ولا محكوم أصغر من أن يسائل.

ومن حق كل فرد في الشعب أن يحاكم إذا ارتكب مخالفة أمام قاضية الطبيعي، وأن يحامي عن نفسه، أو يوكل من يحامي عنه، بل من حقه في قضايا معينة أن توكل الدولة عنه من يحامي عنه.

ولا يجوز أن يسجن إنسان أو يعتقل بغير جرم جناه، يثبت القضاء أنه قد

اجترمه ولا يجوز القبض عليه والتحقيق معه بغير إذن القضاء. والأصل في المتهم أنه برئ حتى تثبت عليه التهمة بحكم المحكمة. ولا يجوز بحال تعذيب المتهم حتى يدلي باعترافات رغم أنفه، بل تحت سياط العذاب.

ولا ينكر منصف ما ارتقى إليه الغرب في حقوق الإنسان، ورسوخ الديمقراطية، ونزاهة الانتخابات، حتى إن حكومة حزب معين تجري الانتخابات، وهي التي تحكم وتملك السلطة التنفيذية، ثم تأتي نتيجة الانتخابات فتسقط، وتدع السلطة طواعية للحزب المنافس، وهكذا تتداول السلطة بشكل سلمي، ويتلقى الحزب المهزوم مصيره بشجاعة، ويحاول أن يبذل من الجهود، ما يحسن صورته في أعين الجمهور، ويجعله أكثر قبولًا من خصمه في الانتخابات القادمة.

ورأينا في ظل الديمقراطية الوزراء يحاكمون، بل الرؤساء أنفسهم يحاسبون، وربما يعزلون، كما حدث للرئيس الأمريكي نيكسون، الذي اضطر إلى التخلي عن منصب رئاسة الجمهورية بسبب ما عرف باسم «فضيحة ووترجيت».

وكذلك حوكم الرئيس الأمريكي الحالي كلينتون، وكاد الكرسي يطير من تحته، لولا استعطافه للشعب الأمريكي أن يسامحه ويغفر له، وقد اعترف بخطئه، وهو خطأ شخصي لا يتناول سياسة الحكم، ولا سياسة المال، ولا شأنا من الشئون العامة.

وهذا وأمثاله مما يرصد في حسنات المجتمع الغربي وإنجازاته في القرن العشرين.

ملاحظات ثلاث على الحريات في الغرب:

ولي على هذا الإنجاز الغربي حول الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان التي

تميز بها الغرب ودافع عنها: ملاحظات ثلاث مهمة، أود أن أسجلها هنا بأمانة وإنصاف:

ازدواجية الغرب في الحقوق والحريات:

الملاحظة الأولى: أن الغرب يهتم بالحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان غاية الاهتمام، ويقيم الدنيا ويقعدها إذا اعتدى عليها معتد، أو اجترأ عليها مجترئ، وداس حماها المقدس، إذا كان ذلك في دياره نفسها، أعني: في ديار الغرب، وأوطان الغرب فمن حق كل شعب فيها، وكل فرد فيها أن ينعم بالحرية، وأن يمارس حقه في الديمقراطية، وأن يكون له حقه في اختيار حكامه، ومحاسبتهم، وعزلهم إذا خرجوا على الدستور. ولا يجوز لحاكم - مهما بلغ شأنه - أن يتجاوز حدوده الدستورية، فينتهك حقوق الأفراد، أو يصادر حرياتهم، أو أموالهم، أو يفصلهم من أعمالهم، أو يحاكمهم أمام محكمة غير عادية، ومن فعل ذلك فهو حاكم دكتاتوري ظالم، متعد على دستور الأمة، يجب خلعه وعزله، ولا حق له في البقاء فوق كرسيه يومًا واحدًا.

هذا ما عليه الغرب إزاء الحقوق والحريات في ديار الغرب، أما خارج ديار الغرب، فهو يكيل بكيل آخر، ويتعامل بمعيار آخر، فليس الحرام في الغرب حراما في الشرق، وليس الواجب المفروض في الغرب واجبا مفروضا في الشرق، إنه يتعامل تبعا لمصالحه ومنافعه، وكثيرا ما تؤدي به هذه النظرة «البراجماتية» النفعية، إلى تحليل ما هو حرام في الغرب، وإسقاط ما هو واجب ولازم في الغرب.

لهذا يسكت الغرب عن حكام العرب والمسلمين الذين يحكمون أوطانهم وشعوبهم حكما استبداديا طاغوتيا، بل كثيرا ما يقفون من خلف هؤلاء الطغاة،

سرا في بعض الأحيان، وعلانية في أحيان أخرى، وكثيرا ما يسندون الديمقراطيات الزائفة، التي يحصل الرؤساء فيها على 99٪، وأحيانًا على 99.99٪!

ولم نر الغربيين احتجوا يوما على تجاوزات هؤلاء الحكام المتجبرين، ومظالمهم التي ظهرت في البر والبحر، ومست الكبار والصغار، والرجال والنساء.

بل رأيناهم يرحبون بإلغاء الانتخابات في الجزائر سنة 1991، التي حصل الإسلاميون فيها على على الأغلبية الساحقة، ويشجعون المؤسسة العسكرية التي استولت على السلطة بالقوة الجبرية.

ومما لا يخفى على دارس أو مراقب لما يجري في العالم من أحداث وتقلبات: أن الغرب يعادي كل نظام دكتاتوري، وكل حركة دكتاتورية تصل إلى الحكم، إلا في بلاد الإسلام، فهو يؤيد الانقلابات العسكرية، والحكومات الاستبدادية، ما دام استبدادها يصب في اتجاه التضييق على الإسلام والإسلاميين.

إقامة الكيان الصهيوني المغتصب:

ومن المآسي البشعة، التي تحسب على الغرب، وتجسد ازدواجية المعايير عنده في هذا القرن: إقامته لهذا الكيان العدواني المغتصب المسمى «إسرائيل» الذي احتل فلسطين، وطرد أهلها منها بالقوة ليحل محلهم.

فالغرب هو منشئ هذا الكيان من عدم، وهو الذي نفخ فيه الروح بعد إيجاده، وهو الذي غذاه ورعاه بعد ولادته، وهو الذي قواه ودوافع عنه بعد نشأته، وهو الذي ما زال يمده بالوقود والطاقة كلما أعوزه شيء من ذلك.

بريطانيا هي التي وعدت اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، كما تجلى

ذلك في «وعد بلفور» وزير خارجية بريطانيا في 2/ 11/ 1917م. أي في الوقت الذي كان يحارب بعض العرب مع بريطانيا دولة الخلافة التركية، ودخل القائد الإنجليزي «اللنبي» القدس في تلك السنة، وهو يقول بشماتة: اليوم انتهت الحروب الصليبية! يعني أنه حقق بدخوله القدس ما فشلت فيه الحروب الصليبية قديما.

وقد عينت عصبة الأمم بريطانيا منتدبة لحكم فلسطين، فكان عهد الانتداب البريطاني لفلسطين عهد تمكين وتوطين للصهاينة، وفتح الباب لهجراتهم الجماعية إلى فلسطين، ولم يكن لهم وجود يذكر بها، وإتاحة الفرص لهم لبناء المستعمرات تلو المستعمرات، في حين يضيق على أهل فلسطين كل التضييق، وينكل بهم بأدنى سبب وبلا سبب.

وقامت ثورات غاضبة في فلسطين ضد التسلل الصهيوني المنظم، وضد الانتداب البريطاني الممالئ، والمتواطئ، ولكنها لم تستطع مقاومة مكر بريطانيا العظمى، ووراءها الغرب كله، الذي يساند المشروع الصهيوني، حتى أصبح الحلم حقيقة، وقامت «دولة إسرائيل» على أرض ليست لها في 15 مايو «إيار» 1948م واعترفت أمريكا بها في لحظة ولادتها، وتتابعت دول أوربا بعدها تعترف بها وتؤيدها، من المعسكر الرأسمالي، إلى المعسكر الشيوعي، وأعلن الجميع بصراحة مُرة: أن إسرائيل خلقت لتبقى.

وما زالت إسرائيل تصول وتجول، وتعربد إلى اليوم، وتفرض سلامًا على هواها، في فترة برز فيها الاستسلام الفلسطيني، والعجز العربي، والوهن الإسلامي، أمام الاستكبار الاسرائيلي، والتفرد الأمريكي، مع التخاذل الأوربي، والغياب العالمي.

والسلام في هذه الآونة يعني الرضا بالدون، والحياة الهون، والقبول لأرباع الحلول، بل لأعشار الحلول. ورحم الله أبا الطيب حين قال:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميت إيلام!

الحرية الشخصية في الغرب معناها التسيب:

الملاحظة الثانية: أن لنا – نحن المسلمين – تحفظا على الحرية التي ينادي بها الغرب، وذلك في مجال «الحرية الشخصية» التي يرى الغربيون أن مجالها مفتوح، ولا تقف إلا عندما تصطدم بحرية الآخرين.

ومعنى هذا أن الإنسان حر في أن يفعل ما يشتهي لا ما ينبغي، وإن خالف القيم العليا، أو أضر بنفسه، أو آذى من لا يستطيع أن يشكو، مثل الحيوان أو البيئة، أو العلاقات الكونية من حوله.

ومعنى هذا، إما النزول بالإنسان إلى «درك الحيوان» الذي يتحرك بمقتضى غرائزه وحدها، وليس عنده عقل يمنعه أو ضمير يردعه.

أو الصعود إلى «منزلة الإله» الذي لا يسأل عما يفعل.

وكلا الأمرين خطأ وشرود عن الصواب، فحرية الإنسان ليست مطلقة بحيث لا يقيدها قيد، كما استقر في الضمير الغربي، الذي حول «الحرية» إلى «إباحية» تجعل الإنسان يركض وراء شهوته كالحيوان، وربما كان أضل منه سبيلا.

وبهذا بات من حق الإنسان «العُري» ولو في الطريق العام، بل ارتكاب الفضائح الجنسية في الحدائق العامة والمتنزهات والطرقات.

وأصبح الزنى والشذوذ الجنسي من حق كل من الرجل والمرأة.

وصار زواج الجنس بالجنس مشروعًا.

وغدا من حق المرأة أن تجهض جنينها، باعتباره جزءا من جسدها، وهي حرة في هذا الجسد، ولم ينظروا إلى هذا الكائن الحي أو المخلوق البشرى الذي يسكن في أحشائها وأن له حق الحياة التي وهبها له الخالق الأعلى، وأن ليس لأمه ولا لأبيه ولا لأحد من الناس حق العدوان على حياته.

لقد أغفل الغربيون أن الحرية المطلقة غير موجود في العالم، فالسيارات في الطرق السريعة الرئيسة، تسير في حدود معينة، حددتها قوانين السير أو المرور، من خالفها يعاقب على قدر مخالفته. والسفن والبواخر في المحيطات الكبرى تسير في خطوط ملاحية مرسومة لها، إذا تعدتها تتعرض لكوارث مدمرة، والطائرات في جو السماء ليست حرة، تذهب كما تشاء يمنة ويسرة، بل لها خطوط حددتها لها نظم الملاحة الجوية، لا يجوز لها أن تتعداها.

بل نقول: إن الشمس والقمر والنجوم في السماء، كل منها يجري في مدار محدود، ومسار معلوم ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:40].

ثم إن الفكر الغربي فصل الحياة الشخصية عن الحياة العامة. وقالوا: إن الحياة الشخصية ملك للفرد يتصرف فيها كيف يشاء، يسكر ويعربد، ويحيا زانيا أو شاذا أو قوادا أو ديوثا، أو ما شاء أن يفعل، فليس لأحد أن يحاسبه على ذلك، أو يدخل ذلك في شئون الحياة الاجتماعية، أو الحياة العامة.

وهذا ليس صحيح، فحياة الإنسان متداخلة ومتلازمة، ويتصل بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في بعض، ولا يتصور أن يكون الإنسان فاسدا في حياته الخاصة،

صالحا في حياته العامة. ولا أن يكون الإنسان الشاذ أو القواد أهلا لأن يؤتمن على مسئولية ذات شأن.

ومن هنا نجد أجهزة الاستخبارات في الدول الكبرى تصطاد جواسيسها من بين «أصحاب الشهوات» عن طريق الخمر والمخدرات والنساء، فهذه هي «المصايد» السحرية التي توقع في شباكها هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، ممن أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات.

أما الإسلام فلا يفصل بين الحياتين الخاصة والعامة، ولا بين العلاقتين: العلاقة بالله والعلاقة بالناس. ويرى أن من خان الله، لم يبعد أن يخون قومه، ومن ضيع حق الله فهو لحقوق الناس أشد تضييعا. ومن فسدت سريرته، فهيهات أن تصلح علانيته، وكل إناء ينضح بما فيه.

احترام المرأة في الظاهر لا في الحقيقة:

الملاحظة الثالثة: أن الغرب أظهر احترامه للمرأة، وحررها من ظلم الرجال من الآباء والأزواج وأمثالهم، وخلصها من الاعتقادات التي كانت تؤمن بأنها لا روح لها، وأنها أحبولة الشيطان، إلخ. ولكن المرأة في الغرب تحترم ظاهرا وتمتهن باطنا.

لقد عوملت المرأة كالرجل، وطولبت بما يطالب به الرجل، وسيقت إلى المعامل والمصانع كالرجال، ناسين أن تكوينها ليس كتكوين الرجل، وأن وظيفتها ليست كوظيفة الرجل، وهذا ما قاله العلماء الكبار المتخصصون، وأنكروه على الغرب، مثل «ألكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

إن المرأة خلقت لتكون أما، لتنشئ الأجيال في حضنها؛ ولذا تحمل وتضع وترضع وتربي، وتتوالى عليها الدورات الشهرية، وتعاني ما تعاني في الحمل والولادة

كما قال القرآن: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15]. فكيف تطالب بما يطالب به الرجال؟ أليس هذا ظلما للمرأة، وتحميلا لها أكثر مما تطيق، ومحاباة للرجل على حسابها؟

لا غرو أن نشأ في الغرب ما سمي «الجنس الثالث» الذي أخرجه العمل اليومي المنهك من نعومة الجنس اللطيف، ولم يدخله في الجنس الخشن «الرجال»، فبقي جنسا ضائعا، لا هو من النساء ولا هو من الرجال.

لقد أمست المرأة في الغرب أداة للمتعة، والإثارة الجنسية، ولهذا قامت فلسفة الأزياء النسائية في الغرب على إبراز المحاسن، وتجسيد المفاتن، وإظهار المثيرات، وليس على الستر والحشمة، كما هو عندنا. كما أن المرأة باتت أهم عنصر في الإعلانات، حتى فيما يتعلق بالرجال، وما يحتاج إليه الرجال، تعلن عنه امرأة.

والويل كل الويل للمرأة التي يذبل شبابها، وتذهب بهجتها ونضرتها، هنا تكسد سوقها، وتلقي في سلة المهملات، ولا يكاد يزورها أحد، أو يهتم بها أحد، وهذا ما حدث لأشهر الممثلات في أمريكا وفرنسا وغيرهما.

ونظرا لانحلال الأسرة وانهيار القيم الأسرية، فقد أصبح كثير من الفتيات لا يتزوجن، ولا يعشن في أسر تظلهن، وتجمعهن بأزواجهن السكينة والمودة والرحمة، التي ذكرها القرآن أركانا للحياة الزوجية المنشودة. بل يعاشرن الرجال معاشرة المخادنة والمرافقة دون ارتباط بمسئولية الزواج وتبعاته المالية والأخلاقية والاجتماعية والدينية.

ويا مصيبة من تحمل من هذه المعاشرة، فماذا تفعل بهذا الجنين الذي لا يعرف له أب، ولو عرف له أب فهو ليس أبا شرعيا مسئولا عن ولده وفلذة كبده.

ومن هنا راج في الغرب هذا البلاء المبين، وهو الـدعوة إلى «إباحـة الإجهـاض» بصورة مطلقة، بلا ضوابط ولا قيود، باعتبار أن المـرأة حـرة في جسـدها، بـلا أي مراعاة للدين والفضيلة والأخلاق. وأي حرية هذه التي تبيح قتل مخلوق حـي في أحشاء المرأة لا ذنب له ولا جريرة، إلا شهوة الأبوين البهيمية؟

ومن المؤسف أن تتبنى هذه الدعوة أحـزاب كـبرى في الولايـات المتحـدة وفي غيرها، وأن توضع على رأس قوائم الانتخابات، وأن تحاول الأمم المتحدة فرضـها في وثائقها، كما حدث في مؤتمر السكان بالقاهرة، وقد وقف رجال الدين في الإسلام والمسيحية ضد هذه الدعوة الفاجرة القاسية، التي لا تليق بالإنسان، الذي زعم أنـه ارتقى إلى قمة الحضارة.

***

قرن انهيار القيم الإيمانية والأخلاقية

ومن الإخفاقات، بل من المآثم والمنكرات: موقف العالم الغربي وحضارته المعاصرة من الإيمان والقيم الأخلاقية، التي جاءت بها رسالات السماء جميعا، فقد خفت صوت الإيمان، وخبا نور اليقين بالله وبالجزاء في الآخرة، في ديار الغرب كلها، الليبرالية والشيوعية.

أما الشيوعية، فهي قائمة على تفريغ الحياة من الإيمان بالله، واعتبار الدين أفيون الشعوب، ودستورها يعلن: أن لا إله، والحياة مادة، فلا يتوقع في ديار الشيوعية الملحدة، أن ترتفع للإيمان راية، وأن يكون للدين سلطان. بل التعليم والتثقيف والإعلام ومؤسساتها، كلها قائمة على الإلحاد.

وأما الليبرالية، فهي لا تجحد الله صراحة، ولكن - كما قال ليبوبولد فايس «أو محمد أسد» - ليس لله مكان في نظامها الفكري الحالي.

إن بلدان «العالم الحر» أو العالم الرأسمالي أو المعسكر الغربي تتبنى كلها «الفلسفة المادية» أساسا لحياتها الفكرية والسلوكية. والدين لديها مسألة فردية، ولا يكاد يرى للدين أثر في سلوك الأفراد، إلا لدى قلة قليلة، لا يمثلون الاتجاه العام في أوطانهم. ولا يكاد يذكر الدين إلا في مناسبات معينة، مثل أعياد الميلاد «الكريسماس» وقد أصبحت أعيادا قومية أكثر منها دينية.

كما يذكر الدين أحيانا باعتباره محركا من المحركات، وحافزا من الحزافز في السياسة، كما نجد ذلك عند المسيحيين الأصوليين الذين يتدينون بتأييد الصهيونية، وكما نجد ذلك جليا عند عدد من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية،

مثل كارتر، وريجان، وبوش، وكلينتون.

ويذكر الدين كذلك عند الغربيين عندما تظهر للإسلام قوة بصورة ما، في صورة صحوة عامة، أو حركة منظمة، أو دولة حاكمة كما في إيران والسودان، فهنا تثور الروح الصليبية، التي ترى الإسلام «عدوها الأول» كما رأيناهم في أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي يرشحون الإسلام ليكون هو عدو المستقبل، ويسمونه «الخطر الأخضر»، وقد كُتبت في ذلك كتب، وعقدت ندوات ومؤتمرات.

أما التدين الحق، بوصفه يقينا بالله ولقائه وحسابه، وباعتباره تقوى لله سبحانه، تقوم على رجاء رحمته، وخشية عقابه، فهيهات أن تجد له أثرا في الغرب، إلا في القليل النادر.

ولهذا قال بعض مفكريهم: نحن نعيش على ظل لظل، فعلى أي شيء يعيش من بعدنا؟ يريد بظل الظل: ظل إيمان الجيل السابق الذي بنى الحضارة.

ومع خفوت صوت الإيمان، خفت صوت الأخلاق والفضائل، وغلبت الشهوات والرذائل، فقد قامت فلسفة الحضارة الغربية على الفصل بين العلم والأخلاق، وبين الاقتصاد والأخلاق، والسياسة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

ولهذا استخدم العلم الأسلحة الفتاكة التي تقتل الملايين، إذ العلم لا صلة له بالأخلاق.

واستخدم الاقتصاد كل الوسائل لسحق المنافسين، وطردهم من الساحة بأية وسيلة، وكذلك للكسب والإثراء ولو من عرق الكادحين، ودماء المستضعفين، ودموع المسحوقين، لأن الاقتصاد شئ، والأخلاق شيء آخر.

واستخدمت السياسة كل الوسائل لقهر الخصوم، والتغلب على المنافسين بالكذب والخداع والمكر والغش، فالغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق لا لزوم لها في عالم السياسة!

ومثل ذلك الحرب، فتستخدم فيها كل الوسائل والآليات، وإن هدمت قرى بكاملها، وقتلت الآمنين في دورهم، والمدنيين في معاشهم، والنساء والأطفال والشيوخ في بيوتهم.

وفي الحياة العامة، وجدنا غياب الأخلاق التي تضبط شهوة الجنس، وتميز بين الإنسان والحيوان، وخصوصا خلق الحياء والعفاف والإحصان.

فالغرب يريد أن نفتح الباب على مصراعيه للجنسين، يستمتع بعضهما ببعض، دون قيود ولا ضوابط. إلا رغبة أحدهما في الآخر، فلا قيمة لعقد ولا لرباط زوجية مقدس. ولا لأسرة ينشأ في رحابها الأولاد، ويتعلمون في ظلالها آداب البنوة والأخوة والتعاون والمحبة، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير، واحترام الملكيات، وإعطاء كل ذي حق حقه.

لقد رأينا الدعوة إلى الإباحية في الغرب يعلو صوتها، ورأينا أندية للعراة، وأندية للعراة، وأندية للشذاذ والمخنثين من الجنسين، ورأينا هؤلاء وهؤلاء يظهرون في مجموعات لها أصواتها المكثفة في الانتخابات الرئاسية في أمريكا وفي غيرها.

بل رأينا من يمارس الجنس مع أخته، بل مع ابنته، بل مع أمه! ورأينا ألوانا جديدة من الزواج، غير الزواج الذي شرعه الله، وعرفه الناس، وهو: زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة! ورأينا بعض الكنائس الغربية تبارك هذا الزواج، ورأينا من آباء الكنائس من يعلن في التلفاز أنه يعقد هذا الزواج. ورأينا بعض البلاد

الأوروبية تجيز هذا قانونا، كما فعل مجلس العموم البريطاني.

ورأينا «مؤتمر السكان» الذي انعقد في القاهرة سنة 1994م و «مؤتمر المرأة» الذي انعقد في «بكين» بالصين سنة 1995م، كلاهما يتبنى هذا الاتجاه الذي يقوم على فلسفة الإباحية، ويتبنى هذه الألوان الشاذة من العلاقات، مثل الأسرة الوحيدة الجنس «تتكون من رجلين أو من امرأتين»! أو الوحيدة التكوين «تتكون من امرأة تتبنى طفلا»!

كما تبنيا إباحة الإجهاض بإطلاق، واعتبار الحمل جزءا من جسم المرأة تتصرف فيه كما تشاء، متناسبين هذا الكائن الحي الذي يجري في أحشائها، وأن له حق الحياة، ولا حق لها ولا لغيرها في قتله وإعدامه.

وقد وقف الأزهر ورابطة العالم الإسلامي والمؤسسات الإسلامية مع الفاتيكان جنبًا إلى جنب «في مؤتمر السكان بالقاهرة» في مواجهة هذه الموجه العاتية التي تريد أن يتحلل الناس من سائر القيم والفضائل، وأن يعيشوا كالأنعام أو أضل سبيلا.

الشيوع والإقرار والتقنين:

لقد عرفت الخطيئة، وعرف الشرود عن الأخلاق، والانحراف عن الصراط المستقيم في كل الأمم، وفي شتى الأزمنة، ومن المعروف أن الإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، اختلط فيه الخير والشر، وامتزج فيه الطين والروح، واصطرع فيه الفجور والتقوى. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]. ولا بعد في أن يغلب الفجور التقوى لدى بعض الناس، ويغلب الخير الشر، ويعلو الطين على الروح، فيخلد الإنسان إلى الأرض ويتبع هواه. ولكن الناس كانوا يستخفون إذا وقعوا في الإثم، ويستحيون

أن يراهم أحد، أو يعرفهم به أحد، ويحاول أحدهم أن يبرئ نفسه إذا اتهم بـه، وإذا غلبته نفسه أو شيطانه تضرع إلى الله أن يتوب عليه.

ولكن المشكلة في فساد هذا القرن في الغـرب، تكمـن في شـيوع هـذا الفسـاد وانتشاره انتشار النار في الهشيم، حتى أمسى عرفا عاما، يشب عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، فلا تنكره القلوب، ولا تنهى عنه الألسنة، بله أن تغيره الأيدي.

هذا هو الخطر في فشو المنكر والرذيلة والفساد في الأرض، وهذا ما عابه الله على اليهود وبني إسرائيل، إذ وقع فيهم الفساد ولم ينكـروه، بـل سـكت عنـه العلـماء والكبراء، فباءوا بوزره، كما قال تعـالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ 62 لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62، 63].

واستحق المجتمع كله بهذا لعنة الله ﷻ وعقوبته: الفاعل بافتراقـه، والسـاكت بإقراره، كما قال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ 78 كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78، 79].

وقد حذر القرآن من هذه النقمة الإلهية العامة في قوله تعـالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25].

وقد ذكر لنا الحديث النبوي الشريـف مـا يصـيب النـاس مـن بـلاء لم يعرفـه السابقون، ولم يجربه اللاحقون، بسبب شيوع الفساد والمنكر، وذلك فيما رواه ابـن ماجه والحاكم عن ابن عمر مرفوعا «**ما ظهرت الفاحشة في قـوم حتـى يعمـل بهـا**

فيهم علانية، إلا سلط الله عليهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»[4].

وهذا الإنذار النبوي صدقه الواقع المشاهد، حيث ظهرت فاحشة الزنى والشذوذ، وأصبح يعمل بها علانية، لا يستحي منها أحد، ولا يستخفي، فأصيب القوم بما أطلقوا عليه اسم «الإيدز» جزاء وفاقا، بما قدمت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

وقد حدثنا القرآن عن قوم انتشرت فيهم الفاحشة «الشذوذ الجنسي» وأدمنوها، حتى غدت آفة عامة فيهم، لا ينكرها بعضهم على بعض، وأرسل الله فيهم رسولا يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، واجتناب هذا المنكر الذي يأتونه في ناديهم، وقال لهم رسولهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ 165 وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165، 166].

وصفهم لوط هنا بأنهم عادون، وفي مواقف أخرى بأنهم مفسدون ومجرمون ومسرفون، وجاهلون، حتى ضيوفهم ما كانوا يدعونهم، وصدق القرآن حين قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72].

ولهذا كان لا بد من تطهير الأرض من رجس هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ 82 مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 82، 83].

ومن ثم نرى أن مشكلة الانحلال والفساد الخلقي في الغرب في هذا القرن إنما

(4) انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني (جـ1 رقم106).

تتمثل أجلى ما تتمثل في ظهوره وشيوعه والإعلان به، وإقراره من العـرف العـام، وهذا أشد ما يكون خطرا على المجتمع الإنساني: أن يسكت عن المنكر فـلا ينهـى عنه، ثم ينحدر الأمر أكثر، فيؤلف المنكر ويعتـاد، فـلا ينكـر النـاس منكـرا، ولا يعرفون معروفا، ثم يزداد الانحدار والسقوط، حتى يأمر الناس بالمنكر وينهوا عن المعروف، وهو مجتمع المنافقين، الذين هم في الدرك الأسفل من النار ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].

وأشد من ذلك سوءا وانحطاطـا: أن «يقـنن المنكـر» وتقـره شرائـع المجتمـع وقوانينه السارية، وهذا هو منتهى السقوط والانحدار في الهاوية.

وهو ما انتهى إليه الغرب في أواخر هذا القرن حيث قنن «الشذوذ الجنسي» في بعض الأقطار وأجازته البرلمانات التي تملك التشريع.

فهذا ما هبط إليه الإنسان الغربي المعاصر[5]، في قرن الإنجازات التكنولوجيـة، والثورات العلمية، ولا نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

خطر فصل العلم والاقتصاد والسياسة عن الأخلاق:

وهنا أود أن أزيد إضافة مهمة في موضوعنا هذا.

فقد لاحظت أن كثيرا مـن الكتـاب المسـلمين إذا تحـدثوا عـن سـقوط القـيم الأخلاقية في الغرب، ركزوا على جانب العفاف والإحصان والطهـارة مـن الزنـى

---

(5) انظر: فصلي «الانحلال الأخلاقي» و «التفسخ العائلي» مـن كتابنـا «الإسـلام حضـارة الغـد»، (ص32 – 64) نشر مكتبة وهبة القاهرة.

والشذوذ ونحو ذلك مما يتصل بفضائل «الجنس».

وهذا حق لا ريب فيه، ولكن السقوط الأخلاقي عند المغربيين أوسع دائرة من ذلك، وذلك أن فلسفتهم - كما أشرنا من قبل - تقوم على الفصل بين العلم والأخلاق، وبين العمل والأخلاق، وبين الاقتصاد والأخلاق، وبين السياسة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

وانفصال هذه الأمور الجوهرية عن الأخلاق، معناه: أن الحياة كلها قد عزلت عن الأخلاق، وأن الأمة في علمها وعملها، وفي سياستها واقتصادها، وفي حربها وسلمها تمضي وفق أهوائها ومنافعها المادية، ولا يحكمها عنصر القيم والأخلاق.

وهذا سر ازدواج المعايير في السياسة الغربية، فهم يحرمون الشئ على قوم، ويحلونه لآخرين، وقد يعاقبون شعبا على فعل، ولا يعاقبون عليه إذا اقترفه آخرون، كما نراهم أبدا في موقفهم من إسرائيل، فهم يدينون الإرهاب إلا إذا ارتكبته إسرائيل، ويدينون قتل المدنيين ما لم ترتكبه إسرائيل.

وهذا أيضا سر استخدام العلم الغربي في التدمير والإهلاك بغير حساب.

وسر استخدام القوة العسكرية الغربية في تنفيذ سياستها رغم أنوف الشعوب المستضعفة في الأرض «تحكم الذئب فاخضع أيها الحمل»!

وهذا هو السر في أن الاقتصاد الغربي لا يبالي أن يسحق الصغار لمصلحة الكبار، وأن يطرد من السوق كل الناس لينفرد به وحده، وأن يرخص الأسعار مدة من الزمن لسلعة معينة، حتى يعجز الآخرون عن مجاراته، فيفلسوا وينسحبوا من الميدان، ويبقى هو وحده لا شريك له. ولله در شاعرنا أحمد شوقي حين قال:

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا!

قدرة الحضارة الغربية على معالجة أخطائها:

ولكن لكي نكون منصفين يجب أن نعترف للحضارة الغربية المعاصرة – برغم ماديتها ونزعتها النفعية والإباحية – أنها قادرة على نقد ذاتها، واكتشاف أخطائها، وتشخيص دائها، ووصف دوائها، وبهذا تستطيع – إلى حد كبير – أن تعالج كثيرا من الخلل والاضطراب الواقع في مسيرتها أو في كيانها نفسه. وخصوصا الغرب الليبرالي، المؤمن بالحريات العامة، وبحرية التفكير، وحرية التعبير، وحرية النقد، من خلال الصحافة والكتب وأجهزة الإعلام والبرلمانات وغيرها.

ولهذا سرعان ما يسقط اتجاه ويأتي آخر، وتسقط حكومة وتأتي أخرى.

لقد رأينا مستر تشرشل يقود أمته «بريطانيا» إلى النصر في الحرب العالمية الثانية، فلما وضعت الحرب أوزارها، غيره الشعب واختار غيره، فللحرب رجالها، وللسلم رجالها.

ولقد رأينا كيف نشأ الاتحاد الأوربي، وتطور بسرعة من سوق أوربية مشتركة إلى برلمان أوربي، إلى كيان سياسي يتقارب ويتلاحم يوما بعد يوم، لم تقف في سبيله عقبة التاريخ، وما كان فيه من صراع دام استمر قرونا، وسالت فيه دماء عزيزة وغزيرة، نتيجة لخلافات دينية أو عرقية أو إقليمية، أو مصلحية، وآخرها الحربان العالميتان اللتان حصدتا الملايين من أبناء أوربا بأيديهم بعضهم لبعض، لم تحل عقبة التاريخ دون الاتحاد، ولا عقبة الواقع وما فيه من تنافس وتناقض وتعارض مصالح، بل تغلبوا على ذلك كله في ضوء نظرة موضوعية مستقبلية مستوعبة، وفي ضوء ما نسميه «فقه الموازنات» و«فقه الأولويات».

فانظر إلى هذا النجاح الباهر، وانظر في مقابله إلى خيبتنا نحن العرب، حيث لم

نستطع إلى اليوم عقد قمة عربية – مجرد قمة ليومين أو ثلاثة – لمناقشـة مشـكلاتنا الكبرى المعلقة، فقد وقفت حرب الخليج الأخيرة عقبة في سبيلنا. وإن كنت شخصيا لا أعلق أملا على هذه القمم، ولكنها مظهر من مظاهر الوحدة على أية حال.

* * *

قرن الحروب والدماء

ومن أبرز معالم هذا القرن: أنه قرن الحروب والدماء، التي لم يعرفها قرن من القرون قبل ذلك. ومن قرأ أرقام الضحايا، ارتعدت فرائضه من هولها وضخامتها؛ فكل ضحايا البشرية منذ ابتدأت الخليقة إلى أواخر القرن الماضي لا تبلغ عشر معشار ما حصدته هذه الحروب الوحشية من أبناء آدم في هذا القرن وحده.

لا شك أن الصراع بين البشر قديم، وقد تلا علينا القرآن قصة ابني آدم بالحق، حين قتل الأخ أخاه ابن أمه وأبيه، ظلما وعدوانا، قتل قابيل هابيل - كما تسميهما الإسرائيليات - وذلك في فجر التاريخ، حين كانت البشرية أسرة واحدة، تتكون من أبوين وأولادهما، وحين كان الإنسان لا يعرف كيف يواري جثة أخيه، فقد كان هذا أول ميت في تاريخ البشر، ومن المؤسف أن يكون أول ميت قتيلا، وأن يكون قتله بيد أخيه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 30].

واستمر الصراع والقتال بين البشر لأسباب شتى، طوال القرون، وفي مختلف البيئات والبلدان، ولا يعرف عصر خلا من القتل والقتال وإراقة الدماء، حتى قال بعض الأدباء والمفكرين: الإنسان حيوان محارب!

ولكن البشرية في تاريخها الطويل، لم تعرف قرنا وقع فيه من الحروب الكبرى، وجرى فيه من أنهار الدماء، مثل ما جرى في هذا القرن الدموي الأحمر.

ذلك أن الحروب في العصور الماضية كانت حروبا محلية، وكانت الأعداد فيها قليلة، وكانت أدوات الحرب محدودة التأثير، فقلما يصيب السلاح إلا واحدا من

الناس إذا جاء ممن يتقن استعماله، سواء كان أضربا بالسيف، أم طعنا بالرمح، أم رميا بالنبل والسهام، حتى الرمي بالمنجنيق ونحوه، قلما كان يصيب غير المباني والقلاع والتحصينات.

أما حرب هذا العصر، فقد تطورت أسلحتها تطورا هائلا، منذ اختراع البارود، ثم الأسلحة الأتوماتيكية والصاروخية، والدبابات والمدرعات والغواصات والسفن الحربية، والطائرات المقاتلة، وحاملات الطائرات، ثم الأسلحة الكيماوية والجرثومية، والأسلحة النووية. وما زال الإنسان – في الغرب خاصة – يطور أسلحته باطراد وسرعة جنونية، حتى تغدو الأسلحة الحديثة، بعد مدة قليلة، أسلحة قديمة عفى عليها الزمن، يبيعها لأمثالنا الذين نشتري مخلفات أسلحته بعشرات المليارات.

كما تطورت مساحة الحرب، فلم تعد بين قبيلتين، ولا بين شعبين، بل ولا بين عدة شعوب، بل كتل هائلة من البشر، انقسمت إلى معسكرين يقاتل بعضهما بعضا، حتى شملت العالم كله.

وهذا ما شهدناه في الحربين الكونيتين الكبيرتين في هذا القرن: الحرب العالمية الأولى ما بين سنة 1914 و 1918م الحرب العاليمة الثانية ما بين سنة 1939م وسنة 1945م وهي في الأساس بين دول أوربية، ومع كل منهم حلفاء من أنحاء العالم.

ومما ضاعف حجم الخسائر البشرية في حروب هذا القرن: زيادة أعداد السكان في قارات العالم كلها؛ ولهذا غدت هذه الآلات العسكرية الجهنمية تقتل الآلاف تلو الآلاف مرة واحدة، بل عشرات الألوف، بل مئات الألوف، حتى كانت

الحصيلة النهائية، بالملايين بل بعشرات الملايين، كما ستقرأ ذلك بالأرقام التي أحصاها أهل الاختصاص.

ومن الفوارق بين هذه الحروب الكونية في هذا القرن، وبين الحروب القديمة: أن الحرب قديما، كثيرا ما كانت تنتهي في يوم أو أيام، كما رأينا في الغزوات النبوية في عصر الرسالة، وفي عصور الفتوح الإسلامية، ومعارك التاريخ الإسلامي الكبرى، كانت الحرب تنتهي في يوم مثل غزوة بدر أو أحد أو حنين، وكذلك نرى المعارك الحاسمة في التاريخ، كان معظمها يحسم في يوم، مثل معركة اليرموك مع الروم، ومعركة القادسية مع الفرس، ومعركة حطين مع الصليبين، ومعركة عين جالوت مع التتار.

والعرب في الجاهلية أطلقوا على معاركهم التاريخية كلمة «أيام العرب» لأن الأصل فيها أن تقع في يوم واحد، وإن كان بعضها قد استمر مدة طويلة، مثل حرب البسوس، التي دامت أربعين عاما، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأربعين عاما كانت كلها حروبا بين القبلتين المتصارعتين: بكر وتغلب، بل العداوة هي المستمرة، وقد يقع ما بين الحين والحين اشتباكات تكبر أو تصغر.

أما الحربان العالميتان، فقد استمر كل منهما نحو خمس سنوات، مشتعلة الأوار ملتهبة السعير، تغذيها الروح العدائية الكامنة، وينفخ فيها شيطان الكبر والاستعلاء في الأرض، ويغذيها العلم بما يخترع من أسلحة جبارة، وتبررها السياسة بما لها من مطامع وأهواء.

قرن الحربين العالميتين:

وقعت الحربان العالميتان الكبريان في حوالي ثلاثين سنة 1914 - 1945 بين

أوروبا بعضها وبعض: ألمانيا ومن انضم إليها من حلفاء، وانجلترا ومن كان معها من حلفاء في القارات المختلفة. هذه الحرب لم تكن كحرب البسوس، أو حرب داحس والغبراء عند العرب، ولا كالحرب بين الفرس والروم في أوائل الإسلام، ولا كالحرب بين المسلمين والمشركين في غزوات الرسول وقد بلغت (27) غزوة، وسرايا أصحابه وهي نحو (56) سرية، فقد كان كل حصيلة هذه الغزوات والسرايا لا يزيد على 400 شهيد وقتيل من المسلمين وخصومهم.

ولم تكن هذه الحرب كالحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم في أيام الفتح الإسلامي، ولا كالحروب التي نشبت بين الأوربيين والمسلمين فيما سمي الحروب الصليبية، وإن سالت فيها دماء غزيرة، ولاسيما من المسلمين على أيدي الصليبيين. ولا بين الأوربيين بعضهم وبعض خلال ما سموه القرون الوسطى، ولاسيما بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد كانت حروبا قاسية ومجازر رهيبة انتقم فيها بعضهم من بعض بشكل رهيب، وحقد أسود بغيض، قل أن يوجد له نظير.

لقد كانت هذه الحرب أو هاتان الحربان أشد وأنكر من ذلك كله بمئات المرات بل آلاف المرات، فقد استخدمت فيها أدوات حديثة لم يكن يملكها الإنسان القديم، واستبيحت فيها الحرمات والدماء، بما لم يعرف من قبل، واتسعت مساحتها، حتى شملت العالم كله أو كادت.

وقد كان عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى – حسب إحصاءاتهم أنفسهم – نحو تسعة ملايين (9000000) قتيل.

أما الحرب العالمية الثانية – وقد تطورت فيها أسلحة القتل والدمار – فقد بلغ

نحو واحد وستين مليونا من البشر (61000000).

وهذه تفاصيل الضحايا والقتلى في الحرب العالمية الثانية بالأرقام:

الاتحاد السوفيتي	25.568.000
الصين	11.324.000
ألمانيا	7.000.000
بولندا	6.800.000
اليابان	1.800.000
يوغسلافيا	1.700.000
رومانيا	985.000
فرنسا	810.000
هـذا بالاضـافة إلى بريطانيـا وبعـض الـدول الأخرى	
المجموع:	61 مليونا

وهذه بعض الأرقام الناطقة بعدد القتلى خلال القرن المنصرم، المعبرة عما اقترفته البشرية من جرائم شنيعة، في قرن الإنجازات العلمية:

الاتحاد السوفيتي: من عام 1917 - 1991 - 62 مليونا.

الحرب العالمية الثانية: 13 مليونا – 25 مليونا[6].

الصين: من عام 1923 – 1987 – 38 مليونا.

منذ عام 1971 – 110 مليون حالة إجهاض متعمد، قال مؤلف الكتاب: وإذا اعتبرت هذه جريمة، تكون أكبر جريمة في التاريخ.

ونحن – المسلمين – لا نشك في أنها جريمة اعتداء على إنسان حي، وإن يكن في الرحلة الجنينية، إلا أنه إنسان!

مجاعة الستينات: 27 مليونا.

الحرب العالمية الأولى: 1914 – 1918 – 9 ملايين.

الحرب العالمية الثانية: 61 مليونا.

قتلى الحكومات خلال القرن: 170 مليونا «دون الحرب» وهذه هي التفاصيل:

البلد	السنة	العدد
الاتحاد السوفيتي	1917 - 1987	61.911.000
الصين الشيوعية	1949 - 1987	35.236.000
ألمانيا النازية	1933 - 1945	20.946.00
الصين القومية	1928 - 1949	10.075.000
اليابان	1936 - 1945	5.964.000

(6) Alan Bullock - Hiter Stalin: Parallel Live

الثورة الشيوعية في الصين	1923 - 1949	3.466.00
كمبوديا	1975 - 1979	2.035.000
تركيا	1909 - 1918	1.883.000
فيتنام	1945 - 1987	1.678.000
كوريا الشمالية	1948 - 1987	1.663.000
بولندا	1945 - 1987	1.585.000
باكستان	1958 - 1987	1.503.000
المكسيك	1900 - 1920	1.417.000
يوغسلافيا	1944 - 1987	1.072.000
روسيا	1909 - 1917	1.066.000
تركيا أتاتورك	1919 - 1923	878.000
بريطانيا	1900 - 1987	816.000
البرتغال	1926 - 1982	741.000
إندونيسيا	1965 - 1987	729.000
دول أخرى	1900 - 1987	2.792.000
المجموع	1900 - 1987	169.202.000

الثورة الشيوعية الدموية:

ولا يتسع المجال هنا لنذكر تفاصيل هذا المذابح البشرية، وما أريق فيها من دماء، قدمت قربانا لهذا الوثن الجديد «الشيوعية» الذي أنكر الإله الواحد، وأقام «إلها جديدا» هو: المادة، ولا شيء غير المادة.

ولا يستبعد ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، أن يقترف أشنع الجرائم، وأبشع ألوان الفساد في الأرض، فلا دين يردعه، ولا ضمير يمنعه، ولا خوف من الله تعالى يقمعه.

ولهذا رأينا فرعون الطاغية المتأله في الأرض، يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم بالقهر والجبروت، لعدم يقينه بالله وحسابه، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: 39].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

ولا عجب أن رأينا لينين الذي أشعل الثورة البلشفية، وأقام الدولة الشيوعية في روسيا، يرتكب من جرائم التقتيل والتذبيح والترويع ما لا يتصوره بشر. وأعجب من ذلك أنه لم يشعر بأي ألم أو وخزة ضمير من جراء ما ارتكب، بل كتب في رسالة له إلى ماكسيم جوركي يقول: إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون، في سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعيا!!

يتمم هذه الصورة القبيحة ما فعله خليفته من بعده ستالين، حتى بالشيوعيين الأقحاح أنصار لينين، وما فعله بالمسلمين من تقتيل وتنكيل وتهجير إلى صحراء

سيبريا.

وعلى كل حال، قد قامت الثورة الشيوعية في روسيا في سـنة 1917م مـن هـذا القرن، وأقامت الاتحاد السوفيتي، وأدخلت فيه عددا من الجمهوريات الإسـلامية العريقة وراء ستارها الحديدي بالقوة والغلبة المادية، وكانت القوة الثانية، والقطب الثاني في العالم، ثم قبل أن ينقضي القرن انهار هـذا البنيـان الضـخم، وهـو يملـك ترسانة عسكرية هائلة، من الأسلحة النووية والتدميرية، لأنه بني على شفا جـرف هار، فانهار بأهله، وكان مصادما لفطرة الله التي فطر النـاس عليهـا، ومـا صـادم الفطرة لا بد أن تغلبه الفطرة، وأن يعاقبه القدر الأعلى، بقدر مصادمته لها.

وقد كانت مصادمة الشيوعية للفطرة مصادمة ضخمة، فكانت العقوبة الإلهيـة على قدرها، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

* * *

إنجازات أمتنا
في القرن العشرين

- التحرر من الاستعمار
- انتشار التعليم
- ظهور حركات الإحياء والتجديد الإسلامي
- مقاومة التغريب والغزو الفكري
- انطلاق الصحوة الإسلامية

* * *

إنجازاتنا في القرن العشرين

هل أنجزنا شيئا في القرن العشرين؟

أعني بنا: نحن العرب الذين بلغنا في آخر القرن ما يقرب من ثلاثمائة مليون إنسان في الوطن العربي من محيطه الهادر إلى خليجه الثائر، كما يهتف الهاتفون.

ونحن - المسلمين - الذين بلغنا في آخر القرن - بما فينا نحن العرب - نحو ألاف وثلاثمائة مليون، أي نحو مليار وثلث المليار من البشر.

ولا شك أن القوة البشرية نعمة عظيمة امتن الله بها على عباده حين قال على لسان نبيه شعيب لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: 86].

وقال الشاعر العربي يفتخر ويباهي بكثرة عدد قومه:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

وقال الآخر:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل

فحاول أن يعتذر عن قلة العدد.

ولكن لا قيمة لهذه الكثرة البشرية إذا لم تنجز من الأعمال الكبيرة ما يكافئ عددها، وإلا كانت كما بلا كيف، وأمسست «كثرة كغثاء السيل» كما جاء في الحديث النبوي الذي أخبر عن تداعي الأمم على أمة الإسلام، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، أي أن هذه الأمم التي يدعو بعضها بعضا، ويتكتل بعضها مع بعض، تريد أن تلتهم الأمة المسلمة التهام الجياع لطعام القصاع. وحين سأل الصحابة الرسول ﷺ: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ**

كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»(7).

الخير والبركة إذن ليس في مجرد الكثرة، بل في العمل والإنجاز والعطاء.

وسؤالنا: هل أنجزنا شيئا؟ يعني: هل أنجزنا شيئا كبيرا ذا بال، يرصد في سجلنا، ويرفع من قدرنا، ويجعل لنا في العالمين شأنا؟

هذا هو المقصود بالإنجازات، فالإنجازات العادية يشترك فيها الذكر والغبي، والضعيف والقوي، والمتقدم والمتخلف، والعظيم والحقير.

أما ما يسمى «إنجازا» حقا، فهو الأمر المتميز، الذي يبهر الأبصار والعقول، ويعترف الناس جميعا لصاحبه: أنه أنجز أمرا مهما.

فماذا أنجزت أمتنا في هذا القرن العشرين؟

لا نزاع في أن هناك عددا من الإنجازات الكبيرة لأمتنا، لا يجوز أن نغفلها، أو نقلل من شأنها، حتى لا نصاب بالإحباط والمرارة، وحتى لا نكون جائزين على أنفسنا، فنكون نحن والزمن عليها. وجل هذه الإنجازات إنما هي من عمل الشعوب والجماهير، وليس من عمل الأنظمة الحاكمة، إلا ما ندر منها. وهذا ما يخيفنا ويفزعنا، فقد جاء في حديث البخاري: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة**»؟ قيل: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة**»(8) ولكل أمة ساعتها التي تذهب فيها عزتها وسيادتها واستقلالها.

---

(7) رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان، وهو حديث صحيح.

(8) البخاري عن أبي هريرة (59).

وسنتحدث في الفصل التالي عن هذه الإنجازات، التي نرى لها أهمية خاصـة في مسيرة أمتنا.

❋ ❋ ❋

1 - التحرر من الاستعمار

لا شك أن أهم الإنجازات التي أتمتها الأمة في هذا القرن، هو: التحرر من «الاستعمار»، الذي احتل أرضها، وأذل شعوبها، على نحو ما ذكر القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34]. فهي هنا تشير إلى الملوك إذا دخلوا بلدا فاتحين مستعمرين، فهم يفسدون البلاد، ويذلون العباد.

وقد احتل الاستعمار الغربي ديار المسلمين في المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، في غفلة من الشعوب، وتتابع من الكروب، وتخاذل من الحكام، وفرقة في الصف، وغياب عن العصر، ولم ينج من هذا الاستعمار إلا اليمن والمملكة العربية السعودية. وما عداهما من بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا: فقد وزع بين الاستعمار البريطاني والفرنسي والأسباني والإيطالي والهولندي، فقد احتلت هولندا التي كان تعدادها في ذلك الوقت خمسة ملايين أو أقل: إندونيسيا التي كان تعدادها خمسين مليونا أو أكثر.

وكان لهذا الاستعمار خطره على البلاد المستعمرة ماديا ومعنويا. فقد امتص خيراتها، ووجه اقتصادها لصالحه؛ استفاد من المواد الخام التي وجدها في أرض الإسلام، فأخذها مجانا أو بأرخص الأسعار، كما استفاد من الأيدي العاملة التي كانت تعمل بأقصى جهدها، ولا تنال من الأجر ما يحييها حياة طيبة، رغم كد اليمين، وعرق الجبين، وتعب السنين. وجعل من هذه البلاد سوقا لتوزيع سلعه ومنتجاته، فهو مستفيد من كل ناحية، كالمنشار، يأكل صاعدا، ويأكل هابطا.

وقد أشاع أن هذه البلاد لا تسلح إلا للزراعة، ليبعدها عن الصناعة، ليخلو الجو له وحده فيها، وحتى الزراعة لم يحاول أن يطورها ويحسنها كما ونوعا.

وقد أدار دولاب التعليم بحيث يصب في النهاية لصالحه، فهو يخرج موظفين يعملون في دوائره ومكاتبه، لا مبتكرين ولا مبدعين، ولا أناسا ينتمون إلى دينهم، ويعرفون حضارتهم وثقافتهم ورسالتهم التاريخية. فيتخرج الفرد من مدارسه وكلياته، وقد علم عن الغرب وتاريخه ورجاله أضعاف ما يعرف عن الشرق المسلم ونبيه وكتابه ودعوته. إنه يعرف الكثير عن نابليون، ولا يكاد يعرف شيئا عن محمد ﷺ.

وأي معهد لا يخضع لهذه السياسة مثل الأزهر، فهو يعتبر «ناشزا» ومتمردا، ويجب أن نرسم الخطط على أساس عزله عن الحياة، وتركه يموت بالاختناق والحصار.

وقرب الاستعمار الفئات التي تقبل التعاون معه، وأبعد الفئات التي ترفضه، ووضع المناهج، لتغيير هوية الأمة، عن طريق إلغاء الشريعة الإسلامية، لتحل محلها قوانينه الوضعية، وعن طريق إحلال الأفكار والمفاهيم والتقاليد الغربية، محل المفاهيم والآداب والتقاليد الإسلامية، وسيادة القيم الغربية على القيم الإسلامية.

ولم تستلم الأمة في مجموعها لهذا الاستعمار يوما ما، بل قاومت ما وسعتها المقاومة، ربما سكتت فترة من الزمن، حتى ربما ظن الظانون أنها قد استكانت ورضخت للأمر الواقع. ولكن سرعان ما تأتي الأحداث، فتهب الأمة هبتها، وتشعل ثورتها، وتنطلق كالشهاب الثاقب، يرجم ويحرق.

في مصر قاوم رجال مثل مصطفى كامل ومحمد فريد، وبعدهما سعد زغلول،

وثورة سنة 1919م، حتى حصلت على استقلال منقوص، ثم استكملته بعد ذلك بعد كفاح مسلح خاصة الشباب المسلم في مصر- في معارك قناة السويس سنة 1951م حتى انتهى إلى صورته الأخيرة في عهد الثورة.

في الجزائر قاوم الأمير عبد القادر ورفاقه الفرنسيين، وفي ليبيا قاوم الطليان عمر المختار ورجاله، وفي المغرب عبد الكريم الخطابي وأنصاره، وفي فلسطين عز الدين القسام وأبطاله، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر، وسطر كل من هؤلاء صفحات مجيدة في كتاب الجهاد ضد الاستعمار.

وفي الهند - قبل التقسيم - كان للمسلمين دور كبير في تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، وبرزت رموز إسلامية لها وزنها، مثل مولانا أبي الكلام آزاد، وشيوخ الهند الكبار.

وفي إندونيسيا كان حزب ماشومي، وحزب دار الإسلام وغيرهما ممن كان الإسلام هو حافزه الأول.

لقد بلغ الاستعمار ذروته بعد الحرب العالمية الأولى، وقد اقتسم «تركة الرجل المريض» كما كانوا يسمونها، يعنون بها: بلاد الخلافة العثمانية، وانتدبت «عصبة الأمم» بريطانيا على فلسطين، فكانت فرصة لا تعوض لتحقيق بها وعد «بلفور» وزير خارجيتها، بإقامة وطن قومي لليهود، ولتغرس فيها هؤلاء المستقدمين من أقطار شتى، وخصوصا من روسيا وأوربا الشرقية، وأمسى العالم العربي من محيطه إلى خليجه، والعالم الإسلامي من محيطه إلى محيطه، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، أو من جاكرتا إلى نواكشوط، تحت وطأة الاستعمار.

وكما قال الشاعر:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

فهذا ينطبق على الاستعمار الذي ارتفع إلى أقصى ما يمكن في هذا القرن، ثم لم يلبث أن وقع وسقط في القرن نفسه.

انتفضت الشعوب المستعبدة، تطالب بالحرية، وهو حق طبيعي لها، وكما قال شوقي:

يفزع الطير للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء!

وتكللت جهود المقاومة المستميتة والكفاح المستمر للاستعمار بالنجاح، برغم عدم تكافؤ القوة المادية للطرفين، ولكن الحق يجعل صاحب الدار دائما أقوى من الغاصب وأسلحته وعدده وعتاده.

وقد سجل التاريخ دور الدوافع الدينية والتيار الديني في تأجيج نار المقاومة ضد المحتل المستعمر، وهذا ما شهدنا بعضه بأعيننا فيما عاصرناه من أحداث، وما قرأناه لمن راقب وأنصف من المؤرخين.

وقد شهد المؤرخ المعروف برنارد لويس في كتابه عن «الغرب والشرق الأوسط» بأثر الحركات الدينية وشيوخ الدين في معارك التحرير في البلاد الإسلامية، ومطاردة الاستعمار الغاصب، حتى يخرج من دار الإسلام.

* * *

تحرير غير كامل

ومع ما أثمرته المعارك الضارية الشريفة في مكافحة الاستعمار من تحرير البلاد العربية والإسلامية من الاستعمار الغربي العسكري، نرى هناك شوائب تعكر صفو هذا التحرر، إذ لم يكن تحررا كاملا، كما تريد الأمة. تتمثل هذه الشوائب فيما يلي:

الاستعمار الشرقي لا يزال قائما:

أول هذه الشوائب: أننا تخلصنا من الاستعمار الغربي الرأسمالي، ولكننا لم نتحرر من الاستعمار الشرقي الشيوعي، وكلاهما استعمار، بل نرى أن الاستعمار الشرقي أشد وأنكر وأقسى من الاستعمار الغربي، فهو يحارب دين الجماعة، ويحاول تغيير هويتها، وسلخها من ذاتيتها.

فقد بقيت الجمهوريات الإسلامية الآسيوية العريقة في إسلامها، مثل أوزبكستان وطاجكستان، وكازاخستان، وغيرها تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي المتسلط، وراء الستار الحديدي الغليظ.

وقد كان الكثيرون يعدون هذه الأوطان الإسلامية ضمن الأقليات الإسلامية، فهي أقلية في الاتحاد، ولكنها في واقع الأمر، أقطار مستقلة ضمت قهرا إلى السوفيت، ودخلت قسرا تحت سلطانهم.

وحتى حين انهار الاتحاد السوفيتي، وسقطت الشيوعية، وتحررت روسيا من حكم الشيوعيين، وتحررت أوربا الشرقية «رومانيا والمجر وبولندا وبلغاريا وتشكوسلوفاكيا وغيرها» من النظام الشيوعي، ومن الحكام الشيوعيين، وانضمت إلى الأنظمة الديمقراطية، واختار كل شعب الحكام الذين يريدهم.

إلا الجمهوريات الإسلامية، فقد اتفق الروس مع الغرب على عدم تغيير الوضع القائم في تلك البلاد، وبقي الشيوعيون فيها قابضين على أزمة الأمور، وما ذلك إلا للخوف من انبعاث الإسلام وصحوته، وأن يكون هو البديل والوارث للشيوعية في حال سقوطها، وسقوط ممثليها. فكان عجبا كل العجب أن تسقط الشيوعية في روسيا نفسها، وتبقى مسلطة، شاهرة سيفها، في الجمهوريات الإسلامية وحدها.

الاستعمار الصهيوني:

وثاني هذه الشوائب: أننا تحررنا من الاستعمار الغربي، وابتلينا باستعمار أخبث منه وأخطر، وهو الاستعمار الصهيوني، وهو أعلى مراحل الاستعمار، وسر أنواعه، فهو استعمار استيطاني عدواني، ولكنه ليس كالاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فقد كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر يزاحم أهل البلاد في أراضيهم وأملاكهم، ويبقيهم معه شركاء. أما الاستعمار الصهيوني، فهو يعمل على اقتلاع أهل البلاد من جذورهم، وتهجيرهم من ديارهم بالعنف والإرهاب والمذابح البشرية، ليحتل مكانهم، ويغتصب بلادهم.

ولا ريب أن هذا الاستعمار الخبيث من ثمرات الاستعمار الغربي، فهو الذي مهد له، وساعده منذ وعد «بلفور» وقبله وبعده، وخصوصا الاستعمار البريطاني، أيام أنتدابه على فلسطين لمدة ثلاثين عاما. غرس فيها البذرة الصهيونية الخبيثة وتعهدها ونماها، في حين حارب أهل فلسطين، وجردهم من كل قوة تمكنهم من المحافظة على وطننهم، ولم يخرج من فلسطين، إلا بعد أن سلمها للعصابات الصهيونية، التي أعلنت دولة إسرائيل في 15/ 5/ 1948م واعترفت بها أمريكا في الحال، ثم روسيا وإنجلترا وبلاد الغرب، وأعلنت أمريكا وروسيا كلتاهما: إن إسرائيل إنما خلقت لتبقى.

وسنعود إلى قضية الصهيونية ومشروعها في الحديث عن «الإخفاقات» وعن «التحديات».

الاستعمار الجديد:

وثالث هذه الشوائب: هو أننا تحررنا من الاستعمار القديم، ولكننا استسلمنا للاستعمار الجديد. الذي تمثله أمريكا بقوتها العسكرية والاقتصادية والعلمية، وتفردها بالنفوذ في العالم، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. فقد كان وجوده رحمة للشعوب والبلاد المستضعفة، فإن تصارع الأقوياء، دائما من مصلحة الضعفاء، وقد كان من دعاء سلفنا الصالح: اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين!

الاستعمار الجديد لا يقوم عن احتلال الأرض، والتحكم المباشر في الشعب، بل يقوم على إملاء الإرادة من وراء ستار، بالنصائح الملزمة، والتهديدات المبطنة، وقد تبعث بقوات عسكرية لها، إلى بعض الأقطار بدعوى الاتفاقيات الثنائية، ولا يتصور اتفاق حقيقي بين قوي مستكبر، وضعيف مغلوب، إنما هو الفرض والإملاء، الذي لا يملك الطرف الضعيف فيه إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا.

ونفوذ هذا الاستعمار في المنظمات الدولية، مثل مجلس الأمن، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، يمكنه من الإغراء والتهديد بالإعطاء والحرمان، لمن يشاء، وكيف يشاء.

وقد يتدخل هذا الاستعمار تدخلا مباشرا عند اللزوم، كما تمثل ذلك في ضربه للسودان ولأفغانستان.

وقد بلغ من قوته أن يؤثر على أوربا رغم تقدمها العلمي والتكنولوجي، وهذا

ما جعلها تتناسى ما كان بينها من صراع وحروب، وتتنادى بإقامة «اتحاد أوربي» يجعل منها قوة لها وزنها الاقتصادي والسياسي في مقابلة القوة الأمريكية الرهيبة.

الاستعمار الثقافي:

ورابع هذه الشوائب: هو أن الاستعمار الغربي العسكري قد حمل صولجانه ورحل عن البلاد، ولكنه أبقى وراءه استعمارا، أشد منه خطرا، وأعمق في الحياة أثرا، وهو «الاستعمار الثقافي» وقد يعبر عنه بـ «الغزو الفكري».

وهذا الاستعمار لا يحتل الأرض ولا السهول أو الجبال، بل يحتل العقول والأنفس، ويؤثر في الأفكار والمفاهيم، والقيم والمعايير، والأذواق والميول، والأخلاق والسلوك، والتشريعات والتقاليد، وفي الحياة المعنوية للأمة كلها.

وسنعود للحديث عن هذا اللون من الاستعمار، عندما نتحدث عن مقاومة التغريب؛ بالتفصيل المناسب.

الإسلاميون يزرعون والعلمانيون يحصدون:

وخامس هذه الشوائب: أن الإسلام كان هو المحرك للطاقات، والمعبئ للقوى والقدرات، والموقد لحماس الشعوب، والمقوى لإرادتها في البذل والتضحية والصمود أمام بطش الاستعمار وجبروته، وحديده وناره، وكان علماء الدين ودعاة الإسلام هم الذين يوقظون هذه الشعوب ويلهبون صدورها للدفاع عن حوزتها، وطلب استقلالها وحريتها. وخاضت الشعوب معارك التحرير بدوافع إسلامية، وحوافز إيمانية، حتى انتصرت في معركتها، وكسبت سيادتها واستقلال أرضها.

وكان من المفترض أن يكون الإسلام الذي قاد معركة التحرير والدفاع، هو الذي يقطف ثمرة النصر، فتكون له السيادة، ولشريعته السلطان والتمكين.

ولكن الذي حدث في الأقطار الإسلامية كلها: أن الإسلاميين كانوا يزرعون ويتعبون، والعلمانيين يجنون ويحصدون، فهم مدربون تدريبا عاليا على سرقة الثورات الشعبية، وتحصيل الثمرات لهم، على حين يحرم أصحاب الحق الطيبون، لأنهم لم يدركوا ألاعيب هؤلاء، فأتوا من حيث لا يحتسبون، وسرق مجهودهم وجهادهم من حيث لا يشعرون.

وهذا ثابت كما ذكرت في كل بلاد الإسلام، حتى تركيا التي كانت أول بلد تحكمه العلمانية، ويسيطر عليه العلمانيون، بعد حربه ضد الحلفاء، فقد كان الشعب التركي يحارب بروح إسلامية، أعداء الله والدين والوطن، ويحسب أن أتاتورك يقاتل من أجل الإسلام، وكان المسلمون في أنحاء العالم يظنونه كذلك، بل كانوا يسمونه: «الغازي مصطفى كمال» وأنشأ له شوقي أمير شعراء العرب قصيدة هنأة فيها بعد إحدى معاركه قال في مطلعها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب!

وخاب ظن شوقي وظن المسلمين جميعا، حين انكشف اللثام عن علماني حقيقي قبيح الوجه، أخذ حب الحصيد كله له، وترك الزراعين والغارسين، وليس في قبضتهم غير الريح.

* * *

2 - انتشار التعليم

ومن أبرز الانجازات التي تمت خلال القرن: انتشار التعليم في البلاد الإسلامية، حتى لا يكاد توجد قرية، إلا وفيها مدرسة ابتدائية، وربما إعدادية، يتعلم فيها البنون والبنات، وفي القرى الأكبر، والمدن توجد المدارس الثانوية، والمدارس المهنية.

وفي العواصم الكبرى للإقليم - وربما المحافظات المختلفة - أنشئت الجامعات والمعاهد العالية، لتخريج المهنيين والمثقفين، من الأطباء والصيادلة والرياضيين، والمهندسين والعلميين، والزراعيين، والمحاسبين والمعلمين، وغيرهم. هناك في البلاد العربية أكثر من مائة جامعة يضمها «اتحاد الجامعات العربية» وفي البلاد الإسلامية أضعاف ذلك، تضم الكثير منها «رابطة الجامعات الإسلامية».

وتخرجت أعداد كبيرة من هؤلاء، كما انخفضت نسبة الأمية، وإن كان لا يزال هناك بعض الأقطار الإسلامية في بداية الطريق.

وبعض هؤلاء هاجروا إلى بلاد الغرب لاستكمال تعليمهم، ثم طاب لهم المقام فاستقروا فيه، إذ أغرتهم المؤسسات والجامعات، فاستبقوهم في القفص الذهبي، للاستفادة من نبوغهم وتفوقهم، في حين أن بلادهم أحوج ما تكون إلى كفاءتهم.

ومع هذا كله، هناك مآخذ على التعليم في البلاد العربية والإسلامية، من ناحية الأهداف، ومن ناحية الطرائق والآليات، ومن ناحية الفلسفة التي توجهه.

لا زال هذا التعليم في كثير من البلاد الإسلامية مقسما إلى قسمين: ديني ومدني، فالدين هو الذي يحافظ على هوية الأمة، وقيمها وثقافتها، وإن كان يؤخذ عليه أنه

غالبا ما يعيش في الماضي أكثر من الحاضر، وفي التراث أكثر من العصر.

والمدني هو التعليم العصري، الذي يعلم العلوم العصرية طبيعية وإنسانية، ويستخدم الوسائل التربوية المعاصرة، ويقيم أبنية تعليمية مجهزة بأدوات العصر من مختبرات ومعينات سمعية وبصرية وغيرها.

وانقسام التعليم في البلد الواحد إلى هذين النوعين، أشبه بانقسام القضاء إلى شرعي ومدني أيضا، وهو دليل على أن الأمة لا تزال تعاني مرض الفصام وازدواجية الحياة.

ولا زال التعليم بصفة عامة يحتاج إلى فلسفة واضحة ترتكز عليها أنظمته وبرامجه، ويستند إليها معلموه وموجهوه، والمشرفون عليه. فما هو الإنسان الذي ننشده بالتعليم والتربية؟ فالماركسية مثلا تنشد إنسانا معينا، وكذلك الليبرالية أو الرأسمالية تنشد إنسانا معينا، والوجودية تنشد إنسانا معينا، فأي إنسان ننشده نحن المسلمين، ونريد أن نربيه؟

لا شك أنه إنسان متميز عن هؤلاء وأولئك جميعا، أنه الإنسان الصالح في نفسه، البار بأسرته، النافع لمجتمعه، المنتمي لأمته، المعتز برسالته: رسالة الهداية والإصلاح للبشرية جمعاء. إنه الإنسان الناجي من الخسر في سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ 1 إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ 2 إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

هذا الإنسان يأخذ من علوم العصر ما وسعه أن يأخذ، ويجتهد أن يتفوق فيها ما استطاع، ولكنه يسخرها لهدف كبير، هو خدمة الحق والخير والنفع للبشرية. وهو يدرس قوانينها على أنها سنن الله في الكائنات، لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا.

وهو يستفيد من تقنيات العصر وآلياته، ولكن لا ينسى الهدف الذي يحيا من أجله.

وهذا الروح هو االذي ينقص التعليم في أوطاننا المسلمة، فإن الذي وضع لبناته الأولى كان المستعمر، ففرغه من الأهداف الإيمانية والأخلاقية والرسالية. ولقد قرر اتحاد الجامعات العربية في إحدى دوراته – وكانت في الدوحة عاصمة قطر – ضرورة تدريس مادة «الثقافة الإسلامية» في الجامعات كلها، في كل الكليات وكل الأقسام، أدبية أو علمية، للمسلمين وغير المسلمين.

وذلك لما لوحظ أن كثيرًا من الخريجين يتخرجون في تخصصاتهم المختلفة، ولا يكادون يعرفون شيئا عن ثقافتهم أو ثقافة أمتهم الأصلية، ولا يعرفون الخطوط العريضة لهذه الثقافة التي تعبر عن هويتهم وأصالتهم.

فكان لا بد من إعطاء جرعة ثقافية مناسبة، تلائم الطالب الجامعي في سنه ومعرفته وتطلعه، وتجيب عن التساؤلات التي يطرحها، أو تطرح عليه، وتهتم بالأساسيات لا بالهامشيات، بالأصول والكليات لا بالفروع والجزئيات، بحيث يأخذ الطالب منها فكرة أو أفكارا كلية عن مقومات الإسلام وخصائصه العامة، وأهدافه في تكوين الفرد الصالح، والأسرة السعيدة، والمجتمع الفاضل، والأمة الواحدة، والعالم المتعارف، المتعاون على البر والتقوى، وخير البشرية.

يعرف ذلك المسلم وغير المسلم، أما المسلم فمن باب الفقه في دينه الذي آمن به، والتزم بتعاليمه، وأما غير المسلم فمن باب الثقافة التي لا يجوز أن يجهلها، لأنها ثقافة مجتمعه كله. فالإسلام – بالنسبة للمسلم – عقيدة وعبادة، وهو – بالنسبة لغير المسلم – ثقافة وحضارة، ولهذا كان الزعيم المصري المسيحي المعروف مكرم

عبيد يقول: أنا مسيحي دينا، مسلم وطنا.

وعلى كل حال أنشأ اتحاد الجامعات العربية لجنة من عدة أشخاص من بلاد شتى لوضع تصور كامل عن هذه المادة أو هذا المقرر، كنت عضوا فيها، واجتمعنا في الرياض لعدة أيام برئاسة الأستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد الأمين العام للاتحاد، ووضعنا برنامجا مفصلا - إلى حد كبير - لهذه المادة، ثم نام الموضوع بعد ذلك، ولم يصح إلى اليوم.

هذا جزء من الفلسفة التي تجب مراعاتها في التعليم، ولكنها للأسف لم تأخذ حقها.

ولو غضضنا الطرف عن هذه الفلسفة المفتقدة، لوجدنا أن هذا التعليم - إذا قيس بمثله في البلاد المتقدمة - ينقصه أشياء كبيرة وكثيرة جدا.

فهو من حيث الكم لا يغطي حاجات الناس في المناطق المختلفة، فلا الأبنية كافية، ولا الأجهزة والمعدات متطورة بالقدر المطلوب، ولا المعلمون مؤهلون كما ينبغي، ولا البرامج تتطور التطور المنشود، ولا توجد آليات للتقويم والمراجعة المفروضة بين الحين والحين، لنرى فيم نجحنا، وفيم أخفقنا، وإلى أي مدى انتهى نجاحنا وإخفاقنا، وكيف السبيل إلى زيادة النجاح، وإلى تفادي الإخفاق، «فهناك بلاد لم تصلها المدارس، والبلاد التي وصلتها المدارس لا تجد فيها أماكن كافية لأولادها، وتستخدم هذه المدارس لأكثر من مرة في اليوم».

ولقد رأينا أكبر دولة متقدمة في العالم منذ عدة سنوات تفتح الباب لنقد نظامها التعليمي، وظهر في ذلك كتاب شهير، بعنوان: «أمة على حافة الخطر» ترجمة للعربية صديقنا المربي الفاضل الدكتور يوسف عبد المعطي بالكويت. وطلبت

أمريكا من اليابانيين أن ينتقدوا نظامها التعليمي، ويكشفوا عن نقاط ضعفه، وما يصفونه من علاج له.

ونحن مستريحون لأوضاعنا، ساكتون على عيوبها، وكأنها على أحسن ما يرام، وبعض الناس يعتقد أن نقد هذه الأنظمة إنما هو نقد للملك أو الرئيس أو الأمير، ناهيك بالوزير المسئول المباشر وأجهزته.

لقد كثرت الشكوى من الوزارات والمؤسسات العامة والخاصة من ضحالة مستوى الخريجين الجامعيين، وضعفهم العام في المعرفة، إلى جوار ضعفهم في تخصصهم. وقد أفرد الصحفي المعروف صلاح منتصر عموده اليومي في الأهرام عدة أيام منذ سنوات للحديث عن هذا الضعف، بل هذا الانحطاط، حتى في الكتابة العادية، وقد ذكر نموذجا صارخا لذلك من جامعي أرسل إليه يطلب المعونة في تعيينه، فكتب في رسالته «نحن» وهي ضمير الجمع للمتكلم هكذا «نحنوا». فتصور هبوط المستوى إلى هذا الحد المفزع، أما «النحو» فهو أمر لم يسمعوا به، ورفع المجرور، وجر المرفوع شائع عند الجميع، بل هم لا يعرفون مرفوعا من مجرور أو منصوب. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وهناك موضوع أجمع أهل الاختصاص على أننا مفرطون فيه غاية التفريط، وأعني به: موضوع «البحوث العلمية» والعمل على تطويرها وتوسيعها وتعميقها، وتجنيد الطاقات البشرية لها، وتخصيص الميزانيات اللازمة لها، وإعطائها القدرة على سرعة الحركة بحرية واستقلالية، إننا نقرأ ما يرصد لهذا الجانب في بلاد العالم المتقدم ومنها إسرائيل، وما نرصده نحن له، فنتحسر على أنفسنا وتخلفنا.

إن العالم يتحدث عن «الموجة الثالثة» من الاقتصاد العالمي، ونحن لازلنا في إطار

الموجة الأولى، يتحدثون عن عصر الصناعة الثالث، ونحن لم نتقن آليات عصر الصناعة الأول.

ألا يوجد عندنا نوابغ وعباقرة؟ وقد استفاد الغرب من كثير منهم، جذبهم إليه بما يتيحه لهم من أمن واستقرار وغنى، ونحن – للأسف – نرى أنفسنا قوة طاردة، بقدر ما نرى الغرب قوة جاذبة.

ألا يوجد عندنا مال؟ بلى، وكثيرا ما نصرفه فيما يسميه الفقهاء «التحسينات» في حين ندع «الضروريات». بل قد نصرفه للأسف في «المحظورات» المحرمات دينيا، والمحرمات أخلاقيا، والمحرمات اقتصاديا. وهو ما سماه القرآن «التبذير» وجاء فيه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا 26 إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 26، 27].

إن الذي ينقصنا هو حسن توظيف طاقاتنا البشرية، وطاقاتنا المادية، والقدرة على تحركيها وتفعيلها، وإزالة العقبات من طريقها، حتى تحقق لأمتها ما يناط بها من آمال.

❋ ❋ ❋

ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامي

ومن إنجازاتنا في هذا القرن: ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامية، التي تسعى إلى النهوض بالأمة، لإحياء مواتها، وجمع شتاتها، وتجديد شبابها، وتحرير عقولها من الجمود، وعزائمها من الوهن، وضمائرها من السقم، وذلك عن طريق تجديد الدين، الذي هو جوهر وجودها، وسر بقائها، ومصدر عزتها وفخرها.

وقد حفظت هذه الأمة عن نبيها حديثه الشريف: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» رواه أبو داود وغيره، وقد بين لنا هذا الحديث شرعية التجديد للدين، والمعنى: تجديد الفهم له، وتجديد الإيمان له، وتجديد الالتزام بتعاليمه، وتجديد الدعوة إليه، وليس معناه إصدار طبعة جديدة من الدين، تغير «الثوابت» وتجتهد فيما لا يقبل الاجتهاد من «القطعيات» التي تجسد وحدة الأمة في عقائدها وعباداتها وتشريعاتها وأخلاقياتها.

لهذا أعني بحركات التجديد: التي تمثل الإسلام الحقيقي بشموله ووسطيته وعمق نظرته.

فقامت حركة «الإخوان المسلمين» التي انطلقت من مصر سنة 1929م على يد الشاب الملهم حسن البنا[9]، وامتدت بعد ذلك لتشمل العالم العربي، ثم لتمتد اليوم في أواخر القرن ليكون لها وجود في أكثر من سبعين دولة في العالم الإسلامي وخارجه.

ولقد عملت الحركة على تكوين جيل أو أجيال جديدة، تحسن الفهم للإسلام –

---

(9) انظر: كتابنا «الإخوان المسلمون: سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد».

بعد حملات التضليل والغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، التي لوثت العقل المسلم – وتحسن الإيمان به هدفا للأمة، ومرجعا لها، تهتدي به إذا ضلت، وتحتكم إليه إذا اختلفت ... وتحسن العمل به والاستقامة على مناهجه في شئون حياتها كلها، فيصلح منها ما فسد، ويقوم منها ما أعوج، ويقوي منها ما ضعف، ويزكي منها ما دسي ... وتحسن العمل له والجهاد في سبيله، بكل وسيلة مشروعة، علمية أو عملية، مادية أو روحية، حتى تكون كلمته هي العليا، وشريعته هي الحاكمة، وأمته هي السائدة.

وقد استشهد مؤسس الحركة في سبيلها، واستشهد بعده رجال مخلصون من أبنائها، من أمثال عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وسيد قطب، وكمال السنانيري، وغيرهم، كما استشهد تحت آلات التعذيب عدد من الشباب الصادقين الصابرين، رأيت بعضهم بعيني، وقد لف في بطانية – بعد أن خر صريع العذاب الطويل – ليواري في الصحراء في سواد الليل، ويكتب أمام اسمه في السجن: أفرج عنه يوم كذا.

وهناك ثلاثة وعشرون رجلا في «ليمان طره» قتلوا برصاص حراسهم في السجن، لا لشيء إلا أنهم طالبوا بتحسين معيشتهم في السجن، والسماح لأهليهم بزيارتهم.

ولقى آلاف من أبناء الحركة في عهد الملكية، وعهد الثورة في مصر، ما لقوا من أذى واضطهاد، وتنكيل وتعذيب، في بطون السجون والمعتقلات، وقاست عائلاتهم ما قاست من جراء التشريد والتجويع والمصادرة، والفصل التعسفي من العمل، أو منعهم منه، وسد أبوابه في وجوههم.

ومع هذا كله بقيت الحركة، حية لم تمت، قوية لم تهن، متحركة لم تتوقف، آملة لم تيأس، على الرغم مما أصابها من تعويق، آخر سيرها، وأثر في امتدادها، بغير شك، وقد أصبح للجماعة امتداد ووجود في أكثر من سبعين قطرا في أنحاء العالم، ولهم أتباع يقلون أو يكثرون، يعملون تحت واجهات شتى، وبعضهم يعمل علانية، بأسماء أحزاب مجازاة قانونا، كما في الأردن واليمن وإندونيسيا.

ويبدو للمراقب المتأمل أن قاعدة الحركة تتسع وتقوى، وإن لم تقابلها قوة مكافئة في القمة والقيادة، على أن القيادة في السنوات الأخيرة أثبتت قدرتها على التطور والتجديد في قضيتين مهمتين، وهما: التعددية والمرأة.

وقامت في شبه القارة الهندية: حركة «الجماعة الإسلامية» التي أسسها العلامة أبو الأعلى المودودي سنة 1941م معلنة عن أهدافها، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بمعنى أن يعبد الناس أنفسهم لله تعالى في كل شئون حياتهم، فلا يرضوا بغير الله ربا، ولا يبتغوا غير الله حكما، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، يشرعون لهم ويحللون ويحرمون، وبهذا يغتصبون حق «الحاكمية» التشريعية من الله، ويعطونه لأنفسهم.

كما دعت الجماعة إلى محاربة «الجاهلية» بكل معانيها، وانتزاع السلطان من أيدي أهلها، ووضعها في يد الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا.

وأكدت دعوة الجماعة الإسلامية أن يطهر الناس عقائدهم من الشرك، وعباداتهم من الرياء، وأخلاقهم من النفاق، وحياتهم من التناقض.

كان الإمام المودودي يملك – مع إيمانه بربه واعتزازه بدينه – عقلا قادرا على التنظير، وثقافة واسعة، ورؤية واضحة، وهمة عالية، وإرادة صادقة، وقد رأى أن

البشرية في قرن تفوق العلم والتقنية أحوج ما تكون إلى «نظرية راشدة» وإلى «جماعة صالحة» تتخذ منها الأسوة والمثل. وليس هناك أرشد من الإسلام، ولا أصلح من الملتزمين به.

وبذل الأستاذ جهدا مشكورا، ليبين شمول الإسلام لكل جوانب الحياة، من العقيدة والعبادة، ومن الأخلاق والآداب، ومن الشرائع والأنظمة، ويجب أن يكون الحكم في ذلك كله لله، أي لشرعه ﷻ، ولهذا أكد فكرة «الحاكمية» لله، الذي اقتبسها منه الشهيد سيد قطب، وأضفى عليها من بيانه وروحه ما زادها وضوحا ونصاعة.

وقد زعم بعض الكتاب الذين لم يدرسوا الثقافة الإسلامية: أن المودودي اخترع هذه «الحاكمية» ولم يكن لها وجود سابق في «الفكر الإسلامي» إلا عند الخوارج. وهذا غير صحيح، فقد وجدنا علماء الأصول، يبحثون في كتبهم عن مقدمات يرونها ضرورية في العلم، تتعلق بـ «الحكم»، ومن مباحث الحكم عندهم «الحاكم». وقد اتفقوا على أن «الحاكم» هو الله تعالى، والرسول إنما هو مبلغ عن ربه، والمجتهد إنما هو مستنبط أو موضح ومفسر لحكم الشارع سبحانه.

قال شارح «مسلم الثبوت» في أصول الفقه: «وهذا مجمع عليه بيننا وبين المعتزلة»، فالمسلمون جميعا متفقون على أن الحاكم - أي المشرع الأعلى - هو الله. وقد قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114].

ساندت الأستاذ المودودي في دعوته نخبة متميزة من مثقفي المسلمين، الملتزمين بدينهم، الذين آمنوا معه بالإسلام دعوة ودولة، وعبادة ومعاملة، وعقيدة ونظاما،

وكتب في ذلك المودودي كتبه القيمة، ورسائله النيرة، التي ترجم جلها إلى العربية وإلى عدة لغات عالمية وإسلامية، كما أصدر كتابه الشهير في تفسير القرآن الكريم، وسماه «تفهيم القرآن».

كانت الجماعة الإسلامية في عهد المودودي، تعتمد على الخاصة أو الصفوة، ولم تكن تهتم كثيرا بالجماهير والقواعد الشعبية، إلا فيما يتعلق بالطلاب، فقد كانت لها بهم عناية مشهودة.

ولكن يبدو أنهم بعد ذلك، وبعد اختلاطهم بالإخوان المسلمين في بلاد العرب، بدأوا يهتمون بالشعب، وينزلون إلى ساحته، ويجندونه معهم في معاركهم ضد أعداء الأمة في الداخل والخارج. وهذا ما لاحظناه في مسيرتهم في السنين الأخيرة في عهد إمارة القاضي حسين أحمد.

زرت الجماعة الإسلامية في مقر قيادتها في «لاهور» سنة 1969م، وكان الإمام المودودي حيا، وسعدت بلقائه في بيته وفي دار الجماعة، وفي عدد من بيوت إخوانه الذين أقاموا ولائم الغداء والعشاء، احتفالا بي، وكنت لقيته قبل ذلك بالقاهرة، وبالدوحة، ولقيته آخر مرة في أمريكا وهو يعالج هناك، وقلت للإخوة في لاهور: أنتم الإخوان المسلمون في باكستان، ونحن الجماعة الإسلامية في البلاد العربية.

والحق أنه لا يوجد فرق في الأهداف بين الإخوان والجماعة، إلا أن الإخوان أكثر اهتماما بالتربية، والجماعة أكثر اهتماما بالفكر، وأن النزعة الروحية في الإخوان أقوى، وأدبيات الإخوان تساعد على ذلك، ولعل شخصية كل من القائدين لها تأثيرها في قاعدة كل منهما، فالمودودي مفكر أكثر منه مربيا، والبنا مرب أكثر منه مفكرا، كما أن عناية الإخوان بالجانب الجهادي أوضح منها عند الجماعة، والعناية

بالجماهير أيضا، كما ذكرنا من قبل.

وقد بدأت هذه الفروق الطفيفة تضيق بحكم التلاحم والتلاقي في ميدان العمل المشترك، حتى تكاد تذوب الفوارق بين الجماعتين.

وقامت في الجزائر حركة إسلامية تجديدية قادها العالم السلفي المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي أسس مع جماعة من إخوانه العلماء الراشدين: جمعية علماء الجزائر. وكان عملها إنشاء المدارس التي ترد الشعب إلى إسلامه وعروبته، وتقاوم تيار «الفرنسة» الذي تبنته الدولة المستعمرة «فرنسا» لتغير من هوية الشعب وانتمائه وولائه، وأساس هويته بلا نزاع هو: الإسلام دينا، والعربية لغة.

لذا عمل الشيخ وجمعيته على إعادة انتماء الشعب، وإرجاع هويته إليه، عن طريق المسجد والمدرسة والصحيفة، والنشيد. ولا غزو أن بدأ الشعب كله ينشد معه:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن أصله أو قال: مات فقد كذب

كان الشيخ بن باديس يفسر القرآن في المسجد، ويصدر مجلة «الشهاب» ويكتب فيها هو وإخوانه من أمثال العلامة الأديب البارع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي ظل يكتب بعد ذلك في مجلة «البصائر» مقالاته المضيئة الملتهبة، التي كانت تشع نورا، وتشتعل نارا. وكان يتحرك في الولايات المختلفة ليحدث أبناء الشعب، ويجمعهم على كلمة الإيمان، وتحت لواء الإسلام.

ولا شك أن هذه الحركة هي التي أيقظت الشعب الجزائري وهيأته عقليا ونفسيا، ليقوم بثورته الفذة التي حررته من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الخبيث.

ومن آثارها «ملتقيات الفكر الإسلامي» الشهيرة بعد استقلال الجزائر.

وقام للإسلام عمل في «تركية» التي سيطر عليها العلمانيون بقيادة أتاتورك، وألغوا فيها كل مظاهر الإسلام الحية من الخلافة، وأحكام الشريعة، حتى في الأحوال الشخصية، وفي الثقافة والتعليم، وفي التقاليد ومظاهر الاحتشام للمرأة، وفرض على الشعب بالنار والحديد، ألا يلبس الرجل على رأسه غير القبعة. ولو كان شيخا دينيا، يسمح له فقط أن يلبس العمامة عند الإمامة والخطابة داخل المسجد، ولا يجوز للمرأة أن تلبس الحجاب، ولا يتعلم الدين في المدرسة، وأكثر من ذلك محاربة الحرف العربي الذي كانت تكتب به اللغة التركية، ولها تراث هائل فيه، ويستبدل به الحرف اللاتيني، وأدهى من ذلك أن يمنع الأذان في المساجد باللغة العربية.

كانت محنة قاسية على الشعب التركي، الذي قاوم ما استطاع، وسقط منه الشداء تلو الشهداء، ثم غلب على أمره، وانتصرت القوة على الحق إلى أن يشاء الله.

في هذا الوقت العصيب، والزمن الرهيب قام رجل رباني بحركة إسلامية تقوم على استبقاء الإيمان في صدور الناس، وإشعال جذوته في القلوب، حتى لا تخبو، وإذا بقي الإيمان كان جديرا أن ينهض الشعب يوما على أساس من هداه، وقبس من سناه.

لقد قام العلامة بديع الزمان سعيد النورسي بإنشاء «حركة النور» وهي حركة تثقيفية تربوية، تقوم على تنوير العقول، وإيقاظ القلوب، وشحذ الهمم، بثقافة إيمانية، صحيحة المضمون، قوية التأثير.

وقد حوكم الشيخ أمام محاكم أتاتورك، وحكم عليه بالسجن، ولم يبال الشيخ

بالسجن، وقال ما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: 33]. وظل مثابرا على دعوته، حتى وافاه الأجل سنة 1960م.

ولا ريب أن من آثار حركة الشيخ النورسي، وتفاعل حركة الشيخ البنا والمودودي، أن قامت الحركة الإسلامية الشاملة، بقيادة الرجل الصلب المحنك الناضج الدكتور نجم الدين أربكان، التي هزت قوائم العلمانية المتسلطة على تركية، والتي يسندها جيش فرغ زمن طويل، من كل العناصر الإسلامية، والتوجهات الإسلامية.

لقد أسس «حزب السلامة» ووصل به إلى البرلمان والوزارة ثم منعوه، فأنشأ بعد مدة «حزب الرفاه» ووصل به إلى البرلمان، فرئاسة الحكومة، فجرموه وأسقطوه، ومنعوا الحزب فأنشئ حزب الفضيلة، ولا زال الصراع ضاريا[10].

وفي شمال أفريقيا قامت في تونس حركة النهضة الإسلامية بقيادة زعيمها الشاب المثقف المستنير المعتدل، الذي جمع بين فهم التراث وثقافة العصر «الشيخ راشد الغنوشي»، لمقاومة «العلمانية البورقيبية» التي جعلت من بلد «جامع الزيتونة» بلدا غربيا، لا يمت بصلة إلى قرآنه أو سنة نبيه، أو تراث أسلافه، وكان بورقيبة رجلا لا دين له، وكان يرى نفسه أفضل من محمد رسول الله ﷺ، ويعيب على قومه أن يتبعوا رجلا أميا، ولا يتبعوا مثله وهو خريج السربون! ولا مقولات ومواقف تنبئ عن كفر بواح، وردة صراح[11].

---

(10) حكمت المحكمة – والكتاب في المطبعة – على أربكان بالسجن لمدة سنة، ومنعه من ممارسة العمل السياسي طوال حياته؛ لأنه نقد «العلمانية» في خطابه منذ سنوات!!

(11) انظر في ذلك: كتابنا «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس».

ووجدت الحركة تجاوبا ضخما، ولاسيما من الشباب المثقف، وجـاء ابـن عـلي، فعقد معها صلحا مؤقتا، من باب «التكتيك» كما يقولون، ثم انقلب عليها مـنكلا ومشردا، ومستخدما أقصى وسائل التنكيل والتعذيب والتجويع.

ولم يقف الأمر عند محاربة الحركة، بل أعلنت حرب على الدين والتدين، حتـى اعتبرت «الصلاة» وخصوصا في المسـاجد جريمـة يحاسـب مـن يحـرص عليهـا، ويوضع في القوائم السوداء، كما حورب «الحجاب» واعتبرت كل محجبة متطرفـة، ومنعت من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكومية، بل لا يجوز لها أن تدخل المستشفى للعلاج أو الولادة ما لم تخلع حجابها.

وتجلت هذه العلمانية المتطرفة في الإعلام والتعليم والثقافـة، حتـى في الجامعـة الدينية العريقة: الزيتونة نفسها، التي أنشئ فيها حمام للسباحة يجمع بـين الطـلاب والطالبات!

وأشد من ذلك خطرا: ما انتهجه الدولة من سياسة «تجفيف المنـابع» أي منـابع التدين في التعليم والثقافة والإعلام[12].

وفي المغرب قامت في ثلث القرن الأخير حركة «العدل والإحسان» التي أسسها رجل الدعوة والتربية الشيخ عبد السلام يس، وهو – وإن كان رجلا صوفيا أساس – يؤمن بشمول الإسلام، وشمول حركته، وضرورة شمول الإصلاح لكل جوانب الحياة: روحية وسياسية واقتصادية وثقافية.

وللشيخ مجموعة من الكتب والإصدارات تمثل منهجه، وتوضح رؤيتـه، وهـو يعتمـد التربيـة الإيمانيـة، والأسـوة المحمديـة، والنظـرة الثوريـة، في الإصـلاح

---

(12) انظر في ذلك : كتابنا «التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس».

والتجديد.

وكذلك قام في المغرب: حركة التوحيد والإصلاح، بقيادة الأخ العالم الأصولي الداعية الدكتور أحمد الريسوني، ومن معه من الإخوة الدعاة القدماء، مثل عبد الإله بن كيران، الذين ضموا إلى فقه النصوص، فقه المقاصد، وفقه الواقع، وجمعوا بين الثبات والمرونة، وبين الأصالة والمعاصرة، واستفادوا من تجارب الدعوات المعاصرة في تنظيم حركتهم، وفي مواقفهم السياسية.

وفي إندونيسيا قام منذ ثلث قرن حركة «المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية» بقيادة الرجل المجاهد الدكتور محمد ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي وقف بقوة في وجه حركة «التبشير» الهائلة، التي هدفت إلى «تنصير» إندونيسيا في خمسين عاما. كما كانوا يأملون. وقد خلفه اليوم عدة أحزاب، كما قام «حزب العدالة» وهو امتداد لحركة «الإخوان المسلمين» وتضم مجموعة طيبة من الشباب المثقف، الواعي لدينه ولوطنه ولعالمه ولعصره.

وفي إيران – حيث يكون الشيعة الإثنا عشرية أغلبية الشعب – انطلقت حركة «الإمام الخميني» التي تقوم على «ولاية الفقيه» بدلا من انتظار الإمام الغائب، ونيابة عنه، فقاوم طغيان «الشاه» وفساده، وأوذي في سبيل ذلك ما أوذي، ونفي إلى خارج البلاد، ولكنه ظل يبعث برسائله وأشرطته إلى قواعده في إيران، يحرك الساكن، ويقوي المتحرك، وينبه الغافل، ويشد عزم المتنبه، حتى تجاوبت جماهير الشعب مع قائد الثورة الإسلامية، وتحركت كالسيل الهادر، ولم تجد أسلحة الجيش الموجهة إلى صدور الناس، ولا مكر جهاز «السافاك» ولا غيرها فتيلا أمام إصرار الجماهير، فسقطت الإمبراطورية العلمانية، وفر «الشاه» الذي كان يعتبر شرطي الغرب في المنطقة، وصديق إسرائيل، ولم يجد أرضا تقبله، غير مصر ـ السادات،

وقامت «الجمهورية الإسلامية» التي كانت قذى في عين إسرائيل وأمريكا التي أطلق الخميني عليها اسم «الشيطان الأكبر».

وفي السودان قامت حركة إسلامية، امتدادا للحركة الإسلامية في مصر، وإن كانت لها اجتهادتها ومواقفها الخاصة، وكانت أكثر انفتاحا على الواقع، وقدرة على التطور، فكونت فترة من الزمن «جبهة الميثاق الإسلامي» وفترة أخرى اصطلحت مع نظام النميري وتعاونت معه، وفترة أخرى أقامت «الجبهة القومية الإسلامية» وفي الفترة التي أصاب السودان فيها ما يشبه الفوضى، واضطربت الأحوال السياسية والاقتصادية اضطرابا عظيما، أقامت «ثورة الإنقاذ» بالتحالف بين الجبهة وعسكرها الموالي للإسلام، وقامت دولة جديدة في السودان تتبنى أحكام الشريعة برؤية عصرية، وتعلن انتماءها إلى الإسلام بوضوح، وهذا ما جلب عليها سخط إسرائيل وأمريكا والغرب، وقد تآمروا على إسقاطها، وسلطوا عليها جيرانها المناوئين لها من الخارج، والمعارضة الجنوبية والشمالية من الداخل، حتى تستنزفها الحرب التي تأكل ولا تشبع، وقد ضربت أمريكا أحد مصانعها للدواء علنا، وحتى رفضت وزيرة الخارجية الأمريكية المبادرة المصرية الليبية للمصالحة بين الحكومة والمعارضة، معلنة وقوفها مع قرنق بصراحة متحدية.

وقد حدثت فتنة في المدة الأخيرة، بين الرأسين الكبيرين في السودان: الفريق عمر البشير، والدكتور حسن الترابي، فرح لها أعداء المشروع الإسلامي في السودان، ولكن سرعان ما انطفأت الفتنة بفضل الحكماء الثقات من أبناء الحركة الإسلامية، ولله الحمد والمنة. وأدعوا الله أن يكون انطفاؤها إلى الأبد[13].

---

(13) هذا ما كنا نرجوه حين قدمت لجنة المصالحة المنبثقة من مجلس شورى حزب المؤتمر الحاكم

وفي الأردن نشأ «حزب التحرير الإسلامي» أسسه الشيخ تقي الدين النبهـاني، مركزا على قضية «الخلافة» وعـودة «الخلافـة» دون أن يعنـي بـالعوائق وإزالتهـا، والتقريب بين الشعوب، والثقافات والتيارات بعضها وبعض، تمهيدا للخلافة، كما وجه عنايته للفكر أولا، ولا يكاد يعني بالسـلوك، كـما لا يكـاد يعنـي بالاجتهـاد والتجديد، فهو يأخذ الموروثات الفقهية والفكرية قضايا مسـلمة، ثـم يصـبها في «قوالب» صارمة، ويلقنها لأتباعه، فيحفظونها عن ظهر قلب، ويجادلون عنها بـلا هوادة، وإن كان له اجتهادات غريبة في بعض القضايا الجزئية يعجب الفقيه الحـق لها.

ومن المملكة العربية السعودية انطلقت «الحركة السـلفية» داعيـة إلى التوحيـد بعناصره الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصـفات، مركزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل، مشددة النكير على كل من يؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية وغيرهـم، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه الإمام ابن القيم، رصيدا للدعوة والمجادلة، وكذلك تراث مجدد الجزيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وكان لها امتداد في مصر على يد الشيخ محمد حامد الفقي وجماعة «أنصار السنة» وفي الشام على يد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وفي الهنـد وباكسـتان على يد جماعة أهل الحديث، وعـرف عـن كثـير مـن هـؤلاء التشـدد في الفـروع،

برئاسة الدكتور عبد الرحيم علي، وقـد قـدمت مشروع معالجـة شـاملة، ظننـا أن الطـرفين سيقبلانه، ولكن مما نأسف أن الشرخ ازداد اتساعا، رغم محاولات الإصلاح، وقد ذهبت عـلى رأس وفد إسلامي لإصلاح ذات البين، وباءت محاولتنا بالإخفاق، وانقسمت جماعـة الإنقـاذ إلى جماعتين أو حزبين متعارضين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والوقوف عند الظواهر، وقلة الالتفات إلى المقاصد، وإلى تغير الزمان والمكان، والاشتغال بالمختلف فيه عن المتفق عليه، وهم في عصرنا لهم أكثر من فصيل.

فمنهم «الجاميون» في المدينة المنورة - ربيع المدخلي ومن انضم إليه - وهم يعلنونها حربا على كل من سواهم من السابقين واللاحقين والمعاصرين، ولم يسلم منهم أحد حتى مثل الإمام النووي والحافظ ابن حجر وغيرهما، ناهيك بالمعاصرين من أمثال حسن البنا وسيد قطب والمودودي والغزالي وفهمي هويدي، ومحمد عمارة، ويوسف القرضاوي وغيرهم، على غير منهج الإمامين ابن تيمية وابن القيم.

ومنهم السلفيون الجدد، الذين يسميهم بعض الناس «السروريين» (14) وهم الذين اهتموا بالجانب السياسي، مع الجانب العقدي، ونقد الأوضاع العامة، المحلية والدولية، وكان لهم موقفهم من دخول الأمريكان إلى المنطقة في حرب الخليج. وفيهم علماء ودعاة لهم وزنهم مثل المشايخ فهد سلمان العودة، وسفر الحوالي، وعايض القرني.

منهم الذين يعتزون بالشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ والشيخ ابن عثيمين وعلماء المملكة، ويعتبرونهم مراجع فذة لهم، ولا يقبلون العلم من أحد سواهم.

ومنهم من يتبعون الشيخ الألأباني ويقلدون مذهبه، في حين أنه ينكر المذاهب جميعا، ومع هذا جعلوه مذهبا خامسا.

ومنهم، ومنهم.

وفي مصر تأسست «جماعة الجهاد» و«الجماعة الإسلامية» وكلتاهما تنادي

---

(14) نسبة إلى داعية سوري اسمه محمد سرور بن نايف زين العابدين، كان من الإخوان ثم انشق عنهم، وكان يقيم في السعودية، ثم انتقل الآن إلى الإقامة في انجلترا، على ما أعلم.

باستخدام القوة في مقاومة الحكام الذين لا يحكمون بشرع الله، وكان لهم امتداد في «الجزائر» وغيرها من البلاد الإسلامية، وكانت لهم مقاومات مع السلطة، لم يسلم المدنيون العزل من آثارها، ولم يبالوا بما أصاب البرآء من جرائها. وبعض هذه الحوادث كان سببها استفزاز السلطات الأمنية وتهورها، وبخاصة أن منشأهم كان في صعيد مصر، وأهله لا يقبلون الضيم، ولا ينسون الثأر.

وقد اختلطت أفكار هؤلاء بأفكار جماعة «التفكير والهجرة»، الذين يكفرون الناس بالجملة، ولا يقتصرون على الحكام وحدهم، بما يترتب على ذلك من استباحة الدماء والأموال، وإن كان بين جماعة التكفير وجماعة الجهاد فروق في المنطلق. وقد اخترقت السلطات وبعض الجهات المشبوهة – وخصوصًا في الجزائر – صفوف هذه الجماعات، فارتكبوا أشياء فظيعة نسبت إليهم، وهي في حقيقة الأمر من صنع هؤلاء الدخلاء.

ولا أعرف لهؤلاء تراثا مكتوبا ذا بال، حتى نحاكمهم إليه، فيما عدا كتيب «الفريضة الغائبة» ويعنون بها «الجهاد» وهذه لا تسمن ولا تغني من جوع في الإجابة عن تساؤلات الناس حول رؤيتهم في القضايا الكبرى المطروحة على الساحة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

والمهم أن الجوانب السلبية لهذه الفصائل والحركات كان لها تأثيرها السلبي على الحركات الأساسية الكبرى، التي تمثل الوسطية والاعتدال، وترفض العنف والدم، والتي هي أرسخ قدما، وأطول عمرا، وأوسع قاعدة من هذه الجماعات الحديثة العهد، المحدودة الجمهور. وقد غدا الإعلام الغربي ينفخ فيها عمدا ويضخمها، قصدا إلى تشويه وجه الإسلام، وتخويف الناس من ظهوره وانتشاره وصحوته. كما نرى تليفزيون «لندن» يبرز بعض الأشخاص المعتلين والمختلين في أفكارهم،

بوصفهم يمثلون الإسلام، وهم ليسوا في العير ولا في النفير، أمثال «أبي حمزة» المصري، و «أبي قتادة» الأردني، الذي أصدر فتوى لبعض الشباب الأغرار بجواز قتل آبائهم وأمهاتهم!

وقد قرأنا أخيرا: أن جماعة الجهاد في مصر – وخصوصا قادتهم في السجون – قد اقتنعت بأن العنف لا طائل تحته، ولا جدوى من ورائه، إلا بذل الضحايا، وإراقة الدماء من الطرفين، ولذا أرادوا أن يدخلوا المعترك السياسي، وطالبوا بإنشاء «حزب جديد» يمثلهم، ويتبنى أفكارهم.

وهكذا انتهوا إلى ما عابوا به الإخوان من قبل، وإن كان الإخوان لم يبلغوا في العنف يوما عشر معشار ما بلغ هؤلاء.

ومما يؤسف له: أن كل جماعة تبدأ من الصفر، ولا تريد أن تأخذ العبرة من غيرها، وتجعل من تجاربها درسا لها، لا بد أن تجرب هي بنفسها، ثم بعد مدة من الزمن تعود إلى ما أنكرته من قبل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما أن الحركات الإسلامية الكبرى لم تطور نفسها ورؤيتها، بالقدر الذي يرجى منها، وإن كان هناك تطور ملموس في عدد من القضايا، وهو يبشر بالقابلية للتجدد، وغلبة تيار التجديد على تيار التقليد، الذي لم يزل يمثله أنصار أقوياء.

وكم تمنى بعض الإخوة الدعاة والمفكرين أن تتوحد هذه الحركات الإسلامية في حركة عالمية واحدة، وهي أمنية حلوة المذاق، لكنها – وفق سنن الله – بعيدة المنال.

فإن قيام حركة واحدة يقتضي أن يتفق أعضاؤها على وحدة الأهداف، وعلى ترتيب الأهداف، وعلى وحدة الوسائل وترتيبها أيضا، وعلى وحدة المفاهيم

الأساسية، وعلى الأشخاص الذين يقـودون السـفينة، وهـذا لـيس مـن الأمـور السهلة، بل هو يكاد يكون مستحيلا.

ولهذا نحن لا نمانع من تعدد الجماعات والحركات الإسلامية إذا كان تعدد تنوع وتخصص، وننكره إذا كان تعدد صراع وتناقض.

لا مانع من تعدد الجماعات على أن يكون بينها قدر من التناسق والتفـاهم، وأن تقف في القضايا المصيرية صفا واحدا، كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا.

❋ ❋ ❋

مقاومة التغريب والغزو الفكري

ومن أهم المعارك التي خاضها العالم الإسلامي في هذا القرن: معركته الدامية في مقاومة أخطر أنواع الاستعمار، وهو الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري، والذي يعبر عنه بكلمة واحدة هي «التغريب» الذي هدف إلى تغيير هوية الأمة ومسارها، ونقلها من الشرق إلى الغرب، ومن الإسلام إلى المسيحية أو - على الصحيح - إلى اللادينية.

إن هذا النوع من الاستعمار أو الغزو أشد وأنكر من الاستعمار العسكري والسياسي. فإن هذا يحتل الأرض، وذاك يحتل العقل والنفس، واحتلال الأرض يرى ويحس فيحارب ويقاوم، واحتلال العقل قلما يحس به، فيستسلم له.

فكيف دخل هذا الغزو المدمر لشخصيتنا المسلمة إلى أوطاننا؟

هذا ما نحاول بيانه في الصحائف التالية.

تمسك المسلمين بمرجعية الإسلام خلال القرون:

لقد عاش العالم الإسلامي - نحو ثلاثة عشر قرنًا - ملتزمًا بمبدأ واحد، ومنهج واحد، لا يحتكم إلا إليه، ولا يعول إلا عليه، ولا يستفتي في شئون حياته وما بعد حياته غيره، ولا يفكر في حل لمشكلاته إلا على أساسه وبالاستمداد منه، ذلك المبدأ وذلك المنهج هو الإسلام، الذي ارتضته هذه الأمة، وارتضاه الله لها، وأتم به عليها نعمته ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

لم يفكر حاكم من الحكام طول هذه القرون الثلاثة عشر أن يرفض الالتزام

بمبدأ الإسلام، والاحتكام إلى شرعه، وإن بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ، ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يوما ما منهج غير منهج الإسلام، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام.

وجد في تاريخ الإسلام حكام ظلمة، وحكام مستبدون، وحكام انحرفوا عن منهج الشريعة في سياسة الحكم وسياسة المال، ولكن لم يوجد حاكم واحد من هؤلاء رفض مرجعية الإسلام.

كان الاعتزاز بهذا المنهج جزءًا من عقيدة كل فرد مسلم. فقد كان يغالي به ويزهى، ويعتقد أنه وحده الحق، «وماذا بعد الحق إلا الضلال؟».

كان يؤمن أن في هذا المنهج الإلهي لكل داء دواء، ولكل معضلة علاجًا، ولكل عقدة حلا، وأن علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم، أو يستمدونه من أديان منسوخة محرفة، انقضى زمنها وانتهت مهمتها.

كان كل مسلم يعتقد أن «الحل الإسلامي» لمشكلات الحياة هو الحل الناجع، والحل الفذ، لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم، وهو بهم بر رحيم، كما أنه بهم عليم خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

الزحف الغربي الحديث على الإسلام وأمته:

كان هذا الاعتقاد هو السائد في العالم الإسلامي، حتى كان هذا القرن العشرون، والذي قبله، حيث واجه الشرق الإسلامي زحف كثيف من العالم الغربي المسيحي. ولم يكن هذا الزحف عسكريًا فحسب، كزحف الحروب الصليبية من قبل، بل كان زحفًا عسكريًا سياسيًا اجتماعيًا ثقافيًا.

ووجه العالم الإسلامي بهذا الزحف الحاقد الطامع المستكبر وهذا الغزو المنظم،

فقاوم كثيرًا، ووقف موقفًا صلبًا من الحضارة الغازية، في مختلف أقطاره، ولكنه لم يستطع أن يحرز النصر.

كان هناك انحطاط عام في كل ميدان من ميادين الحياة الإسلامية، نتيجة لبعد المسلمين عن الإسلام الصحيح فهما وتطبيقا. أجل كان هناك تخلف في العلم، وجمود في التفكير، وركود في الفقه والتشريع، وقصور في التربية والتوجيه، وفساد في الإدارة والحكم، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقًا في هذه المجالات، فبهر أبصار الكثيرين، وخلب ألبابهم، فبدأوا ويسيروا في دروبه، ويتبعون سننه، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع.

وبدأ العدو الزاحف الماكر يخطط للاستيلاء على شعوب هذا العالم الإسلامي بعد أن استولى على أرضه، فقد علم أن الاستيلاء على الأرض ليس معناه الاستيلاء على أهلها. إن الاستيلاء على الأرض يتم بقوة السلاح، أما الاستيلاء على البشر فلا تجدي فيه الأسلحة ولا تغني الجيوش والأساطيل. فلا بد – إذن – من عمل منظم «لتغريب» العالم الإسلامي عقليا، حتى يقبل الاستعمار الغربي، ويهضم حضارته، ويتتلمذ على أهله. ولهذا رسم خطته بدهاء ومكر، وشرع ينفذها بأناة وصبر. لم يصنع ما كان يصنع الفاتحون الأولون من تدمير المساجد أو تحريق المصاحف. أو إلقاء الكتب في البحار والأنهار، فيستثير الشعوب ضده، وإن كتمت مشاعرها ضعفا وعجزا، حتى ينفجر غيظها عليه في يوم قد لا يكون بعيدا.

لقد صمم الغرب الصليبي الزاحف أن يهدم ويدمر، ولكن بأسلوب غير أسلوب التتار والصليبيين القدماء، لقد اتجه إلى تدمير العقائد والأفكار، وهدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتقاليد، بمعاول خفية لا تراها الأعين بسرعة، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليب ماكرة لا تثير الشعوب. ولا تغضب

الجماهير. وبهذا نجح في قتل الشعوب، ولكن بغير إطلاق الرصاص، وضرب السيوف، بل بطريقة السم البطئ، يوضع في الدسم والحلوى!

لم يكن من هم المستعمر الدخيل في أول الأمر: أن يوجه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه، ويشككه في منهجه الإلهي، فيهيجه على حكمه، ويحرضه على مقاومته، بل ترك الشعوب في غفلاتها، ووجه أكبر همه إلى تكوين «قادة للمستقبل» قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويربيهم في أحضانه، ويغذيهم بثقافته وأفكاره، ويغرس فيهم الخضوع - عن طواعية - لنظمه وتقاليده، والتقديس لمناهجه وفلسفته.

إن صناعة هذا الجيل الذي قاد السفينة فيما بعد، وقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع، كانت أهم ما عني به الاستعمار الخبيث، وكان النجاح في صناعته أعظم نصر حققه في المعركة بينه وبين الشرق الإسلامي، لا أقول: منذ عهد الحروب الصليبية، بل منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم.

آثار لدعوة إلى التغريب في العالم الإسلامي:

كان للغزو الفكري الغربي المنظم المخطط - الذي تساندت فيه كل القوى الاستعمارية، واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب - آثاره ونتائجه الخطرة في حياة المسلمين. تلك الآثار التي بدأت تبرز وتتسع يوما بعد يوم. ومن أظهرها بروز من يدعو من المسلمين إلى «تغريب» الأمة فكرًا وشعورًا وسلوكًا. وهو ما هدف إليه المبشرون حين قالوا: إن الشجرة لا يقطعها إلا أبناؤها أنفسهم.

صحيح أن الفكر الاستعماري لم يستطع أن ينفرد تماما بالتوجيه، وأن يستقل

استقلالا مطلقا بالتأثير، فقد كان الفكر الإسلامي المتغلغل في أعماق الأمة يتحداه ويقاومه على الرغم من ضعف إمكاناته، ومن تضييق الخناق عليه. إلا أن الغلبة والتأثير الأقوى والأوسع كان للفكر الدخيل، المسلح بالدهاء والمكر، وبالعلم والمال، والمستند إلى سلطان القوة، وقوة السلطان، والذي كان يملك في قبضته أجهزة التعليم، ووسائل الإعلام، وكان أخطر نتائجه ولا شك هو شيوع التبعية الفكرية للغرب، والعبودية الذليلة لكل ما يصدر عنه من مبادئ وقيم، ومناهج وأنظمة، وأخلاق وتقاليد، وأفكار ومفاهيم، وتشريعات وقوانين.

وكان من مظاهر هذه العبودية بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شئون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية، المادية والروحية والثقافية.

فقد كان الاستعمار في أول أمره يعتمد على جيش مكون من كتيبتين يجندهما لتغريب المسلمين:

الأولى: كتيبة المستشرقين، الذين كان كثير منهم مستشارين لوزارات الاستعمار ونحوها.

والثانية: كتيبة المبشرين، الذين تجندهم الكنيسة لتنصير المسلمين.

ولا فرق بين المستشرقين والمبشرين في غالب الأمر، إلا أن الأولين يلبسون مسوح العلم، والآخرين يلبسون مسوح الدين.

ومن المستشرقين من هم رجال دين أساسا.

ثم استراح هؤلاء وأولئك إلى حد كبير، حين خرج من تلاميذهم من أبناء المسلمين من يكفيهم مؤونة الدعوة إلى التغريب، فقد قاموا بها عنهم.

وبرز من بين ظهراني المسلمين من يدعو – في صراحة حينا، وبالتواء أحيانا – إلى اطراح الإسلام، وشريعة الإسلام، وثقافة لإسلام، وحضارة الإسلام.

رأينا ذلك في الهند، ورأيناه في تركيا، ورأيناه في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام.

رأينا في الهند مثل السيد أحمد خان مؤسس الكلية الإسلامية الإنجليزية – التي سميت فيما بعد جامعة «علي كره» – يدعو إلى السير وراء الحضارة الغربية وأخذها بحذافيرها، وقال: إنه لا بد للمسلمين أن يقبلوا حضارة الغرب بتمامها، حتى يعدوا في الشعوب المتمدينة والمثقفة، ولا تزدريهم أعين الأمم المتحضرة!

لم يدع أحمد خان إلى اقتباس الجانب العلمي والصناعي من حضارة الغرب، الذي هو سر قوة الغرب ومبعث نهضته وتقدمه. وهو الجانب الذي كانت تحتاج إليه الهند وغيرها من البلاد الإسلامية. بل كان أكثر ما عني به ودعا إلى تعلمه وأخذه هو الجانب الآخر من الحضارة: جانب الآداب والعلوم الاجتماعية. حتى إنه في بعض الأحيان عارض تعليم الصناعات والعلوم معارضة شديدة، وكتب في هذا الموضوع مقالات عنيفة اللهجة مريرة النقد!![15] .

ورأينا في تركيا مثل «ضياء كوك ألب» الأديب التركي الذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريين لتركيا العلمانية الحديثة يقول: «علينا أن نختار إحدى الطريقتين: إما أن نتقبل الحضارة الغربية، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب، لا بد

---

(15) انظر في تقويم حركة أحمد خان: «التفكير الإسلامي الحديث» للدكتور محمد البهي (ص19 – 25) – والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي (ص82 – 92).

أن نختار أحد الأمرين».

ثم تحولت تركيا إلى «تغرب شبه كامل» على يد كمال أتاتورك وجماعته، الذين فرضوا «العلمانية الغربية» على تركيا الإسلامية بالحديد والنار، فاتبعت الغرب في التشريع والتربية والتعليم والثقافة والتقاليد، حتى استبدلوا بالحرف العربي الحرف اللاتيني، وكان أبلغ معبر عن ذلك هو تحريم لبس «الطربوش» والعمامة، وإيجاب لبس «القبعة»!

كان من أبرز الذين دعوا – في العالم العربي – إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه في الخير والشر الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» فهو يرى في هذا الكتاب أن سبيل النهضة «واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء. وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب»[16]، «وأن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»[17].

ويقول: «فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر، ولا في الطبع ولا في المزاج، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين»!![18]. وهكذا بلغت الدعوة إلى حد الفناء في الأوروبيين.

---

(16) «مستقبل الثقافة» فقرة 9 (ص41).

(17) نفسه (ص44).

(18) نفسه (ص63).

النصاري أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل:

وقد دعا إلى سلوك هذا السبيل في العالم العربي نصارى ومسلمون، ولكن النصارى كانوا أسبق وأصرح وأجرأ، ولعل أبرز مثال لهؤلاء هو الكاتب المصري المسيحي المعروف «سلامة موسى» الذي كتب في هذا الموضوع عدة مقالات نشرت في خلال سنتي 1925، 1926 ثم نشرها في كتاب «اليوم والغد» بعد أن أضاف إليها مقالين آخرين سنة 1927، يقول المؤلف في مقدمة كتابه بكل وضوح: «أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا» ومعلوم أن مصر ليست من آسيا، ولكنه يريد الخروج من ثقافة الإسلام وحضارته وتعاليمه التي جاءت من آسيا.

يريد الكاتب «حرية المرأة كما يفهمها الأوروبي» كما يريد من الأدب «أن يكون أدبا أوروبا 99٪». ويريد من التعليم «أن يكون أوروبيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» ويقول: «نحن في حاجة إلى ثقافة أبعد ما تكون عن الأديان، ولا بأس أن تعتمد على الترجمة إلى حد بعيد».

وهو يريد أن يعطل شريعة الإسلام في تعدد الزوجات وفي الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة، ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة»!!

وهو ينكر أشد الإنكار كل دعوة تنادي بالتعاون أو التقارب بين المسلمين، وتوثيق الروابط بينهم كما أمر الله، ويقول في ذلك بكل جرأة: «إن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا - أبناء القرن العشرين - أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا»؟؟!

ويقول في صراحة يحسد عليها: «إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم

بلا حق».

كما يدعو في غير مواربة إلى التعاون مع الإنجليز «المستعمرين» لتصفية الرجعية في مصر، يعني: القوى الإسلامية، مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية، والجماعات الإسلامية(19).

ومثل سلامة موسى في مصر: زميل له من نصارى لبنان، لا يقل عنه جرأة أو وقاحة، هو: «جميل معلوف» الذي يقول في كتابه «تركيا الجديدة» أي بعد أتاتورك:

«إن خلاص الشرق يتوقف على تفرنج الشرقيين بكل معنى الكلمة» (ص34).

وكلمة الشرق كانت تعني «العالم الإسلامي» و«الشرقيين» تعني «المسلمين».

«لا عهدة شرعية تربطنا بأسلافنا ... يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس. كل جيل يجب أن يعمل لذاته، وكل سلالة يجب أن تشرع لنفسها» (ص41).

ونحن نقول: عمل كل جيل لذاته لا يقتضي التنكر للإسلام، والانسلاخ من التراث، والسير في ركاب الآخرين.

ويقول:

«استناد الشرقيين على الدين في أحوالهم العالمية عمل عقيم يبعدهم عن محجة التقدم، لا بل إنني أجد بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيين من الأنبياء» (ص96).

---

(19) انظر: كتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (جـ2/ 207 – 213)، نشر دار الإرشاد ببيروت.

«وعلى حال فإذا اضطرت أن أختار لأبناء وطني واحدا من أمرين:

الكفر أم التعصب. فأختار لهم الأول، به يتوحد مبدؤهم، فيكسبون الدنيا على الأقل» (ص98).

«ولا بد أن يعقب هذا الانقلاب «يعني الانقلاب الذي أطاح بالخلافة الإسلامية» السياسي الصغير ثورة أدبية عظيمة ضد المبادئ القديمة كلها؛ فيثور الابن على أبيه، والمرأة على زوجها، والخادم على سيده، والرعية على كاهنها وشيخها، ورجال الدين على كتبهم» (ص112).

«إن فصل الدنيا عن الدين أمر واجب لتقدم الشرق، وبدونه لا يستطيع الشرقي أن يدخل في دائرة المدنية، ويتمتع بنفس الحرية الحقيقية» (ص141)[20].

تهافت دعوة التغريب:

هذه هي دعوة عبيد الغرب من مسلمين ونصارى. دعوة التبعية المطلقة للحضارة الغربية، والذوبان الكامل فيها، وأخذ كل شيء منها، واستمداد كل قيمة، وكل مفهوم، وكل تشريع، وكل تقليد، منها: الخير والشر، والحلو والمر، والعلم والأدب، والمادة والفكر، والتصور والسلوك.

لم يفرق هؤلاء بين ما يصح اقتباسه وما لا يصح، وما يجوز استيراده وما لا يجوز. ولو أنهم نادوا باقتباس الجانب «العلمي» المحض، الذي ينشأ عنه رقي الصناعة وزيادة الإنتاج، ونمو العمران، وازدهار الحياة المادية، ما رأينا بذلك بأسًا ولا حرجًا، فإن العلم المحض – بطبيعته – عالمي لا دين له ولا جنسية، ومن انتفع بقانون أرشميدس لم يكن به يونانيا، ومن أخذ بنسبية أينشتاين لم يصر أمريكا أو

---

(20) انظر: «تركيا الجديدة» لجميل معلوف.

رأسماليا، ومن اقتبس قانون الجاذبية لإسحقاق نيوتن لم يصبح به إنجليزيا أو استعماريا، كما أنه من اقتبس نظريات ومكتشفات جابر بن حيان في الكيمياء أو الخوارزمي في الجبر أو البستاني في علم المثلثات، أو الحسن بن الهيثم في البصريات، لم يصر بذلك عربيا ولا مسلما!

إن الولايات المتحدة الأمريكية التي تتربع على قمة الرأسمالية، والاتحاد السوفياتي - البلاد الأم للاشتراكية العلمية - كل منهما قد استفاد من خبرة خصومهم ومحاربيهم الألمان في بحوث الذرة والفضاء بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبح العلم الذي خدم النازية الألمانية من قبل، يخدم الرأسمالية الأمريكية والشيوعية الروسية من بعد، وها هي كلتاهما تحاول أن تخطف الأسرار العلمية أو تختلسها من الأخرى إذا استطاعت، ولا ترى في ذلك خطرا ولا ضيرا، أما الذي تقف كلتاهما في وجهه، فهو الاتجاهات الثقافية والأدبية التي تحمل فلسفة كل من البلدين، وتعبر عن وجهته في الحياة، ونظرته إلى الفرد والمجتمع، والله والإنسان، والكون والتاريخ.

لا حرج ولا بأس إذن من اقتباس العلم الطبيعي والرياضي ونحوه، وإنما الحرج والبأس في اقتباس الثقافة والتقاليد، والأفكار والمفاهيم، والقيم والموازين، والأخلاق والتشريع، التي تتميز بها كل أمة عن غيرها.

بل الواقع أننا حين نقتبس الجانب العلمي من الغرب لا نفعل شيئًا إلا أننا نسترد بضاعتنا، فنحن أصحاب هذا العلم وأولى الناس به، فقد أخذ الغرب أصول هذا العلم ومنهجه منا كما اعترف بذلك بريفولت ودوهرنج ولوبرن وسارتون وغيرهم من المؤرخين المنصفين.

خطر التغريب على الحياة الإسلامية:

لقد كان «التغريب» أشد ما أصاب العالم الإسلامي من أخطار، وكان له في الحياة الإسلامية أبعد الآثار، ولقد شهد بشدة خطره كل المراقبين، والمؤرخين المعنيين بالشأن الإسلامي، مثل المؤرخ الغربي الأمريكي اليهودي المعروف الذي كان رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الشرقية بلندن والذي قال في كتابه «الغرب والشرق الأوسط»:

«لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهددًا فيها في الوقت نفسه من الشرق والغرب، غير أن الإسلام تغلب عليها، واجتازها دون أن يتأثر. جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحولوا إلى مسلمين مؤمنين، وتمثلهم المجتمع الإسلامي الكبير فانصهروا في بوتقته، وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الإسلام التي أقامت مجتمعًا متدهورًا كاد يفني اجتماعيًا وسياسيًا، بهذه القوة والحيوية تمكن الإسلام من الصمود، بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيين الذين جاءوه من الغرب».

«ثم واجه الإسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر، فلقد سحق الشرق الأوسط الإسلامي مرتين. واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح، وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الإسلامية القديمة الأصول، فإنهم لغموا أو «زلزلوا» ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم، وهكذا حولوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة.

أولى هاتين اللطمتين كانت الغزو المغولي في أواسط آسيا التي حطمت الخلافة القائمة، وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة، قلب العالم الإسلامي لحكم غير

إسلامي.

أما اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث ... »[21].

والذي يبدو لي أن اللطمة الثانية كانت أقسى وأشد خطرًا من الأولى، فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يقاوم اللطمة الأولى، وينتصر عليها مرتين سجلهما التاريخ:

الأولى: في انتصاره العسكري الرائع، الذي رد الثقة إلى الأمة بالإسلام، والذي تحقق بعد سنتين فقط من سقوط بغداد سنة 656هـ، وذلك في إحدى «المعارك الحاسمة» في التاريخ، وهي معركة «عين جالوت» الذي قادها الجيش المصري بقيادة الرجل الصالح، القائد المملوكي المظفر سيف الدين قطز، في 25 من رمضان سنة 658هـ ولم يستطع التتار بعد ذلك أن يحققوا نصرا يذكر.

والثانية: في انتصاره المعنوي على التتار الذي قل أن وجد له نظير في تاريخ الأمم، وذلك حين استطاع الإسلام، باعتباره دينا ورسالة – والتتار هم المتحكمون في عدد من دياره وأقطاره – أن يؤثر في التتار المنتصرين، ويجذبهم إلى ساحته، ويغريهم بدعوته، فتقع المعجزة الإسلامية، ويدخل التتار في دين الله أفواجًا، ويسجل التاريخ اعتناق الغالبين دين المغلوبين!

هكذا واجه الإسلام الغزو التتاري أو المغولي، وحول التتار إلى مسلمين، وحسن إسلامهم فيما بعد، ودافعوا عن الإسلام.

أما اللطمة الأخرى: لطمة «التغريب» فقد كانت من القوة والنفاذ والخطر،

---

(21) «الغرب والشرق الأوسط» (ص32 – 33) تعريب الدكتور نبيل صبحي.

بحيث لم تزل أمة الإسلام، تواجه نتائجها، وتعاني آثارها في الأنفس والعقول والحياة إلى اليوم[22].

وأخطر ما نجح فيه «التغريب» أنه كون جيلا أو أجيالا من أبناء الأمة نفسها، يقوم بمهمته، ويلعبون دوره، ويغنون عنه. هؤلاء هم «المتغربون».

يقول برنارد لويس في مقام آخر:

«والتغريب» الذي كان أكثره من عمل «المتغربين» من أبناء الشرق، جاء بتغييرات يشك كثيرا في قيمتها، أول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر، فالشاه يحكم إيران والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التي تشمل كل ما بقى من الشرق الأوسط. وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم، ولكنهم كانوا في موضع احترام، والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع، لأنه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم تقريبا ... ثم عزل السلطان ... وهدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والدكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم، وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم ... ولكنهم لم يكونوا أبدا موضع الرضا التام، والقبول الطبيعي، والولاء الأكيد، الذي كان ممنوحا لحكومة السلطان الشرعية، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماغوجية السياسية في الحكم.

---

(22) انظر: كتابنا «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» نشر مؤسسة الرسالة في بيروت (ص18 – 21) الطبعة الخامسة عشرة.

«وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط «هويتهم الواحدة» القديمة، فبعد أن كان كل مواطن عضوا من أعضاء إمبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة، والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة، والتي تحاول الآن إيجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه، وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم حالة تفسخ، ولكنه على أية حال كان قائما بوظيفته، حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالم، تجمع جميع فئات الشعب في إطار واحد، ثم دمرت الأساليب القديمة، وسخر من القيم القديمة ثم أهملت، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب، والتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم»[23].

معركة المقاومة للتغريب:

وقد ذكرنا في دراسة لنا: أن المسلمين لم يبتلوا في تاريخهم بمثل هذا الغزو الفكري الغربي. لقد عرفوا لونا من الغزو فيما سمي بـ «الإسرائيليات» ولكنها - وإن كدرت الثقافة الإسلامية - لم تؤثر فيها تأثيرًا يذكر.

وعرفوا ما هو أشد منها خطرا حين ترجمت فلسفة اليونان، وفتن بها كثير من المسلمين، ولا سيما الجانب الميتافيزيقي منها، حتى اعتبر بعضهم «أرسطو» المعلم الأول، وليس محمدا ﷺ، واعتبروا فلسفة أرسطو «أصلا» يرد إليها ما جاء في القرآن والحديث، فإن وافقها فبها، وإلا وجب تأويله.

(23) «الغرب والشرق الأوسط» (ص61).

ولكن هذه الفلسفة لم تؤثر إلا في خاصة الخاصة، ولم تفعل ما يفعله الفكر الغربي الآن، الذي تغلغل في الحياة كلها.

والمهم هنا: أن الفكر الإسلامي لم يستسلم يومًا للغزو التغريبي المتمكن، المدجج بالسلاح، المعزز بالسلطان، المؤيد بالمال، بل قاوم منذ أول يوم بما يملك من أسلحة ضعيفة، وربما هزم أنصاره في بداية الأمر، وحسب الغزاة أن الأمر قد استتب لهم، وأن الجو قد خلا لهم، وأن شمس الإسلام قد غربت.

وخاب فألهم، فالأمة المسلمة قد تنام، ولمنها لا تموت، والقوة الإسلامية قد تكمن، ولكنها لا تزول، والمقاومة قد تتوقف فترة، ولكنها سرعان ما تنتفض، ويطلع فجرها مرة أخرى أشد ضياء وجلاء.

إن طبيعة الإسلام: بقرآنه المحفوظ، وبسنة نبيه المبينة، وبسيرته الحية، وبهدي أصحابه الذين تربوا في حجره، وببطولات سلف الأمة وأخلاقياتهم الهادية، يستحيل أن تخبو جذوته، أو ينطفئ سراجه، أو تغيب شمسه، قد تغيب عن قوم لتطلع عند آخرين، وقد يحجبها سحاب طارئ، لتبزغ بعد، أضوأ وأنور.

لقد علمنا القرآن والسنة أن هذه الأمة لا تجتمع كلها على ضلالة ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]، ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]. وقد روى عدد من الصحابة حديث «الطائفة المنصورة» التي تظل قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وروى الحديث الآخر: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**».

ولا عجب أن هيأ الله للمسلمين في أقطار شتى من وقفوا في وجه هذا الغزو

﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: 23].

وقامت حركات الإحياء والتجديد التي تحدثنا عنها بدورها في هذه المعركة، التي تكاد تكون أطول المعارك وأعنفها وأخطرها، وسرعان ما تراجع الغزاة المسلحون، وإن لم يهزموا تماما، ولم يلقوا أسلحتهم، فلا تزال لهم بقايا في كل الأقطار. تعمل بجد ودأب، والمعركة مستمرة، والنصر في النهاية لأهل الدار، وأصحاب الحق، والعاقبة للمتقين.

هدف التغريب إلى «علمنة» الدولة، و«علمنة» المجتمع، بتشريعه، وثقافته، وتعليمه وإعلامه وتقاليده، ووقف رجال الإسلام لهذه العلمنة بالمرصاد. وقف رجال الجامعات الدينية كالأزهر وغيره، والجماعات الإسلامية، يعملون ويجاهدون لاستعادة هوية المجتمع، وإفشال دعوة التغريب والعلمانية.

تطور الفكر الإسلامي من التبعية إلى المواجهة:

وكل دارس أو مراقب للفكر وتطوره خلال هذا القرن يلحظ: تطور الفكر لدى المسلمين من حالة التبعية المطلقة إلى حالة الاعتزاز والمواجهة.

فقد مر الفكر الإسلامي – أعني فكر المسلمين – بمراحل، ابتدأت بالهزيمة المطلقة أمام فكر الحضارة الغربية الغازية، التي كان يمثلها في ذلك الوقت الاستعمار المتمكن من جل بلاد المسلمين في المشرق والمغرب.

كان الغرب في أوج تفوقه وتقدمه ونفوذه وقوته، علميا وتكنولوجيا وعسكريا واقتصاديا وسياسيا، وكان المسلمون في حضيض ضعفهم وتخلفهم، في كل هذه النواحي، وكان لا بد لهذه الحالة أن تعكس أثرها على العقول والأنفس، والفكر

والثقافة.

وقد توهم بعض الناس المتعجلين الخاطفين للأفكار: كأنما الإسلام هو سبب تخلف الأمة، وكأن التخلف – بطبيعته – إسلامي، والتقدم بطبيعته غربي! فلا غرو أن بهر الغرب أفكارهم، وخطف سنا برقه أبصارهم.

ولو كان هذا صحيحا ما سدنا العالم، وسادت حضارتنا لنحو عشرة قرون، كنا فيها معلمي البشرية، وكانت جامعاتنا تستقبل الطلاب من أنحاء العالم، وكانت أسماء علمائنا أشهر الأسماء، وكتبهم هي مراجع العلم العالمية، واللغة العربية هي لغة العلم الأولى، بل الفذة في تلك العصور.

ولو كان ما ذكروه صحيحا ما كان الغرب لعدة قرون يعيش في عصور الظلام، ولا يرى الضوء إلا من سم الخياط. فقد كان يشكو الفقر والأمية والقذارة والتفكك في كل جوانب الحياة، حتى مسته نفحة من الشرق الإسلامي، فهب من رقود، وتحرك من جمود، في حين نحن بدأنا نسلك سبيل الانحدار واأسفاه!

لقد رأينيا رجالا كبارا سلموا للغرب الزمام، واستسلموا لتيار التغريب، بل منهم من كانوا دعاته ومروجيه من البدء، وكان غير المسلمين أشد جرأة، وأعلى صوتا في ذلك من المسلمين، كما رأينا أمثال سلامة موسى وغيره.

ثم ظهر في أثناء ذلك مسلمون كان لهم نفوذهم وجاههم، مثل طه حسين ومنصور فهمي.

هناك من تبنوا الفكرة الداروينيه في النشوء والتطور ودافعوا عنها، وقاتلوا دونها مثل شبلي شميل في لبنان، وإسماعيل مظهر في مصر.

ومن تبنوا فكرة «دوركايم» في علم الاجتماع ومن تبنوا فكرة «فرويد» في

التحليل النفسي.

ومن أهم هذه الأفكار التي شغلت الناس وقسمتهم: فكرة «كارل ماركس» في فلسفة المادية الجدلية، والصراع الطبقي، والفلسفة الجماعية، والتخطيط الأقتصادي المركزي، والتي قامت على أساسها الدول الشيوعية الكبرى: روسيا، الاتحاد السوفيتي في الغرب، والصين في الشرق، وإن كان «ماوتس تونج» قد أضفى على الشيوعية الصينية طابعا خاصا. وقد قامت في بلادنا أحزاب وجماعات تتبنى هذا الفكر وتروج له، وتجمع الشباب عليه، وتخوض المعترك السياسي على أساسه، منهم من كانت قبلته «موسكو»، ومن كانت قبلته «بكين». منهم من كان زعيمه وملهمه «لينين» ومن كان ملهمه «ماو» ومن كان ملهمه «غيفارا». وكلهم «ماركسيون».

وفي مقابل الفكرة الماركسية: كانت الفكرة الليبرالية، التي تتبنى الفلسفة الفردية، وحرية الفرد الاقتصادية والسياسية، والتي كان من ثمراتها العملية: الرأسمالية في الاقتصاد، والديمقراطية في السياسة. والتي قامت على أساسها الدول المتقدمة في أوربا الغربية، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت معظم النخب المثقفة في أوطاننا في أوائل القرن وأوسطه منقسمة بين التيارين الجديدين والمتعارضين: التيار اليساري الماركسي، والتيار اليميني الليبرالي، وإن كان الليبرالي أكثر عددا، وأقوى عدة. وكلاهما غربي النشأة والجذور والوجهة، كما أن كليهما مادي الوجهة، حسي النزعة، نفعي التوجه.

أما الفكر الإسلامي الحقيقي فكان في أوائل القرن كأنه غائب عن الساحة إلا ما كان من أصوات هنا وهناك، تقاوم وتقاوم، مثل «مجلة المنار» وصاحبها محمد

رشيد رضا – امتداد مدرسة محمد عبده – في مصر، ومثل جماعة ندوة العلماء ومؤسستهم «دار المصننفين» في الهند، وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، في الهند، ومثل العلامة عبد العزيز الثعالبي في تونس.

وبعد مرحلة المناداة بالتبعية المطلقة وبصراحة للفكر الغربي بخيره وبشره، جاءت مرحلة أخرى، هي مرحلة «التبرير» بمعنى أخذ مسلمات الفكر الغربي، ثم محاولة تبريرها إسلاميا، وتمريرها لدى الأمة، بالبحث عن فتاوى لتسويقها شرعا.

وكانت هذه في الواقع عملية تدليس أو تلبيس من إبليس؛ لأنه يريد منا أن نأخذ الخواجة الغربي، ونلبسه عباءة عربية، أو عمامة إسلامية.

وهذا كما رأينا الذين يحاولون أخذ الربا من النظام الرأسمالي الغربي، ثم يسوغونه بأسانيد شرعية فيما زعموا، مثل أنه ليس من ربا الجاهلية، أو أنه ليس من ربا الاستهلاك، أو أنه ليس أضعافا مضاعفة أو غير ذلك من التبريرات، التي رد عليها العلماء الراسخون وأبطلوها.

وبعد هذه المرحلة جاءت مرحلة أخرى، هي مرحلة «الدفاع» عن الإسلام، أو «الاعتذار» عن الإسلام، أي اعتبار الإسلام كأنه في قفص الاتهام، وعلينا أن ندافع عنه، ونطلب له العفو والرحمة.

فكل ما تميز به الاسلام من أحكام وتعاليم يجب أن يوضع هذا الوضع، مثل قضية «حجاب المرأة» أو «ميراثها على النصف» من أخيها، وقوامة الرجل عليها في الأسرة، أو «قضية الربا» أو غيرها من القضايا التي للإسلام فيها موقف مخالف لما استقر عليه الأمر عند الغرب.

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الاعتزاز بالذات، والمواجهة مع الفكر المغاير،

وخصوصا فكر الحضارة المادية المعاصرة بشقيها الرأسمالي والشيوعي، وقد تجلى ذلك في تراث الدعاة الكبار في هذا القرن، في العالم العربي، وفي باكستان والهند وإيران وغيرها من بلاد الإسلام، مثل المودودي في باكستان، وحسن البنا وسيد قطب ومحمد البهي، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد الغزالي والشعراوي وغيرهم في مصر، ومثل السباعي وحوى في سوريا، ومثل باقر الصدر في العراق، ومثل علي شريعتي في إيران، وفي الأحياء كثيرون يصعب حصرهم.

وقد تميزت هذه المرحلة - مع الاعتزاز والمواجهة - بالانفتاح والمرونة الفكرية والتسامح مع الآخر، المخالف في الدين أو المغاير في الفكر. ودعت إلى الحوار، وغلب فيها «تيار الوسطية» الذي يدعو إلى الاعتدال في فهم الدين وتنزيله على الواقع، وفي التعامل مع الآخرين.

ومن أتباع التيارين الماركسي والليبرالي من استمروا على عبوديتهم لفكرهم القديم، ومنهم من تغير إلى النقيض، وخصوصا من الماركسين، ومنهم من تغير في السياسة لا في الفكر، فأصبح من أتباع الموقف الأمريكي، وأحسب أن منهم دعاة التطبيع المطلق مع إسرائيل في مصر وغيرها، وهم الذين عرفوا بـ «جماعة كوبنهاجن».

ومن هؤلاء وأولئك من تحول إلى الإسلام صادقا.

من هؤلاء الدكتور منصور فهمي.

ومنهم: الأستاذ إسماعيل مظهر.

ومنهم: الدكتور مصطفى محمود.

ومنهم: الأستاذ خالد محمد خالد، الذي خرج على الخط الإسلامي في كتابه

الشهير «من هنا نبدأ» وما تبعه من كتب عدة، ثم رجع إلى خطه الأصلي – الخط الإسلامي – وخطأ نفسه في شجاعة نادرة، وصراحة باهرة، في كتابه «الدولة في الإسلام» وما بعده من كتب.

ومنهم الدكتور محمد عمارة، والمستشار طارق البشري، والأستاذ عادل حسين، وقد كانوا في مرحلة من حياتهم تأثروا بالماركسية بل دخل بعضهم السجن من أجلها.

وهم الآن ثلاثتهم من أقوى وأبرز الدعاة إلى الإسلام، والمدافعين عنه، كل في موقعه.

بل منهم الشيخ علي عبد الرازق، الذي لم يسع إلى طبع كتابه «الإسلام وأصول الحكم» طوال حياته، ولم يتابعه بأي بحث أو مقال يؤيد الفكرة، بل نقل عنه الدكتور عمارة أنه قال لبعض المجلات عن عبارة «الإسلام رسالة روحية ولا صلة لها بالدولة أو السياسة» أنها عبارة ألقاها الشيطان على لسانه. وقد كان في أواخر حياته يصلي وراء الشيخ الغزالي في الجامع الأزهر، ويحرص على ذلك، ولم يكن الشيخ الغزالي يعرفه، فسأله أن يعرفه بنفسه، فقال له: أنا علي عبد الرزاق. وجرى بينهما حديث سريع حول الماضي وكتابه الشهير، فقال له: تلك مرحلة انتهت. سمعت هذا من الشيخ الغزالي رحمه الله.

وكذلك تغير الدكتور محمد حسين هيكل من النزعة الفرعونية إلى النزعة الإسلامية، كما ظهر في كتبه المعروفة: حياة محمد، الصديق أبو بكر، الفاروق عمر، في منزل الوحي.

بل طه حسين نفسه في أواخر حياته غيره في أوائل حياته، كما يظهر ذلك في

كتابه «مرآة الإسلام» وغيره. وقد حكوا أنه عندما كان وزيرا للمعارف زار المدينة المنورة، فكان مما كرمه به السعوديون: أنهم فتحوا له باب القبر النبوي ليزوره من الداخل، قال مرافقه: وعند دخول القبر وجدته يرتعش، وعيناه تدمعتان، فسألته مندهشا، فقال له: ألا تدري قبر من هذا؟ إنه قبر رسول الله محمد!

وكذلك العقاد، لم يكن في أوائل حياته، كما كان في أخرها، فقد غدا لسانا من ألسنة الإسلام، دعوة إليه، ودفاعا عنه. وكتب عبقرياته الإسلامية، والفلسفة القرآنية، والإسلام في القرن العشرين، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، والشيوعية والإنسانية، وما يقال عن الإسلام، وغيرها.

وأحسب أن الاستعمار لن يكون سعيدا ولا قرير العين اليوم، إذا رأى أن جهوده الطويلة المتتابعة المكثفة المخططة، لم تحقق هدفها الأساسي في تحويل أمة الإسلام عن نهج دينها، وشرع ربها، ونسختها إلى أمة أخرى، فها هي الصحوة الإسلامية تقلب الأوضاع رأسا على عقب. وترعب القوى المعادية للإسلام، وفي الغرب والشرق، حتى باتوا يكيدون لها كيدا، ويمكرون بها مكرا كبارًا، والله من ورائهم محيط.

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

لقد قلبت الصحوة الموازين، وغيرت الأفكار والأوضاع، حتى أصبح الشارع مع الحركة الإسلامية في عامة الأقطار، في مصر وفي الأردن، وفي اليمن، وفي غيرها. حتى الجزائر التي استمر فيها أخبث أنواع الاستعمار - وهو الاستعمار الاستيطاني - 130 مائة وثلاثين عاما، تنتصر عسكريا على هذا الاستعمار، وتعود طوعا إلى حقيقتها وذاتيتها، وتقوم فيها صحوة إسلامية لا نظير لها، تنتهي بإيصال

الإسلاميين إلى أغلبية ساحقة انتخبها الشعب مختارا لمجلسه الوطني، وإن أبى ذلك العسكريون الموالون للثقافة الفرنسية.

وقام للإسلام دولة شيعية في إيران، ودولة سنية في السودان، ولو ترك الأمر للشعوب لقامت دول في أكثر من مكان.

وسنفرد الفصل القادم عن «الصحوة الإسلامية» وأثرها في الحياة الإسلامية.

****

انطلاق الصحوة الإسلامية

ومن أعظم إنجازاتنا نحن المسلمين في هذا القرن: ظهور حركـة «الإحيـاء» أو «البعث» أو «اليقظة» أو ما شئت من التسميات التي تدل على ظهـور الإسـلام في صورة «تيار جديد» أثر في الحياة الإسلامية، وجدد الثقة بعودة الإسـلام إلى قيـادة الحياة، وأقلق القوى المعادية للإسلام، والخائفة منه، هذه الحركة، أو هذا الانبعاث، أو هذا التيار هو ما عرف باسم «الصحوة الإسلامية». ولا سيما في الثلـث الأخـير من هذا القرن.

ولا أعرف بالضبط من هو أول من أطلق هذا الاسم أو صـك هـذا المصـطلح، لكنه مصطلح صحيح ومعبر عن مضمونه: فإن الأمة قد تنام أو تنوم أو تعطي مـا يسكرها أو يخدرها، ثم تصحو وتفيق مما أصـابها مـن نـوم أو تنـويم أو سـكر أو تخدير.

فالصحوة تعني «عودة الوعي» بعد غيـاب: الـوعي بـالنفس، والـوعي بـالغير «صديق أو عدو» والوعي بالرسالة، والوعي بالزمان والمكان.

وقد عاد الوعي، أو برزت الصحوة في أمتنا، وسرت في كيانها سريان الكهربـاء في الأسلاك، وجرت في رجالها ونسائها، مجرى الدم في العروق، وانتشرت في بـلاد الإسلام انتشار أضواء الصباح، وتنقلت من بلد إلى بلد، كـما تنتقـل الريـاح التـي تسوق السحاب بشرى بين رحمة الله، وهو المطر.

لا أعرف أين بدأت، ولكن أحسبها بدأت في مصر ـ بلـد الأزهـر، والبلـد الأم للدعوة الإسلامية في العالم العربي، ومنشأ كبرى الحركات الإسلامية، ومصر ـ بلـد

مؤثر في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، إنها تصدر الخير، وتصدر الشر. أعظم قارئي القرآن يخرج من مصر، وأعظم داعية إلى الدين يظهر في مصر، وأعظم مفسر للقرآن يبرز في مصر، وأعظم مطرب أو مطربة، وممثل أو ممثلة يظهر أيضا في مصر.

فلا عجب أن يبزغ فجر الصحوة من مصر، ومنها انطلقت إلى البلدان الأخرى، مشرقة ومغربة. إلى العالم العربي، فالعالم الإسلامي، فالجاليات الإسلامية في أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية، والشرق الأقصى.

لقد رأيت هذه الصحوة رأي العين، ولمستها لمس اليد، وعايشت أبناءها وبناتها في المشارق والمغارب، والشمال والجنوب.

رأيت هذا الشباب الذي عاد إلى الإسلام بفهم جديد، وإيمان جديد، وعزم جديد، شباب يشرق كضياء الفجر، ويتدفق كأمواج البحر، نراه في رقة الزهر، وفي صلابة الصخر، يصوم الإثنين والخميس، يتلو القرآن ويتعبد بتلاوته، ويدرس سيرة الرسول ﷺ، ويتأسى بهديه، ويتابع سير الصحابة ويتمنى أن يقتدي بهم. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، يمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، ويعيشون في الدنيا وقلوبهم موصولة بالآخرة. ولقد قلت يوما في مصر: إن هذا الشباب الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، وعاش للإسلام وبالإسلام، هو أثمن ما في مصر من ثروات، إنه أثمن وأغلى من الذهب الأبيض «القطن» والذهب الأسود «البترول» والذهب الأصفر المعروف.

إنه الثروة التي لا تدانيها ثروة، وهي التي تغالي بها الأمم، وتعقد عليها

الخناصر، وبها تقوم النهضات، وتنتصر الرسالات ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

لقد باتت الصحوة حقيقة واقعة في عالم الإسلام، لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر، وقد سر بها كل من يحب الإسلام ويرجو له الخير ... وكرهها أو خاف منها كل عدو للإسلام، يتربص به السوء، أو يخاف من انتصاره، أو يكره علة كلمته في الأرض ... وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 31].

كانت هذه الصحوة الإسلامية – كما شهدناها – صحوة شاملة:

فهي صحوة عقول وأفكار.

وهي صحوة قلوب ومشاعر.

وهي صحوة عزائم وإرادات.

وهي صحوة سلوك والتزام.

وهي صحوة غيرة ودعوة.

وهي صحوة كفاح وجهاد.

وهي صحوة مسلمين ومسلمات.

ولقد أثبتت وجودها على هذه الأصعدة كلها.

أسباب ظهرو الصحوة وجذورها:

وقد تساءل الكثيرون عن ظهور هذه الصحوة التي فاجأت الكثيرين، وصدمت الكثيرين، في الداخل والخارج، ممن ذهبت بهم الظنون: أن الإسلام قد غربت

شمسه، أو انتهت مدة صلاحيته، وأن الضربات القاصمة التي أنزلت بحركته ودعوته، وأصابت أصحابها بجراحات غائرة، شتت شملهم، وعوقت سيرهم، وقوضت خيامهم، فإذا هو يحيا من جديد، أشد قوة، وأصلب عودا، مرفوع اللواء، عالي النداء، متين الأسس، شامخ البناء.

أسباب مزورة للصحوة:

ما سبب هذه الصحوة؟ وما العامل المؤثر في ظهورها؟

كتب كاتبون كثيرون في ذلك، يمثلون شتى الاتجاهات، وكل يغني على ليلاه، وكل يفسر الأحداث وفق فلسفته التي يؤمن بها، وتبعا لمدرسته التي ينتمي إليها.

فهناك أتباع «التفسير المادي» الذين أرادوا أن يردوها إلى أسباب اقتصادية برزت في المجتمع. وهذا هو ديدنهم في تفسير كل وقائع التاريخ، وتغيراته. حتى ظهور النبوات والرسالات السماوية، أسبابه اقتصادية. ومن لم يؤمن بالله ولا بملائكته وكتبه ورسله، لا يستبعد عليه ذلك. وقد يكون للاقتصاد بعض الأثر في ظهورها، ولكنه ليس السبب الوحيد، ولا السبب الأول، ولا السبب القوي، من غير شك.

وآخرون ردوها إلى أسباب نفسية، نشأت بعد نكبة سنة 1967م، التي سموها «النكسة» والتي احتلت بها إسرائيل ما بقي من فلسطين بعد نكبة سنة 1948م، وأضافت إليها الجولان، وسيناء.

ولا غرو أن توقظ النكبات الكبرى الناس، ما داموا على بقية من سلامة الفطرة.

وقد بين لنا القرآن موقف الإنسان - ولو كان مشركا - إذا مسه الضر، ونابه الكرب؛ فهو يدعو ربه منيبا إليه. كما صور موقف ركاب الفلك، إذا عصفت بهم

الريح، وأحاط بهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم: دعوا اللّٰه مخلصين له الدين: أي أنهم في هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة، ولم يذكروا إلا اللّٰه وحده. فلا يستبعد أن تهز النكبة الثانية[24] - بعد نكبة سنة 1948م - نكبة سنة 1967م: كيان الإنسان المسلم، وترده إلى ساحة اللّٰه تعالى، بعد أن استنسر في أرضه البغاث، وتجرأ عليه الجبان، وانتصر عليه اليهود، أحرص الناس على حياة!

هل الصحوة من صنع حاكم عربي؟

وأغرب ما كتبه بعض اليساريين والعلمانيين العرب في مصر: أن أحد الحكام[25] هو الذي أنشأ هذه الصحوة وأوجدها من العدم، ليقاوم بها التيار الشيوعي المتنامي في نظره!

وإن تعجب فعجب أن يقول ذلك الذين يزعمون أنهم ينطقون بلسان الجماهير! ولا أدري كيف جهل هؤلاء أن صحوات الشعوب لا تصنعها إرادة الحكام، ولا سيما إذا كانت صحوة عميقة الجذور في الفكر والشعور والإرادة والسلوك، كما هو المشاهد في الصحوة الإسلامية المعاصرة، وليست مجرد زبد طاف على السطح!

لو كانت هذه الصحوة من صنع حاكم، لاستطاع أن يلغيها كما انشأها؛ فإن الذي يقدر على البناء يقدر على الهدم، بل هو أسهل.

وليت شعري، من الذي صنع الصحوة في سائر ديار العرب غير مصر؟! ومن الذي صنعها في سائر ديار الإسلام؟! ومن الذي صنعها خارج العالم الإسلامي؟!

قد يفكر حاكم ما في وقت ما استغلال الصحوة في إضعاف عدو له، لا محبة في

---

(24) هكذا سميناها في كتابنا «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟».

(25) يريدون: الرئيس المصري الراحل أنور السادات!

زيد، ولكن كراهية في عمرو! وقد ينجح في ذلك، وقد يخفق، وقد يتفق هدفه هـذا مع هدف الصحوة نفسها، وقد تعتقد أنها هي التي تستغله! ومهما يكن، فلا يعنـي شيء من هذا أن الصحوة من صنع يده.

ربما غاظ هؤلاء أن هذا الحاكم أتاح للتيار الإسلامي - في وقـت مـا - أن يعـبر عن نفسه، كما يعبر غيره، كما أتيح لكل التيارات مـن يمـين ويسـار أن تعـبر عـن نفسها، بل هيئ لها في سنوات طويلة أن تثب على أجهزة إعلام الدولـة، وتسـيطر عليها، وتوجهها لخدمة فكرها، وتشويه الفكر الإسلامي والافتراء عليه، ولا أحـد يملك الرد أو الاعتراض!

أجل ... هذا ما ملأ قلوب هؤلاء غيظا، لأنهم يعلمون ويوقنـون مـن تجـارب الماضي والحاضر: أن التيار الإسلامي هو التيار الوحيد الأصيل المتجاوب مع فطرة الأمة ووعيها وتاريخها، وأن حرية الكلمة والحركة هـي دائـما في مصـلحة التيـار الإسلامي، وأنه لا يقاوم إلا بالحديد والنار، وقهر الشعوب على غير ما تريد، وأنـه يكمن، ولكن لا ينمحي، وقد يضعف، ولكن لا يموت.

إن كل ما يطلبه التيار الإسلامي: أن تترك له الحرية ليخاطب الشـعب، ويجنـد الجماهير، ويدعو إلى حقائق الإسلام، ويرد على أباطيل خصومه. وهـذا حـق مـن حقوق الإنسان، كفلته المواثيق الدولية، والدساتير المحلية، ونادت به الديمقراطية التي يتغنون بها.

أم يريدونها ديمقراطية لهم وحدهم، وهم - بأفكارهم المستوردة - غربـاء عـن الأمة، دخلاء عليها؟ فحرية الرأي والتعبير والحركة والاجـتماع حـق لكـل اتجـاه وكل فلسفة، إلا الاتجاه الإسلامي صاحب الدار!! ورحم الله شوقي الذي قال:

أحـــرام عـــلى بلابلـــه الـــدوح، حلال للطير من كل جنس؟!
كـــل دار أحـــق بالأهـــل إلا في خبيث مـن المـذاهب رجس

والغريب أن هؤلاء الذين يدعون لأنفسهم - أو يدعي لهم مروجو بضاعتهم - القدرة على الغوص والتحليل، ينظرون إلى الصحوة كأنها ظاهرة شاذة، أو خارقة لقوانين الكون وسنن الاجتماع البشري.

وكأن الأصل في الأمة المسلمة، أن تنام فلا تصحو، وأن تفقد الوعي، فلا تفيق. وإذا أفاقت وصحت، وجب أن يكون صحوها وإفاقتها بغير الإسلام، ولغير الإسلام!

حقائق الدين والتاريخ:

ولعمري، إن هذا كله باطل. فالأصل في أمتنا أن تصحو وتتنبه بالإسلام وللإسلام. ومن رجع إلى تراثنا وجد علماءنا يقولون: ما جاء على الأصل لا يُسأل عن علته. ذلك، لأن من شأن الأمة الإسلامية ألا يطول غيابها عن وعيها، بمقتضى طبيعة الإسلام الذي تؤمن به، والذي تستمع لقرآنه صباح مساء، والذي لا تغيب عن ذاكرتها سيرة رسوله ﷺ وسير أبطاله. طبيعة هذا الإسلام تأبى إلا أن توقظها من سبات، وتحييها من موات. فالإسلام يدعوها أبدا إلى العلم والعمل، ويرغبها في الفكر والنظر، ويحرضها على الكفاح والجهاد، ويعدها بالنصر وعلو الكلمة، ويؤكد لها أن الله مع المؤمنين، وأن العاقبة للتقوى، وأن النصر مع الحق، وأن الباطل زاهق لا محالة: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: 17]، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18].

ومن شأن هذه الأمة – وفق ما جاء به القرآن وأخبر به الرسول، وما نطق به التاريخ – ألا تجتمع على ضلالة، وأن تظل فيها طائفة ثابتة على الحق، داعية للخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

يقول الله في كتابه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181].

ويقول الرسول الكريم: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(26).

ويقول: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»(27).

ويقول: «**يحمل هذا العلم (علم النبوة) من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»(28).

ويقول التاريخ: إن هذه الأمة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى، منذ فجر تاريخها، ظن الناس معها بها الظنون، وابتلي بها المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأن تحول الهزائم إلى انتصارات، وأن تخلق من الضعف قوة، ومن

---

(26) متفق عليه: «اللؤلؤ والمرجان» (1250) عن معاوية، وقد صح الحديث عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة كما في «صحيح الجامع الصغير وزيادته».

(27) رواه أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «المعرفة» عن أبي هريرة وصححه عدد من الأئمة الثقات.

(28) روي عن وجوه متعددة عند ابن عدي وابن جرير والخطيب والدارقطني والخلال وتمام في فوائده والقاضي إسماعيل، وقواه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (1/ 163، 164)، وسئل عنه الإمام أحمد فقال: صحيح.

التفرق وحدة، ومن الأشلاء المبعثرة جسما عملاقا.

وقال التاريخ أيضا: إن هذه الصحوات الكبرى لم يصنعها غير الإسلام حين يجد من يعلي كلمته، وينادي باسمه، ويجند قوى الأمة تحت رايته.

سجل التاريخ ذلك في حروب الردة منذ عهد الخليفة الأول، يوم ارتدت قبائل العرب، وتبعوا المتنبئين الكذابين، ولم يبق على الإسلام غير المدينة ومكة.

وسجل ذلك في حروب الصليبيين في عهود عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي.

وسجل ذلك مرة أخرى في غزو التتار للعالم الإسلامي، وبعد أن دمروا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، ثم لم يلبث الإسلام أن أثبت وجوده، وانتصر على التتار عسكريا في معركة حاسمة من معارك التاريخ، قادها سيف الدين قطز، مع جنود مصر، وهي معركة «عين جالوت» في 25 رمضان سنة 658هـ، أي بعد سنتين فقط من سقوط بغداد (سنة 656هـ).

وسجل ذلك في معارك التحرير والاستقلال في الأوطان الإسلامية كافة. فقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر، وهو القائد الحقيقي، لكل معارك الجهاد، ضد الاستعمار الغازي لبلاد المسلمين.

حركات الإحياء والتجديد والدعوة وأثرها في الصحوة:

على أن هناك حقيقة يجب أن تعرف وتذكر، إذا تحدثنا عن أسباب الصحوة ومكوناتها، وهي: أن الصحوة المعاصرة التي نشهد آثارها ومظاهرها منذ أوائل السبعينيات، لم توجد من فراغ، ولا ولدت دفعة واحدة، ولا كانت «نباتا شيطانيا» ظهر وحده، بغير زارع ولا راع، كما تصور بعض الناس.

إن هـذه الصـحوة امتـداد وتجديـد لحركـات الإحيـاء، والبعـث والتجديـد الإسلامية، التي تحدثنا عنها في بحثنا هذا.

ابتداء من حركة مجدد الجزيرة العربية: محمد بن عبد الوهـاب (ت: 1206هــ، 1792م) مرورا بحركة مؤسس الدعوة السنوسية في ليبيا: محمد بن علي السنوسي (ت: 1276هـ، 1859م).

ثم بحركة الزعيم الديني الثائر المجاهد، الذي أقام حكـم الشريـعة في جنـوب وادي النيل: محمـد أحمـد المهـدي (ت: 1302هــ، 1885م)، ثـم بحركـة عـدو الاسـتعمار داعيـة «الجامعـة الإسـلامية» جمـال الـدين الأفغـاني (ت: 1314هــ، 1897م).

وكذلك معـاصره الأديـب المصلـح، عـدو الاسـتبداد: الشـيخ عبـد الـرحمن الكواكبي (ت: 1320هـ، 1802م).

ولن ينسى التاريخ تلميذ الأفغاني وصاحبه وشريكه في تحرير «العروة الـوثقى» وفي حركة الإيقاظ والتجديد، رائد الإصلاح الفكري والتعليمي، وشيخ المدرسـة الإسلامية العقلية الحديثة: الأستاذ الإمام محمد عبده (ت: 1323هـ، 1905م).

رجال كان لهم أثرهم في الصحوة لا ينساهم التاريخ:

وكل هؤلاء محسوبون على ما قبل القرن العشرين: أما القرن العشرـون، فيـذكر التاريخ رجالا كان لهم دور يذكر فيشكر[29].

يذكر منهم تلميذ الشيخ محمد عبده وصاحبه، وناشر علمـه، الـذي أخـذ مـن

---

(29) انظر: كتابنا «الصحوة الإسلامية وهمـوم الـوطن العـربي والإسـلامي» نشرـ «دار الشرـوق» بمصر، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

شيخه الاستقلال في الفكر، والثورة على الجمود والتقليد، وأضاف إليه التوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية، فجمع بين القديم والجديد، ووازن بين المعقول والمنقول، وأصبح يمثل بجلاء «السلفية المجددة»، التي تجسد الأصالة والمعاصرة بحق. ذلكم هو: العلامة السيد رشيد رضا، صاحب مجلة «المنار»، و«تفسير المنار»، والكتب التي كانت في وقتها نماذج تحتذى، ومصابيح بها يهتدى (ت: 1354هـ، 1935م).

ويذكر منهم الداعية المربي، المجاهد الصابر، الذي قاوم علمانية الكماليين، وطغيان أتاتورك، وأشعل جذوة الإيمان في قلوب الأتراك، بالتربية والقدوة، وبالكتب الرصينة، وبالرسائل الموجهة، وبالثبات على الحق في مقاومة الباطل: الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (ت: 1960م).

ويذكر منهم الرجل القرآني، والمعلم الرباني، الذي جسد بدعوته شمول الإسلام وتوازنه، وربانيته وواقعيته، فربط الفكر بالحركة، ومزج العلم بالعمل، وجمع بين التربية والجهاد، كما جمع بين نقاء العقيدة السلفية، وروحانية الصوفية السنية. ودعا إلى الإسلام عقيدة ونظاما، دينا ودولة، عبادة وقيادة، مصحفا وسيفا. وحارب الفساد والظلم في الداخل، والاستعمار والصهيونية في الخارج. وربى على الإسلام جيلا جعل الله غايته، والرسول أسوته، والقرآن شرعته، والجهاد وسيلته، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه. إنه مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في العالم: الإمام الشهيد حسن البنا (ت: 1368هـ، 1949م)، واضع أسس العمل الإسلامي الجماعي، الذي انتشرت رسائله وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه في العالم كله انتشار أنوار الفجر. وشاء الله أن تكون المحن المتتابعة التي صبت على إخوانه وتلاميذ مدرسته، سببا في هجرتهم بدعوتهم، وتفرقهم في أقطار الشرق والغرب،

فتنتشر بهم الدعوة والصحوة في كل مكان.

ويذكر منهم المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بينة. صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة «التغريب» و«أعداء السنة» والمنادين بنبوة جديدة «القاديانيين»، و«المرتزقة» من الخرافيين والقبوريين، و«مشوشي الفكر» من المقلدين الجامدين ... مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية: العلامة أبو الأعلى المودودي (ت 1399هـ، 1979م) الذي اتفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنا، وإن لم يلتقيا، وإنما التقى أبناء المدرستين، وتعاونوا في مجالات شتى، وخصوصا في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى.

ويذكر منهم العالم الداعية المربي، الذي عاش للقرآن مفسرا ومطبقا، ودعا إلى السلفية الواعية، والروحانية الصافية، وحارب الجمود في الفكر، والانحراف في العقيدة، والعوج في السلوك، ووصل العلم بالتربية، مؤسس «جمعية العلماء» في الجزائر، ومنشئ مجلة «الشهاب» التي كانت كاسمها نورا يهدي الحائرين، ورجما يرهب الشياطين، الشيخ المصلح: عبد الحميد بن باديس (ت: 1359هـ، 1940م).

ويذكر منهم الداعية الفقيه، الصابر المجاهد، صاحب الروح المشرق، والبيان المغدق، والعقل المتفتح، الذي قاوم أعداء السنة فأسكتهم، ودعاة العلمانية فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلامية في سورية، ومنشئ مجلة «حضارة الإسلام». وصاحب الكتب القيمة، والرسائل النافعة: الشيخ الدكتور/ مصطفى السباعي (ت: 1385هـ، 1965م).

ويذكر منهم الرجل الصلب، الذي أوذي في الله، فما وهن وما ضعف وما استكان، وقدم عنقه فداء لفكرته ... صاحب القلم البليغ، والأدب الرفيع، والروح المحلق، والبيان المشرق، والمنهج الواضح، والفكر الثائر ... صاحب «التصوير الفني»، و«العدالة»، و«الظلال»، و«المعالم»، وغيرها من الكتب التي انتشرت في لغات العالم الإسلامي، شرقا وغربا ... الأديب الكبير، الداعية الشهيد: سيد قطب (ت: 1386هـ، 1966م).

ومنهم الداعية الكبير، والكاتب القدير، والخطيب الأصيل، أديب الدعوة الإسلامية، ولسانها الناطق بالحق، الجاهر بالصدق، المعبر عن خلجات الجماهير، الذي قاوم الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الصليبي، كما قاوم التدين المغشوش، والفهم المعلول للإسلام، ببيانه الزاخر، وأدبه الساخر، وكتبه التي شرقت وغربت: الشيخ محمد الغزالي (ت: 1416هـ، 1996م).

ومنهم: العالم الداعية البحاثة، صاحب التآليف التي راجت بين شباب المسلمين، والتي تحمل الروح الثورية، والدعوة الجهادية، مثل «الأصول الثلاثة: الله والرسول والإسلام»، و«الأساس في التفسير» و«الأساس في السنة»: الشيخ سعيد حوى (ت: 1989م).

هؤلاء الميامين من الدعاة والمفكرين كان لكل منهم تأثيره في جانب من الجوانب، على عدد من الناس، يقل أو يكثر، وفي رقعة من الأرض، تضيق أو تتسع، وعلى مدى زمني يقصر أو يطول، وإن كان كل واحد منهم يؤخذ منه ويرد عليه، باعتبارهم بشرا غير معصومين، يجتهدون في خدمة الإسلام؛ فقد يصيبون، وقد يخطئون، وهم على كل حال مأجورون على اجتهادهم، حتى فيما أخطأوا فيه إن شاء الله.

وكان لأصحابهم وخلفائهم وخريجي مدارسهم الفكرية والحركيـة نصـيب لا يجحد في حركة البعث والإحياء الإسلامي، التي نقطف بعض ثمراتها اليوم.

نوادر البطولة والبذل والثبات:

ولا ننسى هنا نوادر البطولة، ومواقف البذل والتضحية والثبات، التـي وقفهـا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من رجال الدعوة الإسلامية، فمنهم مـن قضىـ نحبه، ومنهم من ينتظر، عرفت منهم من عرفت، فما رأيت إلا الحق، وما شـهدت إلا الصدق، وما علمت إلا الخير، مثل القاضي الفقيه الداعية عبـد القـادر عـودة، والعالم الداعية الشيخ محمد فرغلي، والمحامي الملتـزم إبـراهيم الطيـب، والجنـدي الصادق الصبور يوسف طلعـت، (الـذين شـنقهم عبـد النـاصر سـنة 1954م) والشيخ الداعية المتحمس عبد الفتاح إسماعيل، وزميلـه المجاهـد محمـد يوسـف هواش، اللذين شنقا مع سيد قطب سـنة 1966م ... وموقـف الرجـل الصـامد الشامخ: الأستاذ حسن الهضيبي (ت: 1393هـ، 1973م)، المرشد الثاني لجماعـة الإخوان المسلمين، ومواقف جماعة الشهداء الأبطال من إخوانـه وأبنائـه الأبـرار، وغيرهم ممن بذل حياته ودمه لله قرير العين.

فكانت هذه المواقف الإيمانية الفذة، غذاء ووقودا للصحوة الإسلامية.

حركات الجهاد ورجالها:

كما كانت حركات الجهاد الإسلامي في العصر الحديث مددا للصحوة لا يخفـى تأثيره على دارس. كما كان لرموز هذه الحركات الجهادية تـأثيرهم ودفعهـم، مثـل حركة الأمير عبد القادر (ت: 1336هـ، 1918م) في الجزائر، والزعيم محمد أحمد المهدي (ت: 1302هـ، 1885م) في السودان، والأمير عبد الكريم الخطـابي (ت:

1382هـ، 1963م) في المغرب، والشهيد عمر المختار (ت: 1350هـ، 1931م) في ليبيا، والشيخ عز الدين القسام (ت: 1354هـ، 1935م)، والمفتي أمين الحسيني (ت: 1394هـ، 1974م) في فلسطين.

علماء ودعاة ومفكرون كان لهم دروهم:

وإلى جوار رجال الجهاد والعمل، كان هناك رجال يعملون في ميدان الفكر والثقافة والأدب، يوقظون العقول، ويحركون المشاعر، ويصححون المفاهيم، ويقاومون الاستعمار الثقافي.

ومن هؤلاء شاعر الإسلام في الهند، الفيلسوف المفكر، الذي أيقظ بفكره العقول، وبشعره القلوب، الدكتور محمد إقبال (ت: 1357هـ، 1938م).

ومنهم أمير البيان، ومحامي الإسلام، الأديب العالم الموسوعي المؤرخ المصلح، صاحب المقالات الناصعة، والتعليقات الرائعة، والكتب النافعة، الأمير شكيب أرسلان (ت: 1366هـ، 1946م).

ومنهم أديب العربية والإسلام، الذي جعل الله من قلمه للحق سيفا يمحق به الباطل، صاحب الروائع البيانية، والمعارك الأدبية في نصرة الإسلام، ومقاومة دعاة التغريب: مصطفى صادق الرافعي (ت: 1356هـ، 1937م).

ومنهم الكاتب والباحث الموسوعي، مؤلف «دائرة معارف القرن العشرين» في عشرة مجلدات، وعدد من الكتب في فضل الإسلام وموقفه من المدنية، وفي الرد على الماديين، وقد تولى تحرير «مجلة الأزهر»نيفا وعشرين سنة: محمد فريد وجدي (ت 1954م).

ومنهم الكاتب العلامة، المؤرخ المحقق، أحد رواد الصحافة الإسلامية،

والمحامين عن التاريخ الإسلامي، وأستاذ مدرسة التمحيص والتحقيق فيه، صاحب مجلتي «الفتح» و«الزهراء»: السيد/ محب الدين الخطيب (ت: 1385هـ، 1969م).

ومنهم الكاتب العملاق، صاحب العبقريات الإسلامية، الذي سخر قلمه في سنواته الأخيرة لبيان حقائق الإسلام، وأباطيل خصومه، ومقاومة الدعوات الهدامة من الشيوعية وغيرها: عباس محمود العقاد (ت: 1383هـ، 1964م).

ومنهم: داعية النهوض الحضاري، المفكر المسلم، المتميز بعقلانيته وعمق تحليله، صاحب «الظاهرة القرآنية» و«شروط النهضة» و«سراع الأفكار» وغيرها: المفكر الجزائري مالك بن نبي (ت: 1393هـ، 1973م).

ومنهم المفكر المربي الداعية الناقد البصير، مؤلف «نظام الإسلام» وغيره من الكتب المتميزة الأصيلة: الأستاذ محمد المبارك (ت: 1981م).

ومنهم العالم الاجتماعي المرموق، الذي كشف عن فلسفة الإسلام الحق للغربيين، وصحح مفاهيمه لهم، ورد على أباطيلهم، وتبنى فلسفة «إسلامية المعرفة» ولا سيما في العلوم الاجتماعية، الأستاذ الشهيد إسماعيل الفاروقي (ت: 1986م).

ومنهم الخطيب المصقع، الذي هز أعواد المنابر، وأرعب أرباب الكراسي، صاحب الطريقة المتميزة، والبيان المتدفق، والأسلوب الساحر، الذي شدت خطبه الجماهير المسلمة في مصر، وانتشرت أشرطته في المشارق والمغارب: الشيخ عبد الحميد كشك (ت: 1996م).

ومنهم العالم الجليل، والداعية النبيل، والمفسر البارع للقرآن الكريم، وصاحب

النظرات واللفتات الرائعة، لكتاب الله، الشاعر المطبوع، والمعلوم الموهوب: الشيخ محمد متولي الشعراوي (ت: 1419هـ، 1998م).

ومنهم أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، الكاتب المبدع، والمحدث الممتع، والقاضي الفاضل، والمعلم البارع، الذي شد الناس بأحاديثه التليفزيونية والإذاعية الرائعة: الشيخ علي الطنطاوي (ت: 1420هـ، 1999م).

ومنهم: علامة الهند، ورباني الأمة، وبقية السلف، العالم العامل، والحبر الكامل، الزاهد الجاهد المجاهد، صاحب الكتب الفائقة، والرسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، الذي أجمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، والتقليديون والمعاصرون، الداعية الكبير: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت: 1420هـ، 1999م).

وهناك رجال كبار لهم دورهم وأثرهم الذي لا ينكر، مثل الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، ومثل رجل الإصلاح والدعوة، الفقيه الأصولي السيد محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، والفقيه المفسر العلامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، والشيخ العلامة الفقيه محمد أبو زهرة، والعلامة الفقيه والكاتب الشيخ محمد المدني، والشيخ العلامة الفيلسوف الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ الداعية المتصوف الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وأستاذ الفلسفة الدكتور محمد البهي، وفقيه العصر الشيخ مصطفى الزرقا، وعلامة تونس الفقيه الأصولي المفسر الشيخ الطاهر بن عاشور، ورجل الفقه والسياسة في المغرب علال الفاسي، ورجل الدعوة والربانية الأستاذ البهي الخولي، ورجل الأدب والشعر والنقد والتحقيق العلامة محمود محمد شاكر، وأساتذة الاقتصاد الاسلامي الكبار: الدكتور عيسى عبده، والدكتور محمد أبو

السعود، والدكتور أحمد عبد العزيز النجار.

وآخرون لا نستطيع حصرهم من رجال العلم، ورجال الأدب، ورجال التربية، ورجال الدعوة، ورجال الصحافة والإعلام، وخصوصا في المجالات الإسلامية، في عدد من بلاد الإسلام، وبعض خطباء المساجد المؤثرين أسهم كل منهم - بقدر يقل أو يكثر - بلسانه أو بقلمه، بقوله أو بفعله.

وقد قصرنا حديثنا هنا - عن الدعاة الكبار - على الأموات رحمهم الله، على أن في الأحياء رجالا كان لهم دور كبير في إحياء الصحوة وفي ترشيدها، بكتبهم وخطبهم وبمحاضراتهم ودروسهم وحلقاتهم، سيذكرها التاريخ في حينها.

جماعات ساهمت في الصحوة:

ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها في مجال الصحوة، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها، بالإضافة إلى أم الجماعات، وكبرى الحركات الإسلامية: حركة الإخوان المسلمين.

منها: جماعة الدعوة والتبليغ، التي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم العرب، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة، بعد شرور المعصية، وشرود الغفلة. وقد بدأت في الهند وباكستان، ثم انتشرت في العالم، ومن مؤسسيها وروادها: الشيخ محمد الياس، والشيخ محمد يوسف، وخلفاؤهما.

ومنها: الحركة السلفية، التي عنيت بتصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة، وتحريرهما من الشركيات والمبتدعات، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنة، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق، ومن روادها: الشيخ محمد حامد الفقي في مصر، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربية السعودية، والشيخ محمد ناصر

الدين الألباني في بلاد الشام، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت.

ومنها: الجمعية الشرعية، للعاملين بالكتاب والسنة، في مصر خاصة، التي كان لها دورها في إقامة السنة، ومحاربة البدعة، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجة الأكمل، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي، وخلفه ابنه الشيخ الأمين، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري، والشيخ محمود عبد الوهاب قايد.

ومنها: جماعة الجهاد التي ربت أتباعها على معاني القوة والصلابة، والخشونة إلى حد العنف، وحب البذل والتضحية، والاستشهاد في سبيل الله، ومن أشهر رجالها: العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمن، والسيد عبود الزمر.

ومنها: حزب التحرير الإسلامي، الذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية، وإعادة الخلافة الإسلامية، والذي أسسه الشيخ تقي الدين النبهاني.

وتأثير هذه الجماعات ليس متساويا. كما أن لكل منها ما لها وما عليها من ناحية فكرها، وأهدافها، ومناهجها وأساليبها، ولكن ليس هذا مقام النقد أو التقويم لها.

إنما نتحدث عن كل من أسهم في ظهور الصحوة بجهد ما. كما لا ننسى دور الجامعات الإسلامية القديمة والحديثة، كالأزهر بمصر، والزيتونة بتونس، والقرويين بالمغرب، وديوبند وندوة العلماء بالهند، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة أم القرى بمكة، وجامعة محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وكوالا لامبور، وغيرها من المؤسسات العلمية الإسلامية، التي لا يجحد أثرها وفضلها مثل «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن وفروعه، والذي قام على تأسيسه ورعايته إخوة فضلاء مثل الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور طه جابر العلواني، وإخوانهما. وهو

يعمل في مجال «أسلمة المعرفة» وخصوصا العلوم الإنسانية والاجتماعية. وله منشوراته القيمة بالعربية والإنجليزية.

من ثمار الصحوة:

وثمار الصحوة الإسلامية وآثارها دانية القطوف، ظاهرة للعيان، يشاهدها الناس، بل يلمسونها في كل مكان يوجد فيه أهل الإسلام.

التنادي بتحكيم الشريعة:

ومن هذه الثمار والآثار: التنادي بتحكيم الشريعة الإسلامية في سائر أرض الإسلام، بعد أن غلبت العلمانية في وقت من الأوقات، وأسكتت أصوات دعاة الشريعة، فصمتوا حينا حتى ظن الظانون - ظن السوء - أنهم قد اختلفوا إلى الأبد.

وقد رأينا هؤلاء في كل مكان، حتى في أول بلد طبق العلمانية بالقوة والعنف، وهو «تركيا» الحديثة، التي أنشأها أتاتورك على أنقاض «تركيا» دار الخلافة العثمانية. ولولا حماية الجيش التركي - الذي فرغ من كل عنصر إسلامي - للعلمانية المفروضة على الشعب، لرأينا تركيا راجعة إلى الإسلام، وتجلى الشعب التركي على حقيقته، التي عرفها الناس طوال التاريخ.

دولتان للإسلام:

ومن ثمرات هذه الصحوة ودلائلها الحية: قيام ثورتين إسلاميتين، أقامت كل منها دولة للإسلام، تتبناه منهجا ورسالة، في شئون الحياة كلها: عقائد وعبادات، وأخلاقا وآدابا، وتشريعا ومعاملات، وفكرا وثقافة، في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع، وعلاقات الأمة بالأمم.

أما الثورة الأولى، فهي الثورة الإسلامية في إيـران، التـي قادهـا الإمـام آيـة الله الخميني سنة 1979م، وأنهت حكم الشاه الذي بلغ في الفساد ما بلغ، والذي كـان يعتبر شرطي الغرب وحضارته في الشرق الأوسط، والذي كانت له علاقة وطيـدة بإسرائيل.

وأقام الخميني دولة الإسلام في إيران على المذهب الجعفري، وكان لهـا إيحاؤهـا وتأثيرها على الصحوة الإسلامية في العالم، وانبعاث الأمل فيها بالنصر، الذي كـان الكثيرون يعتبرونه من المستحيلات.

والثورة الثانية: هي ثورة الإنقاذ الإسلامية في السودان، سـنة 1989م أي بعـد ثورة إيران بعشر سنوات، وقد أنهت حالة الاضـطراب والفـوضى التـي أصـابت السودان بعد حكم الأحزاب، والتي كان يمكن أن يثب على الحكم فيها بعثيون أو شيوعيون، فانتهزها الإسلاميون فرصة، وقاموا بهذه الثورة البيضاء، التـي لم تـرق فيها قطرة دم واحدة، وقد أخفت الثورة وجهها الإسلامي في أول الآمر، حتـى لا تقف في طريقها كل القوى المحاربـة للإسـلام، في الـداخل والخـارج، واعتقلـت الشيخ حسن الترابي مع الزعماء الآخرين، وهو الرأس المدبر للثورة، وكان هذا مـن الحكمة التي يفرضها الواقع، ويجيزها الشرع، فالحرب خدعة.

وقد تجلت هذه المحكمة حين بدأ ينكشف القناع عن وجه الثورة الحقيقي، فإذا الذين أخذوا بالأحضان تنكروا لها، وإذا المؤامرات تكـاد لهـا، والحصـار يضرـب عليها، من العرب من حولهم، ومن الغرب عامة، والأمريكان خاصـة، ولكـن الله تعالى حفظ هذه الثورة التي دفعت الناس إلى العمل والإنتاج، ليأكلوا مما يزرعون، ويلبسوا مما يصنعون، ويعتمدوا بعد الله على أنفسهم.

أقامت ثورة الإنقاذ في السودان دولة للإسلام على المذهب السني، وعلى الفقه المنفتح للاجتهاد والتجديد، والذي يراعي ظروف الزمان والمكان والإنسان، وأخذ الدين دوره في توجيه الحياة، وصبغها بصبغته الربانية ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138]. وظهر ذلك في التربية، وفي الثقافة والإعلام، وفي التشريع والدستور، وفي الدفاع والجهاد، كما في جيش الدفاع الشعبي، وغيره من مؤسسات الدولة.

إحياء الجهاد في سبيل الله:

ومن هذه الثمار: الاستجابة لدعوات الجهاد في سبيل الله والمقاومة للغزاة الطغاة لأرض الإسلام، كما رأينا ذلك في «الجهاد الأفغاني» المجيد، الذي وقف يقاتل أعتي قوة إلحادية في الأرض - قوة الاتحاد السوفيتي الشيوعي - بل في التاريخ، بإمكاناته المحدودة، وأسلحته الضئيلة، قبل أن تفكر الولايات المتحدة في نصرة هذا الجهاد، ومحاولة استغلاله لصالحها. ولكن المؤكد أن الأفغانيين كانوا يقاتلون من أجل أفغانستان، وإسلام أفغانستان، وكرامة أفغانستان، لا من أجل الأمريكان، وأطماع الأمريكان، والمسلمون الذين انضموا إليهم من أنحاء العالم وجدوها فرصة ليحصلوا إحدى الحسنيين: إما النصر على الملاحدة الكفار الغزاة، وإما الشهادة والجنة.

وقد حقق الإخوة المجاهدون الأفغان النصر المبين على أعدائهم الروس، وكانوا من أبرز الأسباب في إضعاف الاتحاد السوفيتي، ثم انهياره من قريب.

ومثل ذلك: قيام «الانتفاضة الفلسطينية» وثورة «أطفال الحجارة» التي سميت في أول أمرها «ثورة المساجد» التي ما انطلقت من مساجد غزة، وجعلت راياتها

المصاحف، وشعارها «اللَّه أكبر» ونشيدها: خيبر خيبر، يا يهود، جيش محمد سوف يعود!

ثم قيام حركة المقاومة الإسلامية «حماس» وحركة «الجهاد الإسلامي» في فلسطين، وقيام كل منهما بالأعمال البطولية والاستشهادية، في القدس وفي تل أبيب، وفي غيرهما، تلك التي أرعبت أعداء اللَّه المغتصبين، وأقضت مضاجعهم في إسرائيل، فسعوا هنا وهناك لعقد المؤتمرات لمحاربة ما سموه «الإرهاب» وإسرائيل هي «الإرهابي الأكبر» الذي أقام دولته على سفك الدم، والمجازر البشرية التي روعت الآمنين، وأجبرت السكان المدنيين على الخروج من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا اللَّه.

ومثل ذلك: ما يقوم به جنود «حزب اللَّه» البواسل في جنوب لبنان من عمليات فدائية، زلزلت قلوب الإسرائيليين، وحيرتهم ماذا يفعلون، فلم يجدوا إلا ضرب المدنيين العزل في «قانا» وفي غيرها. كما ضربوا محطات الكهرباء والبنية التحتية أخيرا في بيروت(30).

وكل ذلك يدلنا على أن الإيمان هو مصدر قوتنا، وأن الاعتصام بالإسلام هو الملاذ الأمين، والحصن الحصين، الذي لا يخشى على أمتنا أبدا إذا لاذت به وأوت إليه ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101].

وآخر أنباء الجهاد، ومعاركه، التي فجرتها الصحوة الإسلامية في هذا القرن: معركة الجهاد في «جمهورية الشيشان» إحدى جمهوريات روسيا، التي أرادت

---

(30) وقد أثمرت هذه المقاومة أخيرا: انسحاب اسرائيل من جنوب لبنان، وهو درس ثمين لليائسين والمثبطين في فلسطين.

الاستقلال عن الروس، فهي تراهم غرباء عنها، كما هي غريبة عنهم، فهي ليست من الوطن الروسي، وشعبها ليس من الجنس السلافي، ولغتها الأصلية ليست هي الروسية، ودينها ليس هو المسيحية الأرثوذكسية، وقد قاتلت من أجل هذا الاستقلال منذ نحو أربع سنوات ودخلت مع روسيا في حرب شرسة ضروس، أصاب الشيشان فيها ما أصابهم من قرح في رجالهم، ومن دمار لبلادهم، ولكنهم في النهاية قهروا الروس، وردوهم عن دارهم مدحورين، لم ينالوا خيرا، ولم يحققوا هدفا.

ثم ها هم اليوم يعيدون الكرة من جديد، يردون الحرب جذعة مرة أخرى، ويجندون نحو مائة ألف جندي روسي، مجهزين بأحدث الآلات الجهنمية وأقواها، وأقدرها على التدمير والإبادة، ولكن الشيشانيين الأشاوس، لم يستسلموا، وثبتوا ثبات الجبال، وقاموا مقاومة الأبطال، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، وقد كبدوا القوات الروسية الغازية، خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، ولا تزال المعركة مستمرة، على أشدها، وأنا أكتب هذه السطور في الرابع والعشرين من شهر يناير 2000م.

رجعة الشباب إلى الدين:

ومن أحلى ثمرات الصحوة وأجلاها: رجعة الشباب إلى الدين، بعد أن كاد يذوب ويضيع في بعض مراحل هذا القرن، حين بهرته الحضارة الوافدة، وغره السراب الذي ظنه ماء، فطفق يقلد أبناء هذه الحضارة تقليد القردة، ويأخذ عنهم أخذا أعمى، بلا تمييز ولا انتقاء. حتى وجدنا من الشباب من يلبس لبسة النساء، ومن يتشبه في حركاته ومشيته بالنساء، متجاهلا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، كما لعن المتشبهات من النساء بالرجال.

وكتب الشاعر المعروف محمود غنيم قصيدته التي يرثي فيها حال الشباب الجديد، وقال فيها:

شباب العرب يا زين الشباب ... ويا أشبال آساد غضاب
أرى منكم فريقا حين يمشي ... يحك بأنفه منن السحاب
كليث الغاب في صلف وكبر ... وليس لدى الكريهة ليث غاب
تفنن في محاكاة العذارى ... وخالفهن في لبس النقاب
ولا يخشى على شيء، ويخشى ... إذا ثار الغبار على الثياب

وسخر الرافعي الأديب من هذا الشباب فقال عنه: إنه إذا سخر من العدو بنكتة فكأنها هزمه في معركة!

هذه هي صورة شباب الأمة في تلك المرحلة، مرحلة الانبهار بالحضارة الغازية: بأفكارها وتقاليدها وسلوكياتها.

وليته أخذ من الحضارة خير ما فيها: العلم والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والعمل الدءوب لكسب العيش، وخدمة المجتمع. بل أخذ منها شر ما فيها: التحلل الأخلاقي، والانحراف السلوكي، والإباحية الجنسية.

هجر هؤلاء الشباب المساجد، وعمروا الملاهي والسينمات، وتخلوا عن أفضل أخلاقياتنا الموروثة، التي أمر بها الدين، والتزم بها المجتمع: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، وتوقير الكبار، ورحمة الصغار، ومساعدة الضعفاء، ومعاونة الفقراء، وإغاثة الملهوفين، وتفريج كربة المكروبين ... تركوا هذه الفضائل وعاشوا لأنفسهم، أعني للذاتهم، لا لربهم، ولا لوطنهم، ولا لأمتهم، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

لقد رأيت في صباي الذين يعمرون المساجد، ويحافظون على الصلوات، فكان أكثرهم من الكهول والشيوخ، وأقل القليل من الشباب.

واليوم – في عصر الصحوة الإسلامية – أرى الأمر بالعكس تماما، فالشباب هم العمود الفقري للصحوة، هم الذين يعمرون المساجد، ويملأون مواسم الحج والعمرة، وهم الذين يقرأون الكتاب الإسلامي، والمجلات الإسلامية، وهم الذين يتجاوبون مع صيحات الجهاد الإسلامي، في كل أرض إسلامية، فينطلق كل منهم كالشهاب الثاقب، واضعا رأسه على كفه، في سبيل اللّٰه، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

ولا سيما الشباب المتعلم، شباب الثانويات والمعاهد والجامعات، فهم الذين يكتسحون في الانتخابات الجامعية، ويحصلون بسهولة على الأغلبية، ويكونون اتحادات الطلاب، رغم ما كان يوضع في سبيلهم من عقبات، وما يحك لهم من مكايدات، ما دامت الانتخابات تجري بحرية ونزاهة.

وهم الذين يكتسحون أندية هيئات التدريس في الجامعات.

وهم الذين ينالون الأغلبية الساحقة، وأحيانا كل الأصوات، أي يحصلون على الإجماع من جماهير النقابات المهنية، كنقابات الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وغيرهم.

ولا غرو، فالشباب دائما هم عصب الدعوات، وحملة الرسالات، وكما قال الإمام حسن البنا[31]: إنما تنجح الفكرة إذا قوى الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل

(31) في رسالته «إلى الشباب».

لتحقيقها. وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل، من خصائص الشباب؛ لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب، ومنهناكان الشباب قديما وحديثا، في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

عودة المرأة المسلمة إلى الحجاب:

ومن المكاسب التي تحققت خلال الربع الأخير من هذا القرن، وتعتبر من ثمار الصحوة الإسلامية: عودة المرأة المسلمة في أكثر البلاد الإسلامية إلى «الحجاب» طواعية واختيارا، دون أن يفرض ذلك عليها من أب أو زوج أو سلطان.

بل كثيرا ما كان الأب يمانع، والزوج يعارض، والسلطان ينكر، ولكن أبت الفتاة المسلمة إلا أن تطيع ربها، وتعمل بواجب دينها، غير مبالية برفض الرافضين، وإنكار المنكرين، فهذه حركة إسلامية نسائية طوعية بلا نزاع.

ولا زالت أذكر أني كنت فترة من الزمن أمر في بعض العواصم العربية، فلا أكاد أجد امرأة تلبس الحجاب، وإن كانت عجوزا شمطاء، فقد هزم المسلمون أمام الحضارة الغربية في عدة ميادين، منها ميدان الإعلام، وميدان الاقتصاد، وميدان المرأة.

والحمد لله رأينا الإسلام يستعيد رايته التي سقطت في الميدانين الأخيرين: المرأة والاقتصاد إلى حد بعيد، ولكنه لم يستعد موقعه بالنسبة إلى ميدان الإعلام إلى اليوم، وإن كسب شيئا قليلا، لا يكون توجها أساسيا، ولا ثقلا ثقافيا إلى اليوم.

منذ عهد قاسم أمين وهدى شعراوي في مصر، والمرأة تبتعد عن الإسلام فكـرا وسلوكا، وتقترب من الحضارة الغربية نظريا وعمليا، حتـى ارتمـت في أحضـانها نهائيا، وسارت وراء أفكارها وتقاليدها، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وفي وقت مـن الأوقات اندفعت نساء بعض الأقطار الإسلامية وراء الغـرب أكثـر مـن النسـاء الغربيات أنفسهن، وانسلخن من جلدتهن، وخلعـن جلبـاب الحيـاء المـوروث، والمستقي من الدين والأعراف.

وقد ساعد على هذا الغلو في التحلل من قيم الدين والتقاليد: غلـو بعـض مـن يمثلون الدين في التضييق على المرأة، واعتبارها حبيسة البيت، ومنعها من التعلـيم ومن العمل، ومن الخروج من البيت لحاجاتها، وإجبارها على الـزواج بمـن يريـد الأب وإن لم ترده. فكان رد الفعل هو التحرر مـن هـذا كلـه، والسـير وراء دعـاة التفرنج والتحرر، بلا ضابط ولا رابط.

ولما برز تيار الصحوة الإسلامية المعاصرة، وقد كان تيار الوسطية الإسلامية هو الأعلى صوتا في الصحوة، والأقوى نفـوذا، والأرسـخ قـدما، والأوسـع قاعـدة، تجاوب معه شباب الإسلام من الجنسين، فكرا وحماسا والتزاما وتطبيقـا لأحكـام الإسلام. فكان الالتزام بالحجاب هو التعبير العملي عن هذا الالتزام، الذي تتميز به المسلمة الملتزمة عن غير الملتزمة.

وانتشر هذا الحجاب انتشارا هائلا في وسـط المـدارس والمعاهـد والجامعـات، وأصبح بعضهن يقلد بعضا، ويتنافسن في الخيرات، حتى غدا هو الزي الغالـب في بعض البلاد، بعد أن كان نادرا، أو شاذا أو معدوما.

بروز الاقتصاد الإسلامي فكرا وتطبيقا:

ومن ثمار الصحوة الإسلامية، التي لا يخطئها الدارس لمسيرة الأمة في هذا القرن: بروز ظاهرة «الاقتصاد الإسلامي» نظريا وتطبيقيا.

لقد كان هذا الاقتصاد غائبا من الناحية النظرية عن الكاتبين في الفكر الاقتصادي، وفي التاريخ الاقتصادي، وقد لمست هذا بنفسي عندما كنت أبحث في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات حول الزكاة، وكنت أقرأ في كتب الاقتصاد السياسي، وقد كانوا يتحدثون عن الاقتصاد عند الرومان قديما، وعند اليونان، وعند الفرس والهنود، وغيرهم، ولكنهم لا يذكرون ما كان عند العرب والمسلمين، الذين سادت حضارتهم نحو عشرة قرون، وكان لهم نظرياتهم وأحكامهم التي تنظم شؤون المال والاقتصاد، وكان لهم مراجعهم ومؤسساتهم.

ثم لم تمض مدة طويلة، حتى بدأت دورة جديدة ظهر فيها الاقتصاد الإسلامي بقوة، على المستوى النظري وعلى المستوى العملي.

في منتصف السبعينات 1976م عقد المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، وشارك فيه نحو ثلاثمائة من رجال الاقتصاد ورجال المحاسبة والإدارة من جانب، ورجال الشريعة والفقه الإسلامي من جانب آخر.

وقد شاركت في هذا المؤتمر، وكان مما شهدته ولمسته: أن كثيرا من رجال الاقتصاد كانوا أشد حماسا للأفكار الإسلامية من كثير من رجال الشريعة.

وقد أسر إلي الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي بملاحظة مهمة، وهو أنه شهد منذ نحو عدة سنوات مؤتمرا في ماليزيا انقسم فيه المشاركون إلى فريقين، فريق يحرم الفائدة تحريما باتا، وآخر يحاول تبريرها بوجه وآخر، وأما هذا

المؤتمر فقد كان كله فريقا واحدا، مجمعا على تحريم الفوائد، واعتبارها هي الربا المحظور شرعا.

وكان مما قدم في هذا المؤتمر: قائمة ببلوجرافية أعدها الأستاذ الدكتور محمد نجاة الله الصديقي أستاذ الاقتصاد في كلية التجارة بجامعة الملك عبد العزيز، تتضمن القائمة الكتب والبحوث التي كتبت بالعربية والأوردية والإنجليزية، فكانت عدة مئات.

وهذه القائمة قد تضاعفت بعد ذلك ولا شك، وقد أضيف إليها كتب وبحوث جمة، ليس من السهل حصرها، منها رسائل وأطروحات علمية «أكاديمية» للماجستير والدكتوراه في كلسات الشريعة والاقتصاد والتجارة والحقوق وغيرها، في عدد من البلاد العربية والإسلامية.

كما أنشئت أقسام علمية للاقتصاد الإسلامي في عدد من الجامعات.

وأسست كذلك مراكز لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، أشهرها «مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي» بجامعة الملك عبد العزيز بجده، وفيه عدد من الباحثين الأكفاء، مثل الأساتذة: محمد عمر زبير، وأنس الزرقا، ورفيق المصري وإخوانهم.

وكذلك «معهد البحوث والتدريب» في البنك الإسلامي للتنمية، وهو بنك الأمة الإسلامية الذي يقوم بدور مهم في تمويل مشروعات ضرورية ونافعة في كثير من البلدان والأقليات الإسلامية.

وصدرت أكثر من مجلة تتحدث عن الاقتصاد الإسلامي، منها مجلة «الاقتصاد الإسلامي» التي تصدر عن بنك دبي الإسلامي، ومجلة «النور» التي يصدرها بيت التمويل الكويتي.

وعلى المستوى العلمي والتطبيقي، وظهر أول بنك إسلامي تجاري في دبي من دولة الإمارات العربية المتحدة أوائل السبعينات من القرن العشرين، ثم قامت بنوك إسلامية أخرى، مثل بنك فيصل الإسلامي المصري، وبنك فيصل الإسلامي السوداني، وبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، ثم مصرف قطر الإسلامي، وبنك البحرين الإسلامي، وبنوك البركة الإسلامية، ومصرف فيصل الإسلامي بالبحرين، ثم توالى إنشاء البنوك الإسلامية في بلاد شتى عربية وإسلامية. مثل البنك الإسلامي في ماليزيا، وشركة الراجحي للاستثمار في المملكة السعودية، ومصرف أبو ظبي الإسلامي، وقد تزايد عدد البنوك الإسلامية حتى وصل إلى أكثر من مائة مصرف.

وقد قامت مؤسسة مهمة للإشراف على البنوك الإسلامية، هي الهيئة العامة للمحاسبة المالية للمصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، وكان اسمها قبل ذلك «مجلس المعايير» وهي هيئة تعمل على إصدار معايير تحتكم إليها المصارف الإسلامية، وقد صدرت منها عدة معايير ذات أهمية بالغة، مثل معيار الإفصاح، ومعيار المرابحة.

وقد أنشأت هيئة المحاسبة مجلسا شرعيا، يعتبر بمثابة هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعية للمصارف الإسلامية.

وأنا أذكر هنا كيف مر الفكر الإسلامي في قضية «الربا» باعتبارها حجر الزاوية في المجال الاقتصادي، ففي وقت من الأوقات كان هناك من يريد أن نقبل الربا، كما نقبل الخمر والمسكرات، بل الزنى نفسه، وأن المدنية الحديثة، تفرض علينا أن نأخذها بخيرها وشرها، وما يحمد منها وما يعاب، وحتى قال بعضهم: لماذا نغلق أبواب البغاء؟ ولماذا لا نفتحه لمن يريده تحت إشراف الدولة؟ يريد أن تعمل الدولة

قوادة للزناة والفاجرين!

ثم ارتقى الفكر إلى مرحلة أفضل من هذه، ولم تكن هي المرحلة المقبولة، وهو أنه أراد أن يفرق بين أنواع الربا بعضه وبعض، وأن الربا المحرم إنما هو ربا الاستهلاك لا ربا الإنتاج والتجارة، وأن الربا الحالي ليس هو ربا الجاهلية الذي جاء القرآن بتحريمه.

ومنهم من قال: الربا المحرم هو ما كان أضعافا مضاعفة. وليس 10٪ نحوها.

ومنهم من زعم أن الربا حرام، ولكننا في حالة ضرورة، وهي ضرورة عامة للمسلمين جميعا، والضرورات تبيح المحظورات.

وكلها محاولات «تبريرية» لتحليل الحرام، وإباحة المحظور، الذي آذن القرآن مرتكبيه بحرب من الله ورسوله، والذي لعن رسول الله ﷺ آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه.

ثم جاءت مرحلة أقوى من هذه المرحلة، وهي الرد القوي على المدرسة التبريرية، وتفنيد شبهاتها، وإعلان حرمة الربا بصراحة، وبيان أن على المسلمين أن يتحرروا من رجس الربا، ومن لعنة الله لمقترفيه، وذلك بأن يقيموا «بنوكا بلا فائدة» وأن هذا ممكن إذا تعاون المخلصون من علماء الاقتصاد وعلماء الشرع وأصحاب رءوس الأموال.

ثم كانت المرحلة الأهم، وهي مرحلة إيجاد «البديل الشرعي» فنشأ أول بنك إسلامي في دبي، تبعته بنوك في آسيا، وأفريقيا، وفي أمريكا وأوربا.

ونحن الآن في مرحلة «تحسين البدائل» وتطويرها إلى ما هو أفضل، ومن سار على الدرب وصل، ولكل مجتهد نصيب.

بل أقول: إن هناك في داخل حركة «المصارف الإسلامية» اتجاهات ودراسات ناقدة تحاول أن ترتقي بهذه المصارف نوعا وكيفا، بعد أن قويت وتكاثرت عددا وكما. وذلك بالخروج من دائرة النظام الرأسمالي القائم، والذي يتحكم في اقتصاد العالم، والذي لا تزال البنوك الإسلامية تعمل في إطاره، بمعنى أنها تحاول أن توجد لكل عملية تجري في البنوك الربوية، بديلا شرعيا لها، عن طريق مخارج فقهية، بتغيير بعض الصور أو وضع بعض الشروط أو القيود، أو نحو ذلك مما قد يغير الشكل نوعًا ما، وإن بقي الجوهر كما هو.

وأبرز مثل لذلك هو «بيع المرابحة للآمر بالشراء» الذي تجريه المصارف الإسلامية، وهو بديل شرعي للتمويل الربوي الصريح، وهو لا شك مباح، وقد ألفت كتابا في الدفاع عن شرعيته، ولكني مع هذا حذرت البنوك الإسلامية أن تظل «سجينة المرابحة»، فإنها في هذه الحالة تعيش في كنف الاقتصاد الرأسمالي، ولا تقدم نموذجا آخر متميزا في جوهره ومضمونه.

وأذكر هنا ما قاله صديقنا العالم الجليل الشيخ صالح الحصين نائب رئيس الهيئة الشرعية لشركة الراجحي للصرافة والاستثمار، حين علق على استغراق بعض البنوك الإسلامية في عملية المرابحة، حتى إن بعضها لتبلغ فيه 90٪ أو أكثر من معاملات البنك، قال: إن كان هذا هو أكبر هم البنوك الإسلامية ومحور عملها، وغاية سعيها، فما أجدرنا أن نتمثل بقول الشاعر:

إن كان منزلتي في الحب ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي!

وأذكر هنا أن أحد البنوك الإسلامية، وهو «بنك التقوى» لم يدخل في بيع المرابحة قط، كما لم يدخل سوق السلع والمعادن الدولية، لما يحيط بها من شبهات الشكلية والصورية.

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن كثيرا من المصارف الإسلامية لا يطبق كل الشروط التي تفرضها وتلزم بها هيئات الرقابة الشرعية في بيع المرابحة ازداد الطين بلة.

وآفة المصارف الإسلامية أنها ابتليت منذ إنشائها وإلى اليوم بقيادات جاءتها من البنوك الربوية، ولا تملك خلفية ثقافية إسلامية، ولا حتى إيمانا برسالة الإسلام الاقتصادية، وملئوا المصارف بأتباع لهم على شاكلتهم، فهو يخربون المصارف الإسلامية من داخلها للأسف، بسوء فهمهم، وسوء تطبيقهم، وربما بسوء نيتهم.

والواجب على المصاريف الإسلامية أن تعمل بالتضامن فيما بينها على تطور نفسها، والدخول في مجال التنمية والاستثمار والتجارة المباشرة، والتعامل مع الأسواق، لا مع الأوراق، وأن يقوم ذلك كله على دراسات علمية موضوعية، وعلى تخطيط واع سليم، ثم يكون العزم والتوكل على الله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3].

وعلى المصارف الإسلامية واجب آخر، وهو العناية بالعنصر البشري فيها، ابتداء من حسن الاختيار وفق معايير إسلامية وعلمية، وهو اختيار «القوي الأمين» أو «الحفيظ العليم» الذي يجمع بين الجانب المتعلق بالكفاية والخبرة، والجانب المتعلق بالدين والأخلاق وخشية الله تعالى.

ثم على المصارف الإسلامية أن توالي هؤلاء الموظفين بحسن الرعاية والتدريب والتذكير، حتى يظلوا شاعرين بأنهم يقومون على ثغرة من ثغرات الإسلام، وأنهم يتعبدون لله تعالى بعملهم، ويجاهدون في ميدان خطير هو ميدان الاقتصاد.

ولا صلاح للمصارف الإسلامية ما لم تصلح قيادتها وموظفوها.

* * *

إخفاقات الأمة
خلال القرن العشرين

- ضياع الخلافة الناظمة لعقد الأمة.
- هزيمتنا أمام المشروع الصهيوني.
- إخفاقنا في مسيرة التقدم والتنمية.
- إخفاقنا في التحرير من التبعية للغرب.
- إخفاقنا في مجال الشورى والحريات.
- إخفاقنا في توحيد الأمة.
- إخفاقنا في تحقيق العدالة الاجتماعية.
- إخفاقنا في مجال قضايا المرأة.
- إخفاقنا في التربية الإيمانية والأخلاقية للأمة.

* * *

إخفاقات الأمة خلال القرن

الناظر في إنجازات أمتنا الكبرى خلال القرن العشرين، يجدها محدودة نسبيًا، على خلاف ما يتوقع من أمة في حجمها ووزنها وتاريخها وإمكاناتها المادية والروحية والحضارية.

أما إخفاقات الأمة، فهي كثيرة جدًا من ناحية الكم، وقوية من ناحية الكيف أيضًا، بحيث لو قورنت بالإنجازات لتجلى ذلك واضحا للعيان.

ولا ريب أن لذلك أسبابًا داخلية وخارجية، وإن كان أنصار «التفسير التآمري» للتاريخ وللأحداث يركزون دائمًا على الأسباب الخارجية. وأنا لا أنكرها تمامًا، فنحن نراها أحيانًا رأى العين، ولكني أركز على الأسباب الداخلية، فهي الأساس، وهي التي مهدت السبيل للأسباب الخارجية، فلو كان لدى الأمة مناعة آتية من إيمانها ووعيها وضميرها، ما استطاع العدو الخارجي أن يخترق أسوارها، وأن يتسلل إلى قلبها، وأن يحرف مسيرتها.

والقرآن الكريم يدعونا – عند وقوع الهزائم والمآسي – إلى النظر في داخلنا أولًا، كما قال تعالى بعد «غزوة أحد»، وما وقع فيها من انكسار للمسلمين، فقدوا فيه سبعين من خيرة رجالهم، بعد انتصارهم في «غزوة بدر» وقتلهم لسبعين من أئمة الكفر، ورءوس الضلال، وأسرهم لسبعين آخرين فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: 165].

وعلى أية حال أيا كانت الأسباب، داخلية أم خارجية، يجب أن نعترف بإخفاقاتنا، وهي بلا شك أكثر من نجاحاتنا، فلنذكرها هنا أو – على الأقل –

أبرزها والمتفق عليه منها.

❋ ❋ ❋

ضياع الخلافة

1 – أول هذه الإخفاقات الكبرى، هو «ضياع الخلافة» تلك القلعة التاريخية التي استظل بها المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ثم فرطوا فيها، واستسلموا لمن خططوا لهدمها حتى هدمت بالفعل.

والغريب أن يتم هدمها على يد رجل كان المسلمون يتخيلون أنه يعمل لنصرة الإسلام، وهو أتاتورك، الذي كان المسلمون يسمونه «الغازي مصطفى كمال» وكانوا يتابعون معاركه بنبضات قلوبهم، ودفقات مشاعرهم، ويهللون ويكبرون كلما انتصر في موقعة، حتى أنشأ شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ قصيدة خاطبه فيها بقوله:

اللَّه أكبر، كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب!

ثم ما لبثوا أن فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، وإذا بالرجل الذي أكنوا له الحب، وأخلصوا في الدعاء له أن ينصره اللَّه، وينصر به الإسلام، يتنكر للإسلام في صراحة، ويعلن العداوة له جهرة، ويلغي الخلافة علانية، إلغاء صدم الأمة كلها في مشاعرها وعقائدها، وصميم دينها، في الوقت الذي كانوا يتوقعون منه أن يوطد أركان الخلافة، ويثبت دعائمها المادية والأدبية، فإذا هو يأتي عليها من القواعد. وقد عبر شوقي عن هذه الصدمة أو الكارثة بحائيته الرائعة فقال:

عادت أغاني العرس رجع نواح ... ونعيت بين معالم الأفراح

كفنت في يوم الزفاف بثوبه ... ودفنت عند تبلج الإصباح

وقد كانت لهذه الكارثة آثار غائرة في نفوس المسلمين في المشارق والمغارب، وارتفعت صيحات وعقدت مؤتمرات، لنقل الخلافة إلى بلد آخر، حتى لا يبقى

المسلمون بلا خليفة ولا إمام، يبايعونه، يقود أمتهم، ويجسد وحدتهم، فيموتوا ميتة الجاهلية، كما جاء في الحديث الصحيح، ولكن المؤامرة كانت أكبر منهم، والجرح كان من العمق والغور بحيث لا تداويه صيحات ولا مؤتمرات.

لقد كان المصلحون والمجددون الإسلاميون المعنيون بأمر الأمة، ونهضتها، وعلاج الخلل فيها، يعملون على إصلاح الخلافة من داخلها، والإبقاء عليها ممثلة لوحدة أمة الإسلام.

وكان من هؤلاء العلامة محمد رشيد رضا وعدد من كبار الدعاة.

ولكن جماعة «الاتحاد والترقي» في تركيا وهم قوميون طورانيون علمانيون تغريبيون متعصبون، كانوا قد عقدوا العزم على أن يسيروا في طريقهم إلى النهاية، وكانوا قد أساءوا العلاقة مع العرب، وأوقعوا عليهم ظلما مبينا، كما فعل جمال باشا في الشام.

وكان يهود «الدونما» قد تغلغلوا فيهم، وأثروا تأثيرا بليغا في مسيرتهم، وكادوا لقلب الخلافة كيدا عظيما.

ومما زاد النار اشتعالا: انضمام العرب إلى الإنجليز في الحرب العالمية الأولى ليحاربوا معهم الأتراك، في مقابل وعود لم يوفوا بها.

وليس صحيحا ما يقوله كثير من القوميين العرب: إن الأتراك كانوا محتلين مستعمرين، ويعبر بعضهم عن فترة الخلافة بفترة «الاستعمار التركي» فهذا في الواقع تزييف للتاريخ، وافتئات على أمتهم التي لم تكن تنظر إلى الأمر يوما هذه النظرة، ولم تر نفسها إلا أنها جزء من «دار الإسلام» وقد وصل بعض العرب يوما إلى منصب الصدر الأعظم.

فقد كان الأتراك حكاما مسلمين، حموا بيضة الإسلام لعدة قرون، ونشروه في عدد من الأقطار وطرقوا أبواب فينا أكثر من مرة. كان هذا بعد سقوط دولة الإسلام والعرب في الأندلس. فكان ظهور الأتراك «قوة غالبة» في ذلك الوقت، تغزو أوربا من الشرق، تعويضا عن انسحاب الإسلام من جنوب أوربا. وقد أدرك الغرب في فترة نهوضه ومده الاستعماري، خطر هذه الدولة الإسلامية الكبرى، فاتفقوا - رغم اختلافهم - على إضعافها والكيد لها، وما زالوا يتربصون بها الدوائر، حتى وهنت بعد قوة، وسقمت بعد صحة، وشاخت بعد شباب، وسموها «الرجل المريض» وكانوا يرتقبون أن يموت هذا المريض حتى يقتسموا تركته، وقد فعلوا بعد الحرب العالمية الثانية، بل في أثنائها، بل قبلها.

وكان للصهيونية العالمية دورها في تهديم هذه القلعة التي كانت - على ما بها من مآخذ ونقاط ضعف - تمثل آخر تجمع للمسلمين تحت راية التوحيد والعقيدة الإسلامية.

ومنذ سقطت هذه القلعة، توزع المسلمون وانقسموا تحت رايات جديدة شتى، قومية ووطنية، وقامت دول قطرية صغيرة، بعضها لا يكاد يرى على خريطة العالم، وكثيرا ما أداهم ضعف كيانهم إلى الاستعانة بأعداء دينهم، وخصوم أمتهم.

لقد كان سقوط الخلافة من الكوارث التاريخية، التي لم تبتل الأمة بمثلها طوال تاريخها، على ما فيه من مصائب ومآس.

***

هزيمتنا أمام المشروع الصهيوني

2 – وثاني الإخفاقات – وهي ثمرة لإخفاق الأول – هزيمة الأمة أمام الصهيونية، التي استطاعت – بفضل تفككنا ووهنا – أن تحقق حلمها الكبير بإقامة دولة بني صهيون في قلب ديارنا. وقامت «إسرائيل» التي ظللنا عدة سنوات نقول عنها في صحفنا وإذاعاتنا «إسرائل المزعومة». ثم استحيينا من أنفسنا بعد مدة غير طويلة، حيث أصبحت هذه الدويلة الوليدة «المزعومة» تتحدانا على كل الجهات، فتصفع وتركل، ولا نملك نحن إلا الشجب والشكوى إلى مجلس الأمن، فلا غرو أن حذفنا كلمة «المزعومة» بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين!

وعرض علينا تقسيم فلسطين في أول الأمر بيننا وبين اليهود فرفضنا، ثم تمنينا بعد ذلك لو كنا قبلنا.

كنا في أول الأمر نقول: إسرائيل كيان عدواني دخيل، اغتصب أرضًا ليست له، واحتل وطنا ليس له فيه حق، ولا بد لهذا المغتصب أن يرحل، ولا بد لهذا العدوان أن يزول. ثم لم نلبث تحت ضربات «إسرائيل» وخصوصًا ضربة 5/ 6/ 1967 وهزائمنا المتتالية: أن غيرنا سياستنا، وغيرنا هدفنا، ورضينا بإسرائيل دولة، وغدا الهدف المعلن لنا هو إزالة آثار العدوان. يعنون عدوان 1967، أي أن عدوان 1967 أضفى الشرعية على عدوان 1948. وهو العدوان الذي مكن دولة الاغتصاب من احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة والقدس، وأمسى المسجد الأقصى في قبضة إسرائيل.

ما الـذي مكـن لإسرائيـل كـل هـذا التمكـين؟ وهيـأ لأبنـاء صـهيون هـذه الانتصارات الكبيرة على أمة العرب، وهم اليوم قريب من ثلث مليار من النفوس، ووراءهم أكثر من مليار من مسلمي العالم؟

سر ذلـك واضـح للعيـان: أنهـم دخلـوا المعركـة «يهـودا» ولم نـدخلها نحـن «مسلمين». استندوا إلى التوراة، ولم نستند إلى القـرآن، قـالوا: موسـى، ولم نقـل: محمد. عظموا السبت، ولم نعظم الجمعة، قالوا: الهيكل، ولم نقل: الأقصى، أدخلوا الدين في المعركة، ونحن عزلنا الدين عن المعركة، فكسبوا بتوظيف الدين، وخسرنا بإبعاد الدين. حتى الحكام العلمانيون في إسرائيل مثل ابن غوريون، وجولدا مائير لا يستغنون عن توظيف الدين في معركتهم، حتى قال ابن غوريون كلمته الشـهيرة: إن اليهود لم يحافظوا على السبت، ولكن السبت هو الذي حافظ على اليهود!

يريد أن الاستمساك بالشعائر الدينية والثبات عليها هو الذي حفظ الشخصـية اليهودية طوال التاريخ، فلم تزل، أو تذب في غيرها.

ويوم اعتصمنا بالدين، برزت قوتنا ماثلة للعيان، كما في الانتفاضة الفلسطينية، التي سموها أولًا «ثورة المساجد» والتي أقضـت مضـجع الإسرائيليـين، وكـما في مقاومة «حزب الله» في جنوب لبنان، وكما في معركة «العاشر مـن رمضـان» التـي هبت فيها على جنود مصر نفحات رمضان، ودخلـوا المعركـة صـائمين، رافعـين شعار «الله أكبر» فقد حققنا انتصارا لم نعهده من قبل.

ورغم انتصارنا الجزئي المشرـف عـلى بنـي صـهيون في العـاشر مـن رمضـان 1393هـ السادس من أكتوبر 1973م وعبورنا القناة، وتحطيمنـا أسـطورة القـوة التي لا تقهر، لم نستفيد من هذا النصر كما ينبغي، بل بدأنا نطلب السلام مع العدو

الغاصب، ورحبت إسرائيل بأول سلام تعقده مع أكبر دولة عربية، وأعظم قوة عربية، وهي مصر، وقبلت أن تنسحب من سيناء، لتخرج مصر من المعركة، وتكسب حيادها إذا ضربت إخوتها وأشقاءها، وكانت ضربة معلم حقا.

على أن مصر لم تستعد سيناء استعادة كاملة، فهي لا تزال منزوعة السلاح، هي سياسيا مع مصر، وعسكريا ليست معها.

وقاطع العرب مصر، وقالوا عنها ما قالوا، ثم انتهوا إلى أسوا مما وصلت إليه مصر، تحت عنوان ما سمي بمسيرة «السلام» بدءا بـ «أوسلو» ثم بـ «واي ريفر» وصولا إلى «شرم الشيخ». وفي كل محطة من هذه المحطات نقدم تنازلات عما اتفقنا عليه من قبل، ومع هذا لا تنفذ إسرائيل ما تتفق عليه من قبل، لتجبر المفاوضين اللاهثين وراء السراب على تنازل جديد. وأحسب أن هذه المحطات «السلامية» أو «الاستسلامية» لم تنته بعد.

والعجيب أن أهم ما كان يجب البدء بالاتفاق عليه أخر إلى النهاية: مسألة القدس، وعودة اللاجئين، وقضية المستوطنين اليهود، ومسألة الحدود، والمياه، كلها مؤجلة، فما الذي اتفق عليه إذن(32)؟ انسحاب محدود من جانب إسرائيل يسمونه «إعادة الانتشار» وهي تسمية معبرة عن المقصود.

وقد قلت عن هذا السلام في قصيدة لي:

فما معنى فلسطين بلا أقصى ولا قدس؟

---

(32) والآن – والكتاب ماثل للطباعة – يجتمع ياسر عرفات وباراك وكلينتون في «كامب ديفيد» بالولايات المتحدة وسط جو ملبد بسحب التشاؤم، إزاء «لاءات» باراك الخمس، ولا ندري: إلى أي تنازل جديد يصل هذا الاجتماع؟!

فلسطين بلا قدس كجثمان بلا رأس

لقد كسبت إسرائيل من جراء ذلك إيقاف الانتفاضة، وتقسيم الفلسطينيين، وإدخالهم حلبة الصراع على مغانم السلطة، واستخدام السلطة في ضرب قوى الجهاد، بدعوى محاربة الإرهاب، وإسرائيل هي الإرهابي الأكبر، لو كانوا يعلمون.

ولقد كشف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل النقاب في كتاباته الأخيرة عن خيانات بعض القادة الكبار، الذين كانت الخطوط مفتوحة بينهم وبين رجال صهيون في إسرائيل، وبهذا صدق المثل العامي: حاميها حراميها! وكما قال الشاعر العربي قديمًا:

وراعى الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

* * *

إخفاقنا في مسيرة التقدم والتنمية

3 – وثالث الإخفاقات، هو إخفاق أمتنا في مسيرة «التقدم والتنمية». فلا زلنا – نحن العرب والمسلمين – ضمن «البلاد النامية» أو «العالم الثالث» وعندنا بلاد لو كان هناك عالم رابع لنسبت إليه! لا زلنا عالة على غيرنا في الصناعات الثقيلة، والصناعات الدقيقة، معظم صناعاتنا تجميعية، لم نصنع محركا «موتورا» إلى اليوم. سلاحنا الثقيل نستورده، ولا نصنعه. إن «سورة الحديد» لم تعلمنا صناعة الحديد. حتى الزراعة نستورد فيها نصف أقواتنا أو يزيد. مع أن بلادنا بلاد زراعية. فكيف بقاء الأمة التي لا تملك قوتها، ولا تملك سلاحها؟

لقد بدأت مصر نهضتها مع اليابان أو قبل اليابان، وانظر الآن أين اليابان، وأين نحن؟

وبدأت كوريا مسيرتها التكنولوجية بعد الحرب العالمية الثانية، فانظر أين كوريا وأين نحن اليوم؟!

العالم المتقدم يتحدث عن الثورات التي أنجزها: ثورة التكنولوجيا، وثورة البيولوجيا «هندسة الجينات والاستنساخ واكتشاف خريطة الجينات البشرية وما إليها» والثورة الإلكترونية «الكمبيوتر والإنترنت» والثورة الفضائية: غزو القمر ومحاولة الوصول إلى الكواكب الأبعد، و«ثورة الاتصالات»، و«ثورة المعلومات» إلخ. فأين نحن من هذه الثورات؟

نحن نستطيع أن نشتري أفخر وأغلى ما أنتجه العلم والتكنولوجيا، نستطيع أن نشتري أفخر سيارة مرسيدس، أو روزريس، بمواصفات لا نظير لها، ولكننا لا

نستطيع أن نصنع منها شيئًا، ولكنهم لا يبيعون لنا إلا ما يريدون، لا ما نريد نحن، فما يتعلق بالأسرار النووية ونحوها لا يباع لنا، ولا يباح لنا، أنما هو مباح لإسرائيل وحدها!

قد طال ليل التخلف علينا، حتى ظن بعض الناس أن التخلف سببه الإسلام، وهذا خطأ محض، فقد كان المسلمون هم العالم الأول لعشرة قرون، وكان العالم يتتلمذ عليهم، والمنهج التجريبي الذي نهضت على أساسه أوربا إنما اقتبس منهم، بشهادة المؤرخين المنصفين من الغربيين أنفسهم. وقد زعم بعض مفكري العرب من ذوي النزعة الماركسية والليبرالية: أن العقل العربي بذاته عاجز عن التحليق في آفاق العقل الغربي، والوصول إلى ما وصل إليه، سواء في مجال المعرفة الفلسفية أم في مجال العلوم والتكنولوجيا.

وأيد بعضهم هذه الدعوة بما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته عن العرب، أنهم لا يصلحون للحضارة، وأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ... إلخ.

وقد بين الدكتور علي عبد الواحد وافي في تحقيق «مقدمة ابن خلدون» بالأدلة الناصعة: أن ابن خلدون لم يرد بكلمة «العرب» في نصوصه المختلفة: «الجنس العربي» بل أراد «البدو» أو عرب الصحراء الذين لم يعيشوا في القرى والمدن، ولم يألفوا الحياة المدنية المستقرة، وإنما يشتغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام سكنا لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر، حسب مقتضيات حياتهم، وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها.

وهم المقابلون لأهل الحضر، وسكان الأمصار، كما يدل على ذلك الحقائق التي عرضها ابن خلدون في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة من الفصل الخامس

والعشرين إلى الفصل الصامن والعشرين من الباب الثاني، والفصل التاسع من الباب الرابع(33).

وما أشبه قول هؤلاء عن العرب بما قاله بعض المستشرقين من قبل: أن العرب لم يكن لهم فلسفة، ولا حضارة، إنما كانوا مجرد تراجمة لفلسفة اليونان وعلومهم، وأنهم لا يصلحون لإنشاء فلسفة أو حضارة متميزة، وهذا مبني على نظرية «تفاضل الأجناس» أن هناك جنسا أعلى، وآخر أدنى، وأن الأوروبيين هم الجنس الأعلى وغيرهم هو الأدنى، وهذا كله هراء، يرفضه العلم، ويرفضه الدين، فليس في العلم أن جنسا من بني البشر أفضل من جنس، وليس في الدين أن جنسا أعلى وأرقى من غيره، إلا من بني البشر أفضل من جنس، وليس في الدين أن جنسا أعلى وأرقى من غيره، إلا بالإيمان والعمل أو التقوى. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: 13].

لا يسعنا أن نغفل هنا: ما كان عليه بعض مشايخ الدين من ضيق الأفق في استقبال بعض منجزات العلم الحديث، حتى أنكرها بعضهم، واعتبرها فتنة من عمل الشيطان.

وقد حكموا أن الشيخ الإمام حسن البنا – عليه رحمة الله – عندما حج لأول مرة، وكان موافقا لسنة 1942م، وقد اصطحب معه مكبرا للصوت «ميكروفونا» اعترض عليه بعض العلماء هناك، وقالوا له: هذا بدعة، لم يفعله الرسول ﷺ، ولا

---

(33) انظر: مقدمة د. علي عبد الواحد وافي في تحقيق مقدمة ابن خلدون، طبعة لجنة البيان العربي الثانية (ص297 – 304).

أصحابه، ولا أتباعهم، وهم خير قرون هذه الأمة، وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

وناقشتهم الشيخ البنا، وأن الابتداع إنما هو في أمور الدين، وهذا من وسائل الدنيا التي تعين على أمر الدين.

ومن حسن الحظ أن كان الشيخ الذي ينكر الميكروفون يلبس نظارة على عينيه، فقال البنا: أراك تلبس نظارة، وتقرأ بها القرآن وكتب الحديث والفقه وغيرها، وهذه لم يفعلها الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا من بعدهم! قال الشيخ: ولكن هذه تكبر لي الخط فأقرأه بصورة أوضح. قال الشيخ البنا: وهذا ما يعمله الميكروفون، النظارة تكبر المرئيات، والميكروفون يكبر المسموعات. وسلم عالم الدين في الأرض المقدسة للشيخ البنا.

ولقد حدثني بعض الإخوة السعوديين أن أول دخول التليفون في المملكة استنكره بعض المشايخ، وصرحوا بذلك للملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقالوا: هذا لا يمكن أن يكون من عمل البشر، بل هو من عمل الشياطين، لفتنة الناس وإغوائهم وإضلالهم عن دين الله. وكان الملك عبد العزيز رجلًا ذكيًا، فأمر بعض أصحابه أن يقرأ القرآن في التليفون، ويسمعه هؤلاء المشايخ، فلما سمعوا ذلك، قال لهم الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يقرأ الشيطان القرآن الكريم؟

على كل حال كانت هذه فترة مضت، وهذا يذكرنا بما حدث أيام الدولة العثمانية عند ظهور «المطبعة» وتخوف بعض المشايخ من استخدامها في طباعة كتب العلم والدين، خشية دخول الأغلاط والتحريف فيها، وهو وارد من غير شك، ولكن المصالح المترتبة على استخدامها أكبر بكثير من المفاسد المخوفة منها، ولا يجوز

تضييع مصلحة كبيرة تخوفا من حدوث مفسدة صغيرة، هذا مع وجوب التحذير من الغلط والتحريف، والعمل على تلافيه.

وهذا يذكرنا أيضًا بما حدث من قلة من المشايخ القدامى في الأزهر الشريف، الذين اعترضوا على إدخال «العلوم الحديثة» في برامج الأزهر ومقرراته، من الرياضيات والطبيعة والكيمياء والأحياء والجغرافيا وغيرها، لأنها ستجور في رأيهم على علوم الدين واللغة.

والحق أن هذه العلوم التي يسمونها «الحديثة» هي علوم قديمة نبغ فيها المسلمون وأبدعوا فيها أيام ازدهار حضارتهم، وكان لهم فيها القدح المعلى. وقد اقتبسها الغربيون منهم وتفوقوا فيها، ثم عادت إليهم في صورة علوم حديثة، وما هي إلا بضاعتهم ردت إليهم.

ومن أعجب ما سمعته في عصرنا: أن أحد الدعاة ممن ينتسب إلى جماعة دينية تهتم بالجوانب الروحية والعبادية فحسب، قال يوما في خطبة أو درس له: الحمد لله الذي سخر لنا الإفرنج، ليقدموا لنا منجزات العلم والتكنولوجيا، لنتفرغ نحن لعبادة الله تعالى!!

غفل هذا المسكين أن المسلمين بهذا قد أثموا في حق دينهم وأمتهم، حين أهملوا ما اعتبره العلماء فرض كفاية عليهم، وهو إتقان العلوم، التي تقوم بها دنياهم، ويعز بها دينهم، وتسود أمتهم، ويعدون بها ما استطاعوا من قوة لأعداهم، ليحملوا دينهم وأرضهم وعرضهم وحرمانهم. فإذا قصروا في ذلك، فقد أثمت الأمة جميعها، فليس هذا نعمة يحمد الله عليها، بل هي جريمة يستغفر الله تعالى منها.

ورحم الله زمانا كان علماء الدين مبرزين في علوم الدنيا.

فقد رأينا مثل الإمام ابن رشد «الحفيد» (ت 595هـ) في الأندلس، يؤلف في الفقه المقارن كتابه الفريد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» ويؤلف في الطب كتابه «الكليات» الذي ترجم إلى «اللاتينية» وظل مرجعا للأوروبيين لعدة قرون.

ورأينا في الشرق معاصره الإمام فخر الدين الرازي (ت 606هـ) الذي اشتهرت كتبه الدينية في التفسير وأصول الفقه والكلام، ينبغ في الطب أيضًا، وقال مترجموه: إن شهرته في الطب لم تكن تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا مثل ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى (ت687) يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير «طبقات الشافعية الكبرى» انظر الترجمة: (جـ8 ص305).

فلم يكن عندنا مشكلة الصراع بين العلم والدين، التي ثارت في أوربا قرونا عدة، بل كما قلت وأقول دائمًا: العلم عندنا دين، والدين عندنا أعلم.

فالعلم عندنا عبادة، وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو يشمل كل علم نافع، في الدين أو في الدنيا، وهو إما فرض كفاية أو فرض عين.

والدين عندنا علم، لأنه لا يقوم على التسليم المطلق، ولا على الإيمان بغير المعقول، كما في المسيحية، بل نجد قرآننا يقول للمشركين والمخالفين: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111] و [النمل: 64].

وليس عندنا ما عند النصارى من قولهم: اعتقد وأنت أعمى! بل المطلوب أن يكون الإيمان عن بينة، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، وأن يكون على نور ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22].

وإيمان المقلد عند المحققين من علماء المسلمين: غير مقبول، إنما يقبل الإيمان القائم على الدليل، ولو كان دليلًا جمليًا، وغير مرتب ترتيبًا منطقيًا.

هل المسلمون أقل ذكاء من الأمم الصناعية المعروفة في عصرنا؟ ليس هذا صحيحًا من غير شك. بدليل أن لدينا عقولًا مهاجرة إلى بلاد الغرب تعد بعشرات الألوف، من النوابغ في شتى مجالات العلم، أمكن الغرب أن يستفيد من علمهم وخبرتهم، ولم تستطع دلوهم ذلك للأسف.

لقد استطاعت باكستان أن تصنع القنبلة النووية، بالرغم من محاولات الغرب منعها من ذلك، وكان العراق في طريقه إلى ذلك، لولا ما جره إليه نظامه الحاكم من حماقات ومطامع ضيعت عليه فرصته، وسدت عليه طريقه.

وتستطيع الأمة العربية والإسلامية أن تفعل الكثير إذا تعاونت وتكاملت، فنحن نرى الدول الصناعية الكبرى تتعاون فيما بينها لصناعة طائرة متطورة. فلماذا لا تفعل الأمة المسلمة ذلك؟[34].

إن العدد الكبير والمساحة الكبيرة شرط لنجاح التقدم والتنمية، فنحن في عصر الإنتاج العريض، والسوق الواسعة. وإن ثلاثمائة مليون من العرب وألف مليون وراءهم من المسلمين لقادرون أن يكونوا شيئا مذكورا، إذا عرفوا غايتهم، وعرفوا سبيلهم، وتوحدت إرادتهم، وأيقنوا برسالتهم، ليجعلوا من الإيمان بها محركًا يثير حوافزهم، ويجند قدراتهم، ويضاعف طاقاتهم. فإن المؤمن القوي يمكنه أن يعمل بعشرة أضعاف غيره إذا توافرت له الإرادة والصبر ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(34) انظر: فصل «هم التخلف» من كتابنا «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» نشر دار الشروق القاهرة.

عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

* * *

الإخفاق في التحرر من التبعية للغرب

4 - ورابع الإخفاقات هو: الإخفاق في التحرر من التبعية للغرب، صحيح أننا حصلنا على الاستقلال السياسي، وأن جيوش الأجنبي قد رحلت عن بلادنا، وإن كانت قد عادت إلى كثير منها مرة أخرى بحجة أخرى.

ولكن المؤسف أننا لم نتحرر من فكر الغرب وثقافته، لازال سلطان الثقافة الغربية مهيمنًا على كثير من نخبنا، وهو الذي يصنع لهم اتجاهاتهم، كما يضع لهم قيمهم وموازينهم الفكرية والخلقية، ويحدد لهم أهداف حياتهم، ويضع لهم أنماط سلوكهم، بحيث يعيشون بين أقوامهم، وهم في الواقع لبسوا منهم، أسماؤهم ووجوهم عربية وإسلامية، ولكن عقولهم غربية.

هناك من يزعمون أن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، فلا يليق بنا أن نوصد الأبواب دونها، وهذه مغالطة مكشوفة القناع، فالعلم الطبيعي والرياضي لا وطن له، ولا جنسية له حقا - إلا فيما يتعلق بفلسفته وأهدافه واستخدامه - أما الثقافة فهي المعبرة عن هوية كل أمة وخصوصيتها، عن عقائدها وقيمها وشرائعها وأعرافها وحضارتها وتراثها، ولا يجوز لأمة تعتز بنفسها وبذاتيتها ورسالتها أن تذوب في غيرها، كما يذوب الملح في الماء، فإن هذا حكم على الأمة بالفناء والإعدام!

لا عجب أن سميت هؤلاء وأمثالهم «عبيد الفكر الغربي»! قال لي بعضهم: لقد قسوت على هؤلاء، فليتك سميتهم «تلاميذ الفكر الغربي» قلت له: إن التلميذ قد يناقش أستاذه. وقد يخالفه فيما ذهب إليه، وهؤلاء لا يناقشون الفكر الغربي، بل يأخذ الواحد منهم كل ما جاء به قضية مسلمة، وإن كانت مناقضة لعقيدته، أو

منافية لتراثه، أو معادية لأمته. وهذا هو موقف العبيد من السادة.

وأعجب صنف من هؤلاء من عبيد الفكر الغربي: من أقحم نفسه على الدراسات الإسلامية، ومنح نفسه الحق في التحدث باسم الفكر الإسلامي، وأنزل نفسه منزلة فوق منزلة المجتهدين، فهو لا يلتزم بما التزمه الأئمة المجتهدون طوال القرون، من احترام «القطعيات» وعدم المساس بها، باعتبارها «ثوابت الأمة» التي تجسد وحدتها العقدية والفكرية والشعورية والعملية، ولكن هؤلاء لم يدعوا سورا إلا اخترقوه، ولا مقدسا إلا اجترءوا عليه، حتى نصوص كتاب الله المحفوظ، استباحوا حرمتها، بدعوى تاريخية النص حينا، وباتباع المدرسة التأويلية الحديثة، الذين هم خلف للمدرسة التأويلية الباطنية قديمًا، كما نرى عند أركون وشحرور، ونصر أبو زيد وأمثالهم.

والمهم أن هؤلاء العبيد هم الذين يوجهون - في الأغلب الأعم - أجهزتنا الإعلامية والثقافية والتربوية. وهم الذين وكل إليهم صناعة عقول شعوبنا، رجالنا ونسائنا وأبنائنا وبناتنا، ويسلخونهم من جلد أمتهم بما يدرسون لهم من سموم الثقافات الدخيلة على الأمة توضع في الدسم والحلوى.

وهي ليست تبعية فكرية أو ثقافية فحسب، بل هي تبعية تشريعية أيضًا، فلا زال القانون الوضعي - الذي فرضه المستعمر الغربي على أمتنا في فترة حكمه، وأحله محل الشريعة الإسلامية - هو الذي يحكم أوطاننا بعد رحيله عنها. فقد ترك وراءه تلاميذ صنعهم على عينه، يحرسون تراثه، ويحافظون على نهجه، ويسيرون على خطه، ولم تستطع شعوبنا التي تؤمن بالشريعة قانونا لها، أن تفرضها على حكامها، الذين ظلوا يراوغون، ويقولون: نعم للشريعة، ولكن بالتدرج، وقد مضت عشرات السنين وهم لا يتدرجون، ولا يبرجون مكانهم «محلك سر».

وهي ليست تبعية ثقافية ولا تشريعية فحسب، بل هي تبعية اقتصادية أيضا، فنحن مجبورون، على أن نكون سوقا للغرب، وأن نشتري منه ما لا حاجة لنا إليه، نشتري الأسلحة بعشرات المليارات، لنكدسها في مخازننا، ولا نستعملها، وكثيرا ما يبيعنا الأسلحة بعد أن تنتهي صلاحيتها، ويبتكر هو أحدث منها، فيغدو وجودها عنده عبئا عليه، فهو ببيعها إيانا يضرب عصفورين بحجر واحد: يتخلص منها، ويقبض ثمنها فورا، يدا بيد.

ثم هي فوق ذلك تبعية سياسية أيضا فلا زالت دولنا - بصورة وأخرى - تعمل بما قاله كرومر قديما «النصائح الملزمة» وأين الدولة الحرة التي تستطيع أن تقول لنصائح أمريكا: لا، بملء فيها. كما قال عمر: يعجبني الرجل إذا سيم الخسف أن يقول بملء فيه: لا!

ومن هنا رأينا الكثير من الأنظمة الحاكمة في ديارنا العربية والإسلامية تهرول نحو إسرائيل - وهي جد بعيدة عنها - مثل إندونيسيا شرقا، أو موريتانيا غربا، طاعة وأدبا وامتثالا للقيصر الجديد للعالم: أمريكا.

* * *

الإخفاق في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان

5 – وخامس الإخفاقات هو: الإخفاق في مجال الشورى والحريات العامة وحقوق الإنسان. فما زالت جل شعوبنا – إن لم يكن كلها – تحت وصاية حكامها، لا تستطيع أن تختار من يقودها، ولا أن تحاسبه وتسائله، وتقفه عند حده، وإلا عزلته.

والعجب أن البلاد التي انتهت إلى النظام الجمهوري أسوأ حالا – في غالبها – من البلاد التي بقيت ملكية أو أميرية. فهذه الجمهوريات «الديمقراطية!» انفردت بين نظم العالم بالأغلبية التي أصبحت نكتة العالم، أغلبية التسعات الأربع «99.99٪» ومعظمها استفتاء على الطريقة الاشتراكية التي وصفها بعضهم بأنه سباق يعدو فيه حصان واحد!

ولم نر في هذه الجمهوريات الديمقراطية المزعومة تداولا للسلطة كالجمهوريات في الغرب الليبرالي، بل نرى كل رئيس لا يترك السلطة إلا ميتا، أو مقتولا، أو منقلبا عليه. وكل واحد منهم يعد ابنه ليخلفه من بعده. أي أن الجمهوريات أصبحت وراثية كالملكية، ولكن الملك في الأنظمة الدستورية يملك ولا يحكم، أما رئيس الجمهورية فهو يملك ويحكم معًا. لا يستثنى من ذلك إلا رئيس واحد تنازل مختارا عن موقعه، ليتيح الفرصة للناس ليختاروا لأنفسهم، وهو المشير عبد الرحمن سوار الذهب في السودان، شكر الله سعيه.

فلا غرو أن يقترح بعض الكتاب أن يختار العرب لحكمهم الملكية الدستورية، بدل الجمهورية التي تعلن الديمقراطية، وتمارس الدكتاتورية. ومن هنا رأيناها

تستخدم الأحكام العرفية، والقوانين الاستثنائية أو قانون الطوارئ، والمحاكمات العسكرية، وتمتلئ سجونها بمعارضيها. ولا تجد من يقول لها: لم؟ بله أن يقول: لا!

لماذا تنجح الديمقراطية في بلد كبير كالهند «مليار من البشر» متعدد الأديان والأعراق واللغات والثقافات، حتى إن الحكومة تجري انتخابات، وتسقط هي، ويفوز خصومها، في حين تخفق الديمقراطية في جارتها باكستان، وتحكم بالانقلابات العسكرية؟

نحن لا نبرئ الغرب من هذه الجريمة، فهو يشجع الديمقراطية في أنحاء العالم، ويكرهها في البلاد الإسلامية، وهو يسند كل دكتاتور يحكم في أوطان المسلمين، ويشد أزره، ما لم يمس مصالحه، أو يلتفت إلى الصالح الإسلامي في بلده، كما فعل مع سوهارتو في إندونيسيا.

وإلا فخبرني بريك كيف ساند الغرب المؤسسة العسكرية في الجزائر التي ألغت نتائج انتخابات حرة نزيهة أجرتها الحكومة بنفسها، واستولت على مقاليد السلطة عنوة، وأخذت الرجال الذين انتخبهم الشعب طواعية إلى أقبية السجون متهمين بالعنف والإرهاب، مما ولد حالة من العنف في الجزائر لم تبرح تعاني منها إلى اليوم؟!

ولماذا أبقى الغرب على صدام حسين إلى اليوم، وقد كان في إمكانه إسقاطه أيام حرب تحرير الكويت، لو كانوا يريدون ذلك حقا؟

إن لجان الإنسان، الدولية والإقليمية والمحلية، ولجنة العفو الدولية، تحتج بصوت عال على ما يجري في بلادنا العربية والإسلامية من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان، واعتداءات متكررة على الحريات، وإلقاء الناس في السجون بغير جريمة، وتعذيب المتهمين بغير حق، وإيذاء أهليهم وأقاربهم بلا جريرة، ومنهم

من مات في سجنه من التعذيب المباشر، أو سوء التغذية، أو إهمال العلاج. ومنهم من أصيب بأمراض مزمنة، بعضها عضوية، وأخرى عصبية ونفسية، لا دواء لها، إلا إن يشاء ربي شيئًا.

وإن بعض هذه الدول تتبجح بدعوى الإسلام، وأنه دينها الرسمي، كما في تونس، وهي تعتبر الصلاة في المسجد جريمة، يحسب صاحبها في الإرهابيين، وتعتبر اقتناء الكتب الإسلامية ذنبًا يزج به في غياهب السجون، وتعتبر حجاب المرأة المسلمة جرمًا يحرمها من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكومية، والمستشفى للولادة أو العلاج، وهو حق لا ريب فيه يتعلق بالحرية الشخصية، والحرية الدينية. ومن العجب أن المرأة شبه العارية لا يمسها أحد بسوء، لأن هذا داخل في الحرية الشخصية المقدسة.

مشكلة هذه الأنظمة المستبدة: أنها - كما قال شكري القوتلي من قبل - لها ألف عين ولكنها لا ترى، وألف أذن ولكنها لا تسمع، لأنها لا ترى ولا تسمع إلا بأعين أنصارها وآذانهم، أي أهل الثقة لا أهل الكفاية والخبرة. وهؤلاء يخفون عنها العيوب، ويضخمون لها المزايا، ويخوفونها مما هو في حقيقته من الأوهام.

وأعجب من هذا أن نجد من المثقفين من يبرر هذا الاستبداد والتسلط بحجج شتى، منها: تمكين الدكتاتور من اتخاذ القرار السريع. حتى قال من قال: لا ينهض بالشرق إلا مستبد عادل. والعدل لا يجامع الاستبداد، فالعادل لا يكون مستبدا والمستبد لا يكون عادلًا.

ومنهم من قال: إن الشورى - التي أمر الله بها - مُعلمة لا ملزمة، فمن واجب الحاكم أن يستشير أهل الحل والعقد، ومن حقه أن يضرب برأيهم عرض الحائط.

فلماذا سموا أهل الحل والعقد، وماذا يحلون ويعقدون إذن؟

ومنهم من زعم أن الديمقراطية تعني حكم الشعب، وهي منافية للإسلام؛ لأنه حكم الله. وهذه مغالطة، فحكم الشعب ليس مقابلا لحكم الله، بل لحكم الفرد المطلق، والمفروض أننا نتحدث عن حكم الشعب المسلم في وطن مسلم، ومثله لا يرفض حكم الله. وهو حكم الشورى الذي يرفض حكم كل جبار عنيد، حكم الفراعنة والمتألهين في الأرض، إنما يقبل حكم الصالحين الذين يحبون الناس ويحبونهم، ويصلون على الناس كما يصلي الناس عليهم، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا.

الحقيقة أن الإسلام يذم من أم قوما وهم له كارهون. وهذا في الإمامة الصغرى في المسجد، فكيف بالإمامة الكبرى: إمامة الأمة؟[35].

❋ ❋ ❋

(35) انظر: موقف الإسلام من الديمقراطية في كتابنا «من فقه الدولة في الإسلام» نشر دار الشروق القاهرة.

الإخفاق في توحيد الأمة

6 – وسادس الإخفاقات هو: إخفاق الأمة في مجال الوحدة، فمنذ سقطت الخلافة، والأمة الإسلامية تنشد الوحدة بصورة من الصور ولا تصل إليها، ولا تقترب منها. والحقيقة أن الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم[36]، هي حقيقة بمنطق الدين، وهي حقيقة بمنطق التاريخ، وهي حقيقة بمنطق الجغرافيا، وهي حقيقة بمنطق المفاهيم المشتركة، والمشاعر المشتركة، والمصالح المستركة، والمصير المشترك، وهي حقيقة بمنطق أعدائها أنفسهم، الذين ينظرون إليها باعتبارها كيانا واحدا يجب تفكيكه وتمزيقه.

لقد اعتبر القرآن الكريم المسلمين «أمة واحدة» وحدتها العقيدة والشريعة والقيم والآداب المشتركة والقبلة الواحدة، ولكن الاستعمار أرادهم «أمما شتى» واستطاع الاستعمار بوسائله وأساليبه المختلفة، أن يغيب «الأمة الواحدة» ويبرز الأمم المختلفة.

لقد فرق أبناء الأمة الواحدة: اختلاف الفلسفات والمناهج التي استوردوها من الشرق والغرب، واليمين واليسار، كما فرقهم اختلاف الولاءات لهذه الجهة أو تلك، ثم ظهور العصبيات القطرية والقومية، التي جعلت كل جماعة تذكر وطنها وجنسها ولا تذكر الأمة الكبرى. أضف إلى ذلك الأهواء والمصالح الشخصية والأسرية والحزبية التي جعلت من الحكام من يتشبث بالتجزئة ولا يحرص على الوحدة.

---

(36) عنوان كتاب للمؤلف، نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت.

إن الإسلام أمر الأمة بالوحدة والائتلاف، ونهاها عن التفوق والاختلاف، وجسد هذه الوحدة بأحكام أساسية ثلاثة:

1 – وحدة المرجعية العليا، المتمثلة في محكمات القرآن والسنة الصحيحة.

2 – وحدة دار الإسلام، التي تجعل أوطان الإسلام – وإن تباعدت – وطنا واحدا، أو دارا واحدة.

3 – وحدة القيادة، حين فرض على المسلمين أن يكون لهم خليفة واحد، تجب عليهم بيعته.

فأما شكل الوحدة بين المسلمين، فلم يحدد الإسلام له صورة معينة، وفي عصرنا قد ابتكرت صور للوحدة يمكننا أن نقتبس واحدة منها، ونطورها بما يلائم شريعتنا وأوضاعنا: فيدرالية أو كونفدرالية. أو كومنولث، أو نحو ذلك، ويمكن أن نبدأ بأدناها ثم نرقى بها بالتدريج.

على أية حال، قد اكتفى المسلمون الآن بما أطلق عليه اسم «التضامن الإسلامي» الذي تجسد في «منظمة المؤتمر الإسلامي» التي تمثل جميع الدول الإسلامية، أو التي فيها نسبة كبيرة من المسلمين. ولهذه المنظمة عدد من المؤسسات مثل «البنك الإسلامي للتنمية، ومجمع الفقه الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم» وجلها يشكو من عجز الموارد، وقلة التمويل، والواجب على الأمة أن تفعل هذه المنظمة، سعيا إلى ما تنشده من الوحدة ولو في أدنى درجاتها، فنحن في عصر يتكلم بلغته التكتل والتوحد.

وها قد رأينا أوربا التي قاتل بعضها بعضًا قرونا، آخرها الحربان العالميتان التي قتل فيها ملايين من الأوروبيين – قد نسيت هذا الصراع الدامي، وفرضت عليها

المصالح المشتركة، أن تتوحد في شكل سوق مشتركة، وبرلمان مشترك، ومؤسسات مشتركة.

لقد آن أن تنشأ السوق الإسلامية المشتركة، ومحكمة العدل الإسلامية للفصل في النزاع بين الدول الإسلامية بعضها بعض، وأن نخفف من الفواصل والعوائق بين بعضنا وبعض.

على أن وحدة الأمة لا تلغي خصوصيات الأقوام والأوطان، بما لها من لغات وأعراف وتواريخ وأوضاع خاصة، وقد قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13]. ولكن الإسلام يفرض على أبناء الأمة أن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أما أن تضرب الشيشان بقسوة وعنف، وتدمر المساجد والمنازل، ويقتل المدنيون، ويشرد مئات الألوف، ويباد شعب بأكمله، والمسلمون يتفرجون صامتين لا يصرخ منهم أحد محتجًا، فهذا عار وشنار على أمة الإسلام.

إن العالم يتوحد، فما بالنا نختلف؟ ويتقارب فما بالنا نتباعد؟

إن المسيحيين يتقاربون بعضهم بعض، برغم أن مذاهبهم تعتبر كأن كلا منها دين مستقل، بل تقارب المسيحيون مع اليهود، حتى أصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بـ «تبرئة اليهود من دم المسيح» مخالفا ما استقر عليه المسيحيون طوال القرون الماضية «تسعة عشر قرنا أو تزيد». وكذلك رأينا أمريكا الرأسمالية تتقارب مع الصين الشيوعية. وقبل ذلك رأينا المعسكر الغربي الرأسمالي الليبرالي يتقارب مع المعسكر الشرقي الشيوعي «الاتحاد السوفيتي» فيما عرف بسياسة التعايش

السلمي أو الوفاق.

فما بالنا نحن المسلمين نتباعد ونتجافى، وشعوبنا تعتبر المسلمين إخوة لهم أينما كانوا، وتعتبر الجميع من أمة الإسلام، أمة الإجابة؟

حتى العرب – وهم طليعة المسلمين – لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الوحدة، لقد أقاموا «الجامعة العربية» من سبع دول، ثم أربت اليوم على العشرين، ولكنها توسعت كمًّا، ولم نتعمق كيفا. برغم كل ما يجمع بينها من وحدة الدين والأرض واللغة والمصير والمصلحة.

وعامل جديد هو العدو الصهيوني، الذي كان يجب أن يكون عامل توحيد لهم، فانتهى إلى إن يكون عامل تفريق، في موقفهم منه. ومن المؤسف أن كل التجارب «الوحدوية» – التي عبرت عن طموحات الأمة – باءت بالفشل. فشلت وحدة مصر وسوريا، وهي أعظم خطوة للوحدة تمت في عصرنا، أنشأت «الجمهورية العربية المتحدة» واستقبلها العرب في كل مكان بفرحة غامرة، وترحيب هائل، وتأييد منقطع النظير، وقد شهدت ذلك بنفسي، سرعان ما تهدمت هذه القلعة، وتهاوى بنيانها، وانتهت من التاريخ، بسبب طغيان الحكم، وحكم الطغيان، والاستبداد الذي بغى على حقوق الإنسان، وحرية المواطنين، فلم يطق الشعب السوري أن يحيا في سجن بابه مغلق، ومفتاحه في القاهرة، وفي أول فرصة أعلن الانفصال، وأصبح أكثر للذين أيدوا الوحدة بالأمس يؤيدون الانفصال اليوم.

حتى الرئيس شكري القوتلي الذي تنازل مختارا عن منصب رئيس الجمهورية، ليصبح «المواطن العربي الأول» في الجمهورية الجديدة، كان أول من رحب بالانفصال، بخطابه التاريخي الشهير، الذي أذاعته كل أجهزة الإعلام.

وكذلك لم تنجح محاولات الاتحاد الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا، ولم ينجح الاتحاد المغاربي بين أقطار المغرب الخمسة، رغم ما بينها من روابط وتقارب، حتى في العادات والأعراف، ولم ينجح «مجلس التعاون العربي» الذي قام بين مصر والأردن واليمن وليبيا.

ولم يستطع الحزبان البعثيان اللذان يحكمان بلدين شقيقين متجاورين «سوريا والعراق» أن يقيما وحدة بينهما، رغم أن شعارهما جميعا: أمة واحدة، ذات رسالة خالدة.

والتجربة الوحيدة التي استمرت مع الزمن هي تجربة «مجلس التعاون الخليجي» وإن كان بطئ الخطوات في تطوير تعاونه، وإزالة الحواجز بين بلدانه.

ولقد ازداد العرب فرقة بعد كارثة احتلال العراق للكويت بإغراء الغرب، لقد كانت ضربة معلم استطاع الغرب عامة، وأمريكا خاصة أن يحقق بها عدة أهداف: أن يحول العراق من دولة توشك أن تصنع القنبلة النووية، إلى دولة مدمرة السلاح، وأن يمزق وحدة العرب، فلم تجتمع لهم قمة إلى اليوم، برغم مسيس حاجتهم إليها، ولقد جرب الغرب أسلحته الجديدة في أرض العرب، وتخلص فيها من أسلحته القديمة، وضرب المنطقة وهدمها بفلوس العرب، ثم أعاد إعمارها بفلوس العرب، وأخر المنطقة نصف قرن من الزمان على الأقل، وترك جراحًا غائرة في النفوس - منها أسرى الكويت - لم تندمل إلى اليوم.

****

الإخفاق في تحقيق العدالة الإجتماعية

7 – وسابع الإخفاقات هو الإخفاق في تحقيق عدالة اجتماعية، يأخذ فيها كل ذي حق حقه، من ثروة وطنه وفق جهده وحاجته وحاجة أسرته، كما قال الفاروق عمر: فالرجل وبلاؤه «أي جهده» والرجل وحاجته.

وقد وضع الإسلام قواعد راسخة لحسن توزيع الثروة بين الناس بالعدل، فلم يمنع حرية التملك، بل أجاز التملك وتنمية الملك بالطرق المشروعة، ووضع على الملكية قيودا وتكاليف تقلم أظفارها، وتحد من غلوائها، ففرض عليها الزكاة، وما من بعد الزكاة من حقوق، وفرض على الأغنياء أن يبذلوا من فضل أموالهم حتى يكتفي الفقراء الكفاية التامة، وحرم على الأغنياء السرف والترف والكنز والاحتكار والربا، وبذلك عمل بقوانينه ووصاياه على الحد من طغيان الغنى، والرفع من مستوى الفقير، وخص الفقراء من موارد الدولة من أموال الفئ وغيره بما لا يشاركهم فيه غيرهم، وعلل ذلك بقوله تعالى: ﴿كَيْلَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7].

ومع ذلك وجدنا توزيع الثروات في ديارنا العربية والإسلامية أبعد ما يكون عن عدل الإسلام، فنجد الذين يعملون ولا يملكون، والذين يملكون ولا يعلمون. ونجد الذي يعمل أكثر محرومًا أكثر، نجد من يأكل إلى حد الشره، ومن لا يجد اللقمة تمسك رمقه، نجد من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة ومن يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع. نجد من يملك القصور تجري في ساحاتها الخيل، بعضها في بلده، وبعضها خارج بلده، قد لا يزوره إلا مرة كل عدة أعوام، وآخر هو وزوجته وأولاده قد حبسوا في قلب حجرة في «بدروم» هي المطعم والمجلس

والمضافة والمنامة. وتجد بلاد القلة السكانية تملك القناطير المقنطرة، وبلاد الكثرة السكانية لا تملك مثل ذلك، وتجد الحكام وأبناءهم يلعبون بثروات البلاد، ولا يجدون من يحاسبهم. ونجد الذين يقفزون من أول السلم إلى أعلاه، من دنيا الملاليم إلى دنيا الملايين في وثبة واحدة، دون أن نرى من يقول له: من أين لك هذا؟ وآخرين يعيشون أعمارهم جاهدين مجاهدين، ولم يحصلوا غير العرق والدموع.

في كل بلد من بلداننا نجد أفرادا محظوظين أو أسرا محظوظة، هم الذي تتقاطر عليهم الملايين بل البلايين، وتفتح لهم الأبواب المغلقة، وتتاح لهم الفرص النادرة، وتنمحهم البنوك من التسهيلات ما لا يمنح لسواهم، فضلا عما لهم من الاحتكارات والامتيازات الطبقية، التي تمكنهم من امتلاك الثروة الهائلة والأرباح الضخمة، بدون مجهود يذكر. وبذلك تتركز الثروة في أيدي فئة قليلة، والآخرون ينظرون إليهم متحسرين حاسدين.

ومن لوازم ذلك: أن هذه الأصناف من الناس لا تطمئن إلى أن تبقى أموالها في أوطانها، فلذلك تضعها في البنوك الأجنبية، التي يحسبون فيها لهم الأمان والضمان.

هذا التوزيع الجائز للثروة يقسم الشعب الواحد إلى طبقات متصارعة، يكره بعضها بعضا، ويضعف من ولاء الجماهير المسحوقة لوطنهم، فهو يقولون: إن هذا الوطن ليس لنا، وإنما هو لفلان وفلان، فلهم منه التمر ولنا النوى، ولهم اللب ولنا القشر، ونحن في همهم مدعوون وفي فرحهم منسيون، أو كما قال الشاعر قديما:

وإذا تكون كريهة أدعى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى

وعندما قامت الثورات في عدد من البلاد العربية، وأسقطت الملكيات

التقليدية، وما وراءها من احتكارات للأسر المالكة، وأوليائها من الباشورات، توقع الناس عهدا جديدا من العدالة الاجتماعية تنعم فيه الطبقات المستضعفة بنصيبها من ثروة بلادها. وفعلا وزعت بعض الأراضي الزراعية على بعض الفلاحين، ولكن سرعان ما ظهرت طبقات طفيلية جديدة، حلت محل الطبقات الأرستقراطية القديمة، وذهب «الباشوات» القدامى وجاء «باشوات جدد»، ولكن ليس فيهم فضائل الباشوات، ولا أصالة الباشوات. لقد كان الباشوات القدامى ينتفع من ورائهم أسر كثيرة، وكانت بيوتهم مفتوحة، وأيديهم مبسوطة. أما الباشوات الجدد، التي أطلق الناس عليهم اسم «القطط السمان» فليس لهم من الباشوات القدماء إلا شهوة التملك واحتكار الامتيازات.

***

الإخفاق في مجال المرأة

8 – ومن المجالات التي أخفقنا فيها إلى حد كبير: قضية المرأة، التي ضاعت بين طرفي التفريط والإفراط، أو بين جاهليتين، كما قال صديقنا الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاهلية القرن الرابع عشر – ويعني بها: التي ورثت عن عصور الانحطاط في تاريخنا الإسلامي تقاليد التضييق على المرأة – وجاهلية القرن العشرين. ويعني بها: التي نقلت عن الحضارة الغربية تقاليد التحلل للمرأة من فضائل العفة والإحصان والحياء والاحتشام.

لقد رأينا من ذلك عجبا. رأينا الذين يمنعون الخاطب أن يرى مخطوبته مجرد رؤية، رغم الأمر النبوي الصريح للخاطب أن يرى مخطوبته، فإنه أحرى أن يؤم بينهما. بل نرى منهم من لا يسمح للعاقد – وهو زوج شرعا – أن يرى زوجته التي عقد عليها، وهو ما يحدث في كثير من بلاد الخليج، فلا يراها إلا ليلة الزفاف! هذا مع أنها تذهب إلى المدرسة أو الجامعة، أو السوق، أو تسافر إلى القاهرة أو بيروت أو لندن أو باريس، ويراها كل الناس ما عدا زوجها المسكين!

وفي مقابل هؤلاء: قوم آخرون، يدعون للخاطب ومخطوبته – وهي لا تزال أجنبية منه – الحبل على الغارب، يتأبط ذراعيها، ويذهب بها إلى حيث يشاء أو تشاء، إلى السينما أو المسرح، أو المتنزهات أو الأندية، أو ما شئت من هذه المسميات.

وهكذا ضاعت المرأة المسلمة بين المتنطعين والمتسيبين، وكلاهما بعيد عن جادة الشرع الحنيف.

لقد رأينا الذين يضيفون على المرأة، فلا يسمحون لها أن تقود السيارة، ولا بأن تعمل خارج البيت إلا للضرورة، ولا يجيزون لها أن يكون لها دور في المشاركة السياسية في شئون وطنها، وإدارة مجتمعها، فلا تعطي صوتها في الانتخاب، ناهيك بأن ترشح نفسها عضوا في مجلس الشعب أو النواب أو الشورى - سمه ما تسميه - والعجيب أن يتم هذا التضييق باسم الإسلام وأحكام شريعته.

هذا مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: 71]. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي محور الواجبات الاجتماعية والسياسية، وهي إحدى الوظائف الأساسية للدولة المسلمة إذا مكنت في الأرض ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41] وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ...﴾ الآية في مقابل قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: 67]. فإذا كان المنافقات يقمن بدورهن - مع المنافقين - في إفساد المجتمع، والتلبيس عليه، وتبديل قيمه الأساسية، حتى ليأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فإن على المؤمنات أن يقمن بدورهن المضاد والمصحح - مع المؤمنين - فيأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

ونرى القرآن يقول في جلاء وبيان: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

ومعنى ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أن الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، هو يكملها، وهي تكمله، فلا غنى بأحدهما عن الآخر، على سنة «الزوجية» المثبوتة في الكون كله.

وليست المرأة ضدًا للرجل، ولا خصمًا له، كما قد فهم من تصور الحضارة الغربية للمرأة.

ثم ذكرت الآية الكريمة بعد قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾ قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ (أي من الجنسين) لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [آل عمران: 195].

وهذا ما أثبته التاريخ، فقد وجدنا من النساء من هاجر في سبيل الله إلى الحبشة وإلى المدينة، ومن أوذيت في سبيل الله، حتى إن أول شهيد في الإسلام لم يكن رجلا، وإنما امرأة، وهي سمية أم عمار بن ياسر، استشهدت هي وزوجها ياسر تحت العذاب. ومن قاتلت في سبيل الله كما رأينا أم عمارة نسبية بنت كعب وغيرها في غزوة أحد وفي غيرها.

لقد رأينا من المسلمين – إلى اليوم – من يمنعون المرأة من الصلاة في المساجد، ومن الذهاب إليها لاستماع المحاضرات والدروس، خشية الفتنة! وهذا مخالف لقول رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»(37) ومخالف لما كان عليه نساء الصحابة في عصر النبوة من حرصهن على الصلاة في المسجد مع الجماعة، الصلوات الخمس كلها، حتى العشاء والفجر، مع أن الطرق لم تكن معبدة، ولا مضاءة بأي نوع من المصابيح في ذلك الزمان.

وقد ذهبت إلى الهند وباكستان وغيرهما، وألقيت محاضرات في مساجد شتى في مناطق متعددة، فلم أجد امرأة واحدة، تشهد هذه المحاضرات، ولما سألتهم عن سبب ذلك، قالوا: المذهب يمنع ذلك. قلت لهم: إن المرأة قد ذهبت إلى المدرسة

---

(37) متفق عليه ابن عمر، كما في «اللؤلؤ المرجان» (254).

وإلى الجامعة، وإلى السوق، وإلى العمل، وسافرت إلى الخارج، فهل بقى المسجد وحده هو المحرم عليها؟

ولماذا تحرم المرأة المسلمة من الذهاب إلى بيت ربها، في حين تذهب النصرانية إلى كنيستها، واليهودية إلى بيعتها، والوثنية إلى معبدها؟

إن أئمة المذهب الذي يستندون إليه، لو رأوا هذه المفارقات، لغيروا فتواهم، وأجازوا للمرأة تشهد المساجد اليوم، لتستفيد من العلم والمعرفة، وتتفقه في دينها، وتتعرف على أخواتها المؤمنات.

ورأينا بعض المسلمين يتشددون، فيحرمون على المرأة ترى رجلًا أو يراها رجل، ويستدلون على ذلك بحديث ضعفه العلماء، وهو ما روي أن النبي ﷺ قال لاثنتين من أزواجه، وقد أقبل ابن أم مكتوم: «**احتجبا عنه**» فقالتا: إنه رجل أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا! فقال: «**أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه؟**»[38].

كما استدلوا بحديث آخر أشد منه ضعفا بالإجماع، وهو أنه عليه الصلاة والسلام سأل ابنته فاطمة رضي الله عنها: أي شيء أصلح للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا، ولا يراها رجل، فقبلها، وقال: «**ذرية بعضها من بعض**».

وكلا الحديثين مناقض للأحاديث الثابتة في «الصحيحين» الوفيرة في لقاء النساء للرجال، والرجال للنساء في المساجد للصلاة، ولدروس العلم، وفي المناسبات المختلفة في الأعياد والأعراس، والقتال، وغيرها.

وما صح أن الرسول الكريم ﷺ أذن لزوجه عائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم

---

(38) رواه أبو داود عن أم سلمة (4112)، والترمذي (2779) وقال: حسن صحيح، وتعقبوه بأن في مسنده نبهان مولى أم سلمة وهو مجهول، لم يوثقه غير ابن حبان.

يلعبون بحرابهم في المسجد، حتى اكتفت وقالت: حسبي ذلك.

وما صح أن الرسول ﷺ أمر فاطمة بنت قيس: أن تقتضي عدتها في بيت ابن أم مكتوم، قال: إنه رجل أعمر، تضعين ثيابك عنده ولا يراك[39].

ومن المؤسف حقًا: أن نجد الكثيرين من المسلمين يدعون الأحاديث الصحاح المحكمات، ويتشبثون بأحاديث واهية أو موضوعة، مثل: «**لا تعلموهن الكتابة**» أو «**شاورهن وخالفوهن**».

ومن المتشددين في شأن المرأة: من لا يكتفي بالقول بأن وجهها وكفيها عورة يجب سترها، بل يزيد على ذلك فيقول: إن صوتها عورة، فلا يجوز لها أن تكلم رجلا، ولا يكلمها رجل.

وهذا أمر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وقد رأينا القرآن يقص علينا من أنباء الأمم والنبيين من قبلنا ما يدل على أن كلام المرأة للرجل وكلام الرجل للمرأة أمر مشروع لا ريب فيه، ما دام في حدود المعروف. كما رأينا كلام موسى للفتاتين وجوابهما له في مدين، ومجئ إحداهما إليه، وحديثها معه، وحديثها عنه أمام أبيها. كما جاء في سورة القصص.

ومثل ذلك كلام زكريا مع مريم، وردها عليه، ولم يكن محرما لها، فقد كان زوج خالتها. كما جاءت في سورة آل عمران.

وكذلك كلام ملكة سبأ لقومها، وجوابهم لهم، وكلامها مع سليمان وأصحابه.

الأمر المحظور هنا هو «الخضوع بالقول» أي التكسر فيه بحيث يحمل الإغراء

---

(39) انظر حول هذه القضايا: كتابنا «فتاوي معاصرة» (جـ2/ 261 – 302).

والفتنة للرجال، وخصوصًا ذوي القلوب المريضة بالشهوة وطغيان الغريزة على العقل، وهو ما ذكره الله تعالى في خطاب «نساء النبي» حين قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: 32].

فرغم أن نساء النبي ﷺ عليهن من التغليظ والتشديد ما ليس على غيرهن من النساء، لم يمنعهن القرآن من القول المعروف، وإنما منعهن من الخضوع بالقول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض.

وقد كان أمهات المؤمنين يكلمن الصحابة والتابعين من وراء حجاب، ويروين لهم الأحاديث، ويفتين من يسألهن الفتوى في أمور الدين، ولم ينكر ذلك عليهن أحد.

ورأينا من المسلمين – إلى اليوم – من يستحي من ذكر اسم امرأته أو أمه أو أخته، ويرى ذلك عيبا أو غير لائق. فيقولون عن الزوجة: الجماعة أو الأولاد، أو العائلة، أو نحو ذلك. مع أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يذكر أزواجه أمهات المؤمنين بأسمائهن بلا حرج، كما قال للأنصاريين اللذين مرا به وهو معتكف في المسجد، فأسرعا الخطا، فقال لهما: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**» أي زوجه عليه السلام.

ومظاهر التشديد والتضييق على المرأة كثيرة تكفينا منها هذه الإشارات.

وفي مقابل هذا الغلو في الإفراط نجد الغلو في التفريط في شأن المرأة، من جانب المتسيبين والمتحللين، الذين أرادوا أن يقلدوا الحضارة الغربية تقليد القردة، وأن يسيروا وراء فلسفتها الإباحية شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلت جحر

ضب لدخلوه، كما تنبأ بذلك الحديث النبوي الصحيح.

والعرب يضربون «جحر الضب» مثلا في الضيق والالتواء وسوء الرائحة، ومع هذا لو دخل الغربيون جحر ضب، لظهرت «مودة» في بلادنا تسمى «مودة جحر الضب»، لفقد الأمة أصالتها وذاتيتها، وتقليدها لغيرها تقليدًا أعمى.

وأظهر ما يكون ذلك في قضية المرأة: في تفكيرها وفي سلوكها، في ملابسها وزينتها، في لقائها بالرجال الأجانب عنها، في خطوبتها وزواجها، في تمردها على قيود الزوجية، بل تمردها على أنوثتها نفسها.

لقد رأينا المرأة المسلمة تقلد المرأة الغربية، فتتمرد على فطرتها التي فطرها الله عليها، ولا تريد أن تعترف بالفوارق البيولوجية الطبيعية بين الرجل والمرأة، وأن هذا لم يكن عبثا ولا اعتباطا، ولكن هذا الخلق لحكمة يعلمها الله. فاستجاب النساء للشيطان الذي أمرهن ليغيرن خلق الله تعالى، فرأينا المرأة تلبس لبسة الرجل، كما رأينا من الرجال من يلبس لبسة المرأة، وقد لعن رسولنا الكريم المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء.

ورأينا من سماهن الرسول ﷺ في حديثه «**الكاسيات العاريات، المميلات المائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها**» رواه مسلم.

وإذا كان في المضيقين على المرأة من يمنعها من إظهار شيء من بدنها إلا عينيها، بل حرم بعضهم إظهار عينيها، فلا تكاد ترى في المرأة سوى خيمة سوداء، فقد رأينا في دنيا المقلدين للغرب، من لا يكتفي بكشف الوجه واليدين للمرأة، بل يضم إلى ذلك الرأس والذراعين، بل العضد والنحر والساقين وما فوق ذلك، مما

يسمونه «الميني جيب» و«الميكروجب» ونحوها. على أن الجزء المكسو من المرأة لا يستر حقا، بل يشف ويصف، ويجسم المفاتن، تبعا لفلسفة اللباس والزينة في الحضارة الغربية المعاصرة: أنها ليست للستر، ولكن للإثارة، وأن «الفتنة» التي يحذر منها الإسلام هي الهدف الذي تسعى إليه المرأة الغربية، والمفتونات بمحاكاتها من بناتنا ونسائنا.

ورأينا من النساء في ديارنا العربية والإسلامية من يرفضن أحكام الشريعة الإسلامية جهرة، ومنهن من لا يعلن ذلك، ولكن يفسرنها بأهوائهن تفسيرا يجعلها تابعة للمفاهيم والتقاليد والأوضاع الغربية.

فمنهن من ترفض الطلاق، ومنهم من ترفض تعدد الزوجات، ومنهن من ترفض قوامة الرجل ومسئوليته عن البيت، ومنهن من ترفض دفع الرجل المهر، ومنهن من ترفض حكم الله في الميراث، وهؤلاء هن أسيرات الفكر الغربي العلماني، وهن لا شك قلة لا وزن لها في مجتمعاتنا، ولكن «الإعلام» يضخم دورهن، ويعلي صوتهن، ويوصله إلى أوسع الآفاق.

ولو أن هؤلاء طالبن بتصحيح الفهم، وتصحيح السلوك، والالتزام بوسطية الإسلام في هذه القضايا ورفض الآراء المشددة بغير حق، لرحبنا بذلك كل الترحيب، وفتحنا لهذا النهج صدورنا.

وآخر «البدع» التي سمعناها في هذا المجال؛ ما صدر عن مؤتمر عن المرأة، عقد في القاهرة منذ شهر أو شهرين، طالب فيه المؤتمرات والمؤتمرون بإلغاء «عدة المرأة» المطلقة والمتوفى عنها زوجها! والاستغناء عنها بالكشف الطبي.

وهذه جرأة غير معهودة تصدر من بلد الأزهر، فقضية «العدة» ليست قضية

من اجتهاد الفقهاء، حتى نقول: اجتهدوا لزمانهم، ونجتهد لزمننا، بل هي «قضية قرآنية» أعني أن القرآن الكريم نص عليها بآيات صريحة في كتابه في سورة الطلاق الكبرى - سورة البقرة - وسورة الطلاق الصغرى، المعروفة باسمها، وأكدها إجماع علماء الأمة في جميع المذاهب والمدارس، وهو إجماع أكده العمل من الأمة، المستمر أربعة عشر قرنا، أو تزيد.

والعدة ليست لاستبراء الرحم فحسب، وإلا لكفت في ذلك حيضة واحدة، وكفى في ذلك شهر ونحوه للمتوفى عنها زوجها، ولكنها سياج للحياة الزوجية السابقة، ولتظل المرأة مرتبطة بالرجل بهذا الخيط، وهذا يوجب لها النفقة منه، وترثه إذا مات في العدة، وحتى تكون فرصة كافية للمراجعة، فقد تعود المياه إلى مجاريها.

ولكن مما نحمد الله عليه أن هذه الصيحات الناشزة والشاذة لم يقم لها أحد وزنا في مصر، ولم يظهر لها أي أثر في التعديل الأخير لقانون الأحوال الشخصية، والذي أحدث ضجة كبرى، لخروجه في بعض مواده على المعهود في فقه المذاهب الأربعة، مثل إجبار الزوج على قبول الخلع إذا ردت المرأة ما دفع إليها، ما دامت كارهة له ولا تطيقه بغضا. ولكن كان هذا التعديل في إطار اجتهاد معتبر داخل الفقه الإسلامي.

أما الشئ الذي يستنكر حقا، فهو ما تدور رحاه اليوم في «المغرب»، حول ما سمي «خطة العمل الوطنية لإدراج المرأة في التنمية» فهذه الخطة - للأسف - ليست وطنية، ولا عربية، ولا إسلامية، بل هي غريبة عن الأمة وشريعتها، غربية المصدر والهدف والفكرة والروح، وهي تريد أن نسوي المرأة بالرجل تماما وفي كل شئ، على خلاف قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والقضاء على كل

أشكال التمييز بين الجنسين.

إن مرجعيتها ليست شريعة الإسلام، بل وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة (1994)، وثيقة مؤتمر المرأة في بكين (1995) وهما مرفوضتان عربيا وإسلاميا في كثير في موادهما.

فهي تريد منع تعدد الزوجات، وهو مما أحله الله بشروطه للمسلمين، وتريد أن تأخذ المرأة المطلقة نصف ممتلكات زوجها، كما هو المعمول به عند الغربيين، وتريد ألا يعتد بالطلاق إلا عند القاضي، وتريد إلغاء درجة القوامة التي جعلها الله للرجل، والتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث في كل صورة.

وقد وقف جميع علماء المغرب، ووزارة الأوقاف، والجماعات الإسلامية وجماهير الشعب المغربي ضد هذه الخطة المستغربة، المفتاتة على عقيدة الأمة وشريعتها وأخلاقياتها وأعرافها، والتي وضعتها مجموعة تريد أن تفرض على الأمة ما تأباه طبيعتها، وما تنكره شريعتها، وما يرفضه جميع فقهائها، وترفضه كذلك جماهيرها.

وهذا لا يعني إغلاق الباب في وجه التعديلات التي تنطلق من داخل الفقه الإسلامي، وفي إطار شريعته الرحبة، بكل مذاهبها ومشاربها، على أن يقوم على ذلك علماء يعتد بهم، غير متعصبين لرأي قديم، ولا مستبعدين لفكر حديث.

وهكذا رأينا قضية المرأة ضاعت بين غلو الإفراط وغلو التفريط.

***

الإخفاق في التربية الأخلاقية للأمة

9 - وآخر هذه الإخفاقات: هو الإخفاق في التربية الأخلاقية للأمة، حتى شاع في جنابتها التسيب والانحلال، وأعرضنا عن قيمنا الأصلية، التي جعلت منا خير أمة أخرجت للناس، واستبقينا قيما ورثناها من عصور الانحراف والانحطاط، مثل التجبر على الضعفاء، والخضوع للأقوياء، أو الأغنياء، والبخل على الفقراء، واستباحة المال العام، والاحتقار للمرأة، وإهمال الشأن العام، وشيوع النظرة الجبرية، وغير ذلك من الرذائل.

وأضفنا إلى القيم الهابطة الموروثة من عصور التراجع والانحطاط: قيما أشد منها هبوطا، وهي قيم غريبة عنا، بل دخلت علينا، وشابت نسيج حياتنا، ولوثت نظام قيمنا، وطرائق سلوكنا، مثل النظرة المادية والنفعية والفردية، وشيوع المسكرات والزنى والتحلل من أخلاق العفاف والإحصان وغيرها.

فلا غرو أن انتشرت المخدرات والسموم البيضاء بين الشباب بواسطة تجارها الذين يكسبون المليارات من وراء ترويجها، وتكسبهم الأموال نفوذًا وسطوة، حتى استطاع بعضهم أن يدخل تحت قبة البرلمان، وأن يشتري الكرسي بماله، ويشتري من رجال الحكم من يهيئ له ذلك، فكل مسئول عنده له ثمن، وإن غلا وارتفع في بعض الأشخاص عن بعض.

وانتشرت تجارة الدعارة بين الفتيات، عن طريق أولئك الذين لا يبالون أن يكونوا ثروتهم على حساب الأخلاق والحرمات، ويدوسون كل القيم في سبيل مكاسبهم المادية.

وانتشرت هذه «البلطجة» التي تستخدم العنف لتنفيذ ما تريد، وسحق كل من يقف في طريقها، ولم تجد من يحاربها كما حوربت جماعات العنف الديني.

ووجدنا من الجرائم البشعة ما لم يحدث مثله قط في الأزمنة الماضية، مثل قتل الابن أباه وأمه، وعمته وخالته، وقتل المرأة زوجها، والرجل لزوجته، وغير ذلك بطرق شنيعة بشعة، كتقطيع الجثة قطعا قطعا، ولفها في أكياس، وإلقائها في صناديق القمامة، ونحو ذلك مما تشيب له الولدان.

ورأينا جريمة «الاغتصاب» تشيع للأسف في بعض مجتمعاتنا، ولم تكن معروفة فيها من قبل، رأينا كيف تختطف المرأة من عرض الطريق، لينهش لحمها الناهضون، ويفتك بعرضها المجرمون.

وحين قلدنا الغرب، أخذنا أسوأ ما عندهم من رذائل الانحلال والإباحية، ولم نأخذ أحسن ما عندهم من العلم والتعاون، وحسن الإدارة والتنظيم، والمعرفة بحقوق الآخرين.

لقد شاعت بيننا رذائل الأنانية والاستبداد والرشوة، واتباع الهوى، ومراءاة الناس، وتزويق الظاهر، وإن كان الباطن خرابا، وحلاوة اللسان وإن كان القلب كالعلقم.

وقد قال شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

على الأخلاق خطوا المجدا　　فليس وراءها للمجد ركن

لم نأخذ من فضائل الغرب: حبهم للعمل، وتفانيهم فيه، وحرصهم على إتقانه،

وهذا سر تفوقهم الصناعي، وغزوهم للعالم بمصنوعاتهم. وقد نافسهم في ذلك اليابانيون، بل تفرقوا عليهم، بخلاف ما نحن عليه، مما لا يخفى على دارس أو مراقب.

لقد حسبت ساعات العمل في إحدى دولنا الكبيرة منذ سنوات، فوجد أن متوسط عمل الفرد حوالي نصف ساعة، فكيف يرقى شعب تضيع أوقاته سدى، وينفق أعمار أبنائه فيما لا يجدي؟ كالذين قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59].

إن الأخلاق ليست ترفا في الأمم، بل هي ضرورة لنهوضها ورقيها وتماسكها، أما إذا غاب العنصر الأخلاقي في السلوك، وحكمت المنافع والشهوات، فمعناها: سيادة «المافيا» بكل أنواعها، وانتشار المخدرات والسموم، وتجار الدعارة، وبيع المناصب، وإضاعة المال العام بغير حساب، واختراق الجواسيس لحرمات الأوطان عن طريق الخمر والجنس والمال، وهنا يكون العيش مرا، والحياة عبئا، ويتمنى الناس الموت، كما في الحديث الذي رواه الترمذي: «**إذا كان امراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**».

وقد وضع الحديث عبارة عن «**أمركم إلى نسائكم**» مقابل «**أمركم شورى بينكم**» إشارة إلى حكم الاستبداد والتسلط التي تحكم فيه نساء القصور من وراء ستار، كما قالت امرأة العزيز عن يوسف: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: 32]. ولقد هددت ونفذت.

ولقد أثبتت تجارب الحياة أن بذور الأخلاق لا يمكــن أن تســتنبت إلا في تربــة الدين ومناخ الإيمان. أما حين تسود الفلسفة المادية والنفعية والإباحية، فهيهات أن تسود القيم والفضائل.

في إحدى الفضائح المالية الشهيرة التي حوكم فيها بعض الــوزراء في بريطانيــا، كتب القاضي الذي حكم في القضية في نهاية أسباب الحكم هذه العبــارات: بــدون قانون لا تستقر أمة، وبدون أخلاق لا يحترم قانون، وبدون إيمان لا تسود أخلاق.

* * *

تحديات الأمة
في القرن الحادي والعشرين

- تحدي الهوية
- تحدي المرجعية
- تحدي التخلف
- تحدي التنمية
- تحدي العدالة
- تحدي المرأة
- تحدي الاستبداد
- التحدي الأخلاقي
- التحدي الصهيوني
- تحدي التجزئة
- تحدي العولمة

* * *

تحديات الأمة في القرن الحادي والعشرين

على ضوء ما ذكرنا من إخفاقات لأمتنا في مختلف جوانب الحياة، نستطيع أن نحدد ما يطلب من أمتنا، وهي تستقبل هذا القرن الجديد، أو هذا الألف الثالث للميلاد، إذ لا بد لنا أن نتبع مواضع الإخفاق، مجتهدين بكل طاقاتنا، أن نحول الإخفاق إلى نجاح، وهذه هي التحديات التي يجب أن نواجهها بوعي وشجاعة وبصيرة. وما الذي يحول بيننا وبين ذلك إذا وعينا ما نريد، وهيأنا له الوسائل الملائمة، وجندنا له الطاقات والقدرات، وصممنا على تحقيقه بإيمان وإصرار، ولا يوجد في الدنيا شيء مستحيل أمام الإيمان الصادق، والعزم المصمم، والبصيرة النيرة، وقد قيل: إذا صدق العزم وضح الطريق، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

فينبغي لنا أن نستعد لهذا القرن بما ينبغي له إيمانًا وأخلاقيًا فكريًا وعمليًا. وذلك بما يلي:

تحدي الهوية:

1 - أن نعلن بوضوح عن هويتنا، ونعرف من نحن؟ ولمن انتماؤنا؟ وهل لنا شخصية مستقلة أو نحن تابعون لغيرنا؟ وبعبارة أخرى: أنحن رأس في هذا العالم أم ذيل؟

والذي لا ريب فيه: أن لنا هوية متميزة، وشخصية مستقلة، وانتماء واضحًا كالشمس في رابعة النهار، فنحن مسلمون قبل كل شيء، وإذا كنا مسلمين، فنحن أصحاب رسالة، وحملة دعوة عالمية، دعوة متميزة بربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها،

والأمة مبعوثة بما بعث به رسولها الذي خاطبه ربه فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[40]، وقال عن رسالته: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[41]، وقال موجها لأمته: «**إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»[42].

ويجب على الأمة أن تعتز بهذه الهوية التي تجعلها في العالم رأسًا لا ذنبًا، وأن تعلن ما أعلنه عمر بن الخطاب بصراحة: حين قال: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله وبالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

وإذا أعلنا أننا مسلمون، فهذا لا ينفي أننا - في هذه المنطقة من الأرض - عرب لنا خصوصيتنا.

وأود أن أبين هنا بجلاء أنه لا تناقض بين الإسلام والعروبة، إلا إذا كانت العروبة لا دينية، أو كان الإسلام شعوبيًا.

فالعربية لسان الإسلام، والعروبة وعاؤه، والعرب حملة رسالته الأولون، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وأرض العرب هي منطلق الإسلام، وفيها مقدساته ومساجده الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها.

فينبغي أن يتفاهم الإسلاميون والعروبيون الوعاة المخلصون، ويتعاونوا على

---

(40) رواه الدرامي في «سننه» (ص9)، وابن سعد والحكيم الترمذي عن أبي صالح مرسلا، والحاكم عنه عن أبي هريرة، وذكره الألباني في «سلسلة الصحيحة» برقم (490).

(41) رواه ابن سعد في «الطبقات»، وأحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «الشعب»، وذكره الألباني في «الصحيحة» برقم (45)، وفي «صحيح الجامع الصغير» (2349) وأكثر الروايات بلفظ: «صالح الأخلاق».

(42) رواه البخاري في كتاب الوضوء (58) عن أبي هريرة.

النهوض بالأمة: مسلموهم ومسيحيوهم. المسلم يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة، والمسيحي يؤمن بالإسلام ثقافة وحضارة. فهذا هو التحدي الأول.

تحدي المرجعية:

2 - والتحدي الثاني: أن نحدد - بناء على ذلك - مرجعيتنا الأساسية التي نحتكم إليها إذا اختلفنا، ونستقي منها قيمنا وأسس حياتنا، وهي بلا ريب: الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقيا وقيما وآدابا ورابطة وثقافة وحضارة ومتكاملة.

ولا أعني بالإسلام: إسلام عصر من العصور، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام بلد من البلدان، ولا إسلام مدرسة من المدارس، إنما أعني به «الإسلام الأول» إسلام القرآن والسنة، الإسلام قبل أن تشوبه الشوائب، وتخالطه البدع، وتفترق فيه الفرق، وتعتسف في تفسيره وفهمه التأويلات.

ولا مناص لنا من أن نتبنى تيار «الوسطية الإسلامية» وهو التيار المعبر عن وسطية الإسلام، ووسطية أمته التي امتن الله بها عليها في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143].

وهو التيار الذي يجمع بين الإيمان والعلم، ويوفق بين العقل والنقل، ويربط بين الدنيا والآخرة، ويرحب بكل جديد نافع، كما يستفيد من كل قديم صالح، ويؤمن بالثبات في الأهداف والكليات، وبالمرونة في الوسائل والجزئيات، ويوازن بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، يستلهم الماضي، ويعايش الحاضر، ويستشرف المستقبل. يدعو إلى الرفق في الدعوة، والتيسير في الفتوى، والحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالف، والتدرج في التغيير. يدعو إلى الاجتهاد بشروطه، والتجديد بضوابطه، لا يفرط ولا يفرط، ولا يغلو ولا يتنطع، بل يبني ولا يهدم، ويجمع ولا

يفرق، ويحيي ولا يميت.

وحين نتخذ الإسلام مرجعا لحياتنا كلها، نسلم من التناقض والتمزق بين شرق وغرب، ويمين ويسار، ونلتقي على كلمة سواء، هي كلمة الله، وحكم شريعته ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153].

وبذلك نحقق ما تنادت به شعوبنا من ضرورة العودة إلى شرع الله، في ضوء اجتهاد عصري قويم، صادر من أهله في محله، ينظر إلى التراث بعين وإلى العصر بأخرى.

وموجب هذا: أن نحدد رسالتنا في هذا الوجود، فنحن أصحاب رسالة عالمية، ونحن مبعوثون للأمم كافة بما بعث به رسولنا الذي خاطبه ربه فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وعلينا – نحن أمة الإسلام – أن نوصل هذه الرحمة المهداة إلى أهل الأرض كافة، بالبلاغ المبين، وبلسان كل قوم لنبين لهم، وبلسان هذا العصر لا بلسان عصور سلفت، حتى تكون لنا حجة إذا سألنا ربنا يوم القيامة: هل بلغتم دعوتي إلى العالمين؟

ويجب علينا أن نستخدم كل أدوات العصر وآلياته المتطورة والهائلة؛ من الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة، والكلمة المرئية. وبعبارة أخرى: نستخدم المطبعة الحديثة، والإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائية التي تصل إلى أنحاء العالم، ونستخدم هذه الوسيلة الحديثة الجبارة: شبكة «الإنترنت» لدعوة غير المسلمين بلغاتهم المختلفة، ولتعليم المسلمين أيضًا الإسلام الصحيح، بعيدًا عن

تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وهذا ما جعلنا ننشئ موقعنا العالمي الرائد، لخدمة الإسلام على هذه الشبكة، وهو مشروع **Islam On Line** وهو ينطلق من قطر، ولكنه مشروع الأمة كلها، وقد سميته، «جهاد العصر» فهو يغنينا عن تجييش الجيوش، وتجنيد الجنود، لتوصيل دعوة الإسلام إلى الأقطار البعيدة.

تحدي التخلف:

3 - ولا بد لنا من وضع خطة للخروج من سجن التخلف إلى إباحة التقدم، فقد كنا نحن الأمة الأولى والعالم الأول ما يقرب من عشرة قرون، وكانت حضارتنا هي السائدة والمعلمة للعالم، فليس التخلف من طبعنا ولا طبيعة ديننا، ولا يجوز ألا نواكب الثورات التي يشهدها عالمنا وعصرنا: الثورة التكنولوجية، والثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، والثورة الفضائية، والثورة المعلوماتية، وثورة الاتصالات، ونوجهها لخدمة القيم العليا: الحق والخير والجمال، وكلها تتجسد في رسالة الإسلام.

لا يجوز أن نستخدم أدواتنا التقليدية في عصر الكمبيوتر، وعصر الإنترنت!

وذلك يتطلب منا أن نغير من أنظمتنا وفلسفتنا التعليمية، التي لا تخرج مثقفين ولا مبتكرين، وأن نوجه عناية خاصة إلى النبوغ والإبداع، ونستعيد العقول المهاجرة إلى أوطانها، وأن نلزم أنفسنا بخطة صارمة نقضي فيها على الأمية التي غدت نقطة سوداء في جبيننا، مع أن نبينا الأمي هو أول من حارب الأمية، ودعا إلى تعلم القراءة والكتابة. وعلينا أن نجند جيوش الطلبة والطالبات في الإجازات الصيفية لتعليم الأميين، وكل من كان دون الخمسين من عمره. حتى

نقضي علي الأمية في عشر سنوات، أو عشرين سنة إن كنا صادقين.

ولا بد من تهيئة مناخ صحي للإبداع والابتكار، وذلك بتوفير الكفاية والأمن والحرية، حتى يشعر الناس أنهم مطمئنون في حياتهم، غير خائفين على أنفسهم ولا أهليهم ولا حرماتهم، فينطلقوا إلى الأمام في غير قلق ولا وجل. فالقلق لا يحسن الإنتاج، والخائف لا يقدر على الإبداع، والجائع لا يستطيع الابتكار، كما قال الإمام محمد بن الحسن لجاريته، وقد أخبرته عن نفاد الدقيق في البيت، وهو في درسه: قاتلك الله، لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه كنت أعددتها في نفسي!

فهذا هو التحدي الثالث.

تحدي التنمية الشاملة:

4 - ومن أهم ما يجب علينا أن نهدف إليه، ونحرص عليه، ونخطط له: تنمية شاملة لمجتمعاتنا، يكون الإنسان هدفها، والإنسان وسيلتها. ولا سيما تنمية اقتصادنا بكل جوانبه وأركانه من زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، وسلامة التداول.

تنمية تخرج الأمة من التبعية الاقتصادية، وتمكنها من الاكتفاء الذاتي بالتكامل فيما بينها، وتجنيد طاقاتها المتنوعة حتى تأكل مما تزرع، وتلبس مما تصنع، وتنتج ما تحتاج إليه ولا تحيا عالة على غيرها. فعار على أمة بلادها زراعية أن تستورد نصف أقواتها أو أكثر، وعيب على أمة «سورة الحديد» ألا تتقن صناعة الحديد، وقد حفظت من كتاب ربها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25] وعبارة ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

إشارة إلى الصناعات المدنية، وهي كل على غيرها في الميدانين: المدني والعسكري معًا.

وإن لدى الأمة من الثروات المذخورة والمنشورة ما يكفيها ويفيض عنها. في سهولها وجبالها. ووديانها وصحاريها، وبحارها وبحيراتها وأنهارها، وموقعها المتميز، فضلا عن ثرواتها البشرية، وعلينا نحن أن نحسن استغلالها، كما نريد نحن، لا كما يريد لنا غيرنا.

تحدي العدالة الاجتماعية:

5 - ولا ننسى هنا تحديا خامسا: أن نحارب المظالم الاجتماعية المتفشية في عالمنا العربي والإسلامي، الذي نجد فيه من يملك البلايين ومن لا يملك الملاليم، ورأينا فيه القصور المتخمة بجوار الأكواخ المهدمة. وغالبًا ما يكون الثراء الفاحش من حظ الذين لا يعملون، والفقر المدقع من نصيب الذين يعيشون كادحين ويموتون محرومين.

لا بد من إقامة عدالة اجتماعية نحقق بها ما تأمرنا به شريعتنا، يعطي فيها كل ذي حق حقه، حتى يجد كل عاطل عمله الملائم، وكل عامل أجره المناسب، وكل جائع خبزه المشبع، وكل مريض دواءه الناجع، وكل عارٍ كساءه السابغ، وكل مبدع جزاءه العادل، وكل محتاج كفايته التامة.

عدالة حقيقية تزول بها الاحتكارات والامتيازات الطبقية والأسرية التي تجعل بعض الناس يكسب بلا عمل، ويثري بلا جهد، ويسمن من هزال الآخرين ولحمهم الحي.

إن المال مال الله والناس مستخلفون فيه، ولا بد أن يكون مال الله لكل عباد الله،

ولا يكون دولة بين الأغنياء منهم، ولا تستأثر به فئة وتحرم منه أخرى، وفي المال حقوق مفروضة، الزكاة أولها وليست آخرها.

وهذا هو ما فرضه الإسلام على أبنائه وحققه في مجتمعه بقوانينه الإلزامية، ووصاياه الترغيبية، ولم يجز الإسلام أن يشبع الإنسان وجاره جائع **«ليس المؤمن الذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه»**(43).

«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»(44).

«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»(45).

تحدي المرأة:

6 - وهنا تحد سادس يتمثل في «المرأة» وحقوقها ومشكلاتها؛ إذ لا بد لنا من عناية خاصة بالمرأة فهي نصف المجتمع من ناحية العدد، وربما كانت أكثر من ناحية تأثيرها في زوجها وأبنائها، إيجابيًا وسلبيًا، ولا يجوز بأي منطق إهمال نصف المجتمع.

لقد أعطيناها حقها في أن تتعلم، ولكنا في كثير من مجتمعاتنا حجرنا عليها أن تمارس حقها السياسي في التصويت والترشيح، والله تعالى قد قال في كتابه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(43) رواه الحاكم عن عائشة وصحح إسناده ووافقه الذهبي (4/ 167)، وروى الطبراني وأبو يعلى نحوه عن ابن عباس ورواته ثقات «المتقى من الترغيب» حديث (1531).

(44) رواه ابن ماجه عن ابن عمر، وأبو يعلى عن أبي هريرة والطبراني في «الأوسط» عن جابر وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (1055).

(45) رواه مسلم وأحمد والبخاري في «الأدب المفرد» عن جابر. المصدر السابق (102).

﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71]. والرسول ﷺ قال: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(46).

ويجب علينا أن نساعد المرأة على أداء واجبها الأول، وهو تدبير البيت، ورعاية الزوج، وتنشئة الجيل، فهذا لا ينازعها فيه أحد، ولا يقوم مقامها أحد.

ونساعدها على أن تكون زوجة صالحة، وأمًّا صالحة، ومواطنة صالحة، ولا نحرمها حقها في العمل، إذا احتاجت إليه، أو احتاجت إليه أسرتها كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير اللتين سقى لهما موسى. أو احتاج إليه المجتمع نفسه، كما في معلمة البنات، وطبيبة النساء، وممرضة النساء ونحوهن.

وعلينا أن نقاوم نزعتي الإفراط والتفريط في قضية المرأة، فلا نغلو في التضييق عليها، كما يفعل المشددون باسم الدين، ولا نبالغ في إطلاق العنان لها، لتفعل ما تشاء باسم الحرية، فلا خير في هذا ولا ذاك. إنما المطلوب المنهج الوسط، وهو الذي يتفق مع منهج الإسلام.

إن المرأة إذا صلحت صلحت الطفولة، وصلحت الأسرة، وطابت الحياة(47).

تحدي النظم الاستبدادية:

7 - يتوج هذا كله نظم سياسية لا تخاف من شعوبها، بل تحبها وتحترمها، وتزيل الفجوة القائمة بينهم وبينها. نظم ترعى حقوق الإنسان وتحترم كرامته وحريته، وتصون حرماته، وتحمي دمه وماله وعرضه. نظم يختار الناس فيها

---

(46) رواه أحمد عن عائشة، وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (1983)، وكذا رواه الترمذي عنها في الطهارة (113)، وروى أحمد نحوه عن أم سليم.

(47) انظر: كتابنا «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة والمكتب الإسلامي ببيروت. وانظر كذلك: موسوعة «تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبد الحليم أبو شقه.

حكامهم ولا يفرضون عليهم، ومن حقهم – بل من واجبهم – أن ينصحوا لهم، وأن يراقبوهم ويحاسبوهم، وأن يقولوا لهم: لم؟ ولا، دون أن يؤذوا في أنفسهم أو في أهليهم.

وأن يقوموا عوجهم إذا اعوجوا، لا بحد السيف كما قال الأعرابي لعمر رضي الله عنه، بل بسلطة المجالس النيابية، وقرار الأغلبية.

نظم تحقق ما قاله أبو بكر في أول خطبة له: إلا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وقول عمر: من رأى منكم في اعوجاجا فليقومني، رحم الله امرءا أهدى إلي عيوب نفسي.

وقول عمر بن عبد العزيز: إنما أنا واحد منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا.

نظم تأخذ من الديمقراطية ضماناتها وأساليبها، وقدرتها على تقليم أظافر الطغاة المستبدين، وبها نحقق روح الشورى والنصيحة والمسئولية في السياسة الشرعية الإسلامية، ونعلي كلمة الأمة، ونتبع السواد الأعظم، لا كل جبار عنيد، ونقيم عدل الله في القريب والبعيد، والشريف والوضيع، دون محاباة ولا تمييز، وبذلك تقوم شورى العدالة والحرية لا ديمقراطية المخالب والأنياب، كما سماها بعض الحكام.

وفي ظل هذا المناخ الصحي يتربى الفرد الحر، والإنسان العزيز، والمؤمن القوي، الذي يستطيع أن يقول بملء فيه: لا، إن أراد، ولا يخاف لومة لائم، ولا ظالم ظالم.

ومن هؤلاء الأفراد الأقوياء تتكون الأمة القوية.

التحدي الإيماني والأخلاقي:

8 - وفوق ذلك كله، بل قبل ذلك كله، لا بد من تعبئة الأمة تعبئة إيمانية وأخلاقية، حتى تسمو في الإنسان نفخة الروح على الطين والحمأ المسنون. فالماديات وحدها لا تصنع أمة إنما تصنعها معها، بل قبلها المعنويات: الأهداف الكبيرة والآمال العريضة، والقيم الرفيعة.

لا بد من تهيئة المناخ الثقافي والاجتماعي والنفسي لتربية الإنسان المؤمن المثالي، الذي يستعلي على شهوات النفس، وتراب الأرض، وينتصر على المغريات بالشر، والمعوقات على الخير، والمثبطات على الحق.

وعلى كل الأجهزة والمؤسسات المؤثرة أن تتعاون على هذه الغاية: من المدرسة والجامعة والمسجد والبيت والصحيفة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسينما والنادي والمركز الثقافي وغيرها. حتى تبني الإيمان بالله ورسالاته والدار الآخرة، وتنمي هذا الإيمان حتى يثمر العمل الصالح، والخلق الفاضل، مما يشمل عبادة الله وعمارة الأرض ومنفعة الناس.

إن الإيمان ليس ضرورة للفرد للنجاة في الآخرة من النار، والفوز بالجنة فقط، بل هو ضرورة للحياتين معًا. من أراد الآخرة فعلبه بالإيمان، ومن أراد الدنيا فعليه بالإيمان، ومن أرادهما معًا فعليه بالإيمان.

إن الإيمان ضرورة للفرد لكي يطمئن ويرقى ويسعد، وهو ضرورة للمجتمع لكي يتماسك ويتعاون وينهض.

الإيمان ضرورة لتربية «النفس اللوامة»، أو الضمير الحي، وتقوية باعث الدين في

مواجهة باعث الهوى، وتنمية دواعي الخير في مقابل دوافع الشر. فالقوانين وحدها لا تكفي لإصلاح البشر.

ثم إن الإيمان يضاعف قدرة الإنسان على العمل والبناء، حتى إنه ليمكنه أن يعمل بعشرة أضعاف طاقته العادية إذا قوي إيمانه إلى درجة عالية، وصحبته إرادة قوية، عبر عنها القرآن بـ «الصبر» وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

وما يقال في المجال العسكري والجهادي يقال في المجال الاقتصادي والعمراني.

لن ترقى الأمة باللاهين العابثين، ولا بالمنحلين ولا المخمورين، ولا بتجار الأغذية الفاسدة والموثة، وتجار المخدرات، إنما ترقى الأمة بالأطهار المستقيمين على الجادة، وهؤلاء هم أهل الإيمان.

وهذه هي القضايا أو التحديات التي يجب على أمتنا أن تستقبل بها القرن القادم، وعندها من الثروات والطاقات البشرية والمادية والحضارية والروحية: ما يمكنها من القيام بدورها واستعادة مجدها ومكانتها، إذا توافرت لها القيادة الراشدة، والنية القاصدة، والعزم المصمم.

يجب أن تدخل هذه القضايا في صميم ثقافتنا وتعليمنا وإعلامنا الديني والمدني، وأن يتعاون عليها البيت والمدرسة، والجامع والجامعة، والنخبة والجمهور، والشعب والحكومة. وقد قيل: إذا صدق العزم وضح الطريق.

وبقيت تحديات أخرى خطيرة، سنفردها بحديث خاص.

* * *

تحديات كبرى

هذه التحديات التي ذكرناها، كلها مهم، وكلها ضروري، لحياة الأمة وبقائها واستمراها في رسالتها الربانية والإنسانية والأخلاقية والحضارية، التي تميزها عن غيرها، وهي مبرر وجودها بوصفها أمة لا يغنى عنها غيرها.

ولكن هناك تحديات ثلاثة أكثر أهمية وخصوصية، من سائر التحديات، يجب على أهل الفكر، التركيز عليها، وهي:

1 - التحدي الأول وهو «التحدي الصهيوني» وما يفرضه الآن من تسوية يمليها القوي على الضعيف، وما يريده وراء ذلك من «تطبيع» مع العرب والمسلمين.

2 - والتحدي الثاني، وهو «تحدي التجزئة والتفكيك» الذي تحرص عليه كل القوى المعادية للأمة.

3 - والتحدي الثالث هو «تحدي العولمة» التي كثر الحديث عنها اليوم، ويراد فرضها علينا، بما تحمله من معاني الهيمنة الإمبريالية الجديدة.

وسنخص كلا من هذه الثلاثة بحديث يناسبه.

* * *

1 - التحدي الصهيوني

في هذا القرن الجديد الذي يطل علينا عن قريب، سنة 2001 نجد أنفسنا – نحن العرب والمسلمين – أمام تحديات كبرى، هي يقينا من بقايا القرن الذاهب. وهي تحديات خليقة بأن تستثير فيما الكوامن، وتستنفر منا كل القوى، حتى نجند لمواجهتها طاقاتنا البشرية والمادية، والعقلية والروحية، ونقف لملاقاتها صفا واحدا، كالبنيان المرصوص، فنحن أمام معركة عريضة الساحة، متنوعة الأسلحة، متعددة الجبهات، ومع عدو بارع التكتيك، ماهر في الكر والفر، مسنود بقوى كبرى، تؤيده بالحق وبالباطل.

وهذه المعركة الكبرى تقتضي منا أن نوحد جبهتنا، ونجمع صفوفنا، فلا مجال هنا للاختلافات الجزئية، ولا للمعارك الجانبية، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

تشير الآية الكريمة أنه عند ملاقاة الأعداء، يجب أن يصطف الجميع متراصين، كالبنيان يشد بعضه بعضا، والبنيان المرصوص يقتضي التلاصق والتلاحم والاستقامة والانتظام. وهذا ما يوجبه منطق المعركة على من يعيها ويتهيأ لخوضها بقوة وجدارة.

أول التحديات وأكبرها:

إن أول التحديات وأكبرها وأخطرها هو «التحدي الصهيوني» ولا سيما في هذه المرحلة التي تمر بها قضيتنا المركزية الأولى – نحن العرب والمسلمين – قضية أرض الإسراء والمعراج، أرض النبوات، أرض المسجد الأقصى.

مرحلة «التسوية» التي تريدها إسرائيل، وتهدف إلى فرضها على المنطقة تحت عنوان «السلام». ويبدو أن إسرائيل - بمعاونة حليفتها الدائمة أمريكا - موشكة على النجاح في فرض التسوية التي تنشدها، فقد بدأت بمصر، وثنت بمنظمة التحرير، وثلثت بالأردن، وها هي تختم بسوريا، ومعها لبنان.

ترى ماذا يكون مصير صرخات «الإسلاميين والقوميين» في مؤتمراتهم الثلاثة التي عقدت في بيروت، سنة 1994 و 1997 و 2000م هل ستذهب كما قيل، صيحة في واد، ونفخة في رماد؟!

وما مصير القدس في التسويات الجارية اليوم؟

هل يفرط دعاة التسوية في القدس عاصمة لدولة فلسطين المنشودة؟

أو يقبلون قدسا أخرى تصنع صناعة على عين إسرائيل، مثل «أبو ديس» لتكون بديلا للقدس الحقيقية: قدس المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية والمسيحية؟

لقد دعا «المؤتمر القومي الإسلامي» الأخير في بيروت إلى ضرورة عقد مؤتمر خاص بالقدس، في أقرب وقت ممكن، ليخاطب أمة العرب والإسلام، ويضعها أمام مسئوليتها الدينية والقومية والتاريخية.

والأمر لا شك خطير خطير، ويستوجب الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ عندما يرى الخطر الداهم، ولا يستطيع مقاومته وحده، وذلك لتنبيه أمتنا الكبرى من غفوتها، وإعادة وعيها إليها، بعد أن نومها المنومون، وخدرها المخدرون، بأساليب شتى. والأمة - بفطرتها وإيمانها، وقواها المذخورة في حناياها - قادرة على التصدي للخطر ومواجهته بصلابة وعناد، إذا وجدت من يعرف كيف يقودها، ويفجر طاقاتها المكنونة، ويستخرج قدراتها المخزونة، حين يقودها

ويناديها باسم الله، كما ناداها من قبل نور الدين محمود، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز.

مقاومة المشروع الصهيوني:

على أنه لا يمكن لأمتنا أن تنهض بعبء الآمال والأهداف الكبيرة التي ترنو إليها من التقدم والتنمية والبناء الحضاري، ما لم تواجه المشروع الصهيوني المعادي لوجودها، المناقض لبقائها، الممزق لوحدة أرضها، ولا يكون هذا بالدعاوى العريضة، ولا بالاستسلام الذي يسمونه «السلام» ولكن بالوعي البصير وبناء الإيمان العميق، وتقوية أمتنا عسكريًا ومدنيًا، وتعبئة الأمة كل الأمة للمواجهة النفسية والفكرية والحضارية لأحلام إسرائيل الكبرى، التي لم تمت كما يقال، بل لا زالوا يقولون: من الفرات إلى النيل، ومن الأرز إلى النخيل.

وإذا كان حكماء صهيون استطاعوا أن يحولوا أحلامهم إلى حقائق بالعلم والعمل والجد والدأب، فنحن أولى بذلك منهم، وعندنا من بشائر الدين، ودوافع التاريخ، وحقائق الواقع ما يملؤنا يقينًا وثقة بالمستقبل(48).

ولا بد لنا أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به، لا يجوز لنا أن نحذف الدين من مواجهتنا لهم، وهم يجندون جنودهم، ويعبئون قواهم باسم الدين. وقد قيل: لا يفل الحديد إلا الحديد.

وحديدنا أقوى وأصلب من حديدهم. فإذا واجهونا باليهودية واجهناهم بالإسلام، وإذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا:

---

(48) انظر: كتابنا: «المبشرات بانتصار الإسلام»، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ببيروت.

الأقصى، وإذا قالوا: يوم السبت قلنا: يوم الجمعة، وإذا حشدوا حشودهم باسم موسى حشدنا حشودنا باسم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فنحن أولى بموسى منهم!

إن مقاومة المشروع الصهيوني فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين بنصوصه وقواعده، وضرورة يحتمها الواقع بآلامه وآماله، ضرورة النهوض بالحاضر، والإعداد للمستقبل.

تحدي التطبيع:

على أن أخطر ما تحمله المرحلة القادمة للأمة هو ما تهدف إليه إسرائيل، وتحرص عليه، وتسعى بكل قوتها لتحقيقه، بعد التسوية، وهو ما يسمونه «التطبيع».

وما معنى «التطبيع»؟ التطبيع أن تجعل الشيء طبيعيا، وكيف يكون غير الطبيعي طبيعيا؟ كيف يصبح العدو - وهو مقيم على عدواته - صديقا؟ وكيف يكون اللص صديقا لصاحب الدار التي سرقها؟ وهذا ما تريده إسرائيل؟ تريد دمج الكيان الصهيوني في المنطقة، بإحداث تغيير نفسي وعقلي عند شعوب الأمة، بحيث يتقبلون هذا الكيان العدواني الغاصب، ويسلمون بوجوده بينهم، دولة يهودية ذات سيادة، والقضاء على مشاعر العداء المتأصل لذلك العدو الكافر الماكر الغادر، الذي ذكره القرآن بالتمرد على الله تعالى وعلى رسله، ووصفه بالقسوة والغدر والتلون والكذب وغيرها من الرذائل. والتطبيع هو إحدى الآليات الفاعلة، لتحقيق الحلم اليهودي الكبير في المنطقة، التي يراد إلغاء اسمها المعروف «الوطن العربي» أو «الإسلامي» ليصبح اسمها «الشرق الأوسط».

إنه ليس «التطبيع» كما يقولون، ولكنه «التطويع» أو «التمييع» أو «التركيع». إنه محاولة لنزع مخالب الأمة وأنيابها، حتى تستسلم لمن يفترسها.

إنه محاولة كسر الحواجز كلها: نفسية وثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية. لتصول إسرائيل في المنطقة وتجول وتعربد، كما تشاء. ولا تجد أي مقاومة لها، حتى المقاومة النفسية الأصيلة والكامنة في صدور أمتنا، لا يريدون لها أن تبقى، لتكون إسرائيل كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فبيضي وأصفري ونقري ما شئت أن تنقري!

وهو ما يجب على أمتنا أن ترفضه رفضا كليا، فهو رصيدها الدائم لجهاد المستقبل، وهو الكفيل بأن يخرج لنا صلاح الدين من جديد.

آفات التطبيع وأخطاره على الأمة في شتى جوانبها:

وعلينا أن نبين لأمتنا آفات التطبيع وغوائله، ونكشف القناع عن أخطاره المرتقبة على جوانب حياتها كلها، حتى تتضح لها الحقائق، ولا يلبس عليها المبلسون.

وسأنقل هنا بتصرف أخطارنا هذا التطبيع من دراسة قديمة لإخوتنا في حركة المقاومة الإسلامية «حماس». ليكون فيها تبصرة للذين لا يعلمون، وتذكرة للذين يعلمون.

1 - في المجال الفكري والنفسي:

لقد شكل الحاجز النفسي المنبثق من البعد الفكري والعقدي في نظرة الإسلام لطبيعة اليهود سدًا منيعًا في وجه جميع محاولات التطبيع خلال السنوات الماضية. كما أن الموقف الإسلامي الرافض للتنازل عن أي جزء من الأرض الإسلامية

والداعي إلى ضرورة الجهاد من أجل تحريره قد ساهم في تعزيز الحاجز النفسي ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ويهدف العدو الصهيوني من خلال تطبيع علاقاته مع الدول العربية والإسلامية في المجالات المختلفة إلى تحطيم الحاجز النفسي والفكري، وتغيير مفاهيم وأسس الصراع بين المسلمين واليهود، وهز الدعامات الفكرية والعقائدية لذلك الصراع، كما يهدف إلى قتل روح الجهاد والمقاومة والصمود لدى الأمة وهزيمتها وقهرها نفسيًا، وترويضها لقبول الكيان الصهيوني المحتمل كأمر واقع في المنطقة. ويدخل في هذا المجال العمل على تغيير المناهج التربوية والدراسية بهدف غسل أدمغة الجيل القادم وتجهيله بحقيقة الصراع مع العدو اليهودي.

2 – في الجانب السياسي والإعلامي:

ويشمل التطبيع في هذا المجال الاعتراف بما يسمى «دولة إسرائيل» وحقها في السيادة والعيش بحدود آمنة، وفتح السفارات، والتمثيل الدبلوماسي، وتبادل السفراء والقناصل، ورفع الأعلام الإسرائيلية في العواصم الإسلامية، واللقاءات والزيارات السياسية على مستوى الزعماء والقادة، والعلاقات المتبادلة بين المؤسسات السياسية والبرلمانية والحزبية، وعقد اتفاقيات وبروتوكولات التعاون المشترك، كما يشمل أيضًا منع كل ما من شأنه أن يفسر على أنه تحريض، أو إثارة أحقاد في وسائل الإعلام، وفرض رقابة صارمة على كل ما يمكن أن يتضمن إساءة لأجواء السلام المزعوم.

وستسمح أجواء التطبيع والتعايش للكيان الصهيوني باستقدام أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، دون أن يثير ذلك أي احتجاج رسمي في الأوساط العربية

والإسلامية الرسمية، كما أنها ستلغي الصورة العنصرية القمعية للكيان الصهيوني، وتفتح أمامه الأبواب لاختراق دول العالم التي كان يتحفظ بعضها على إقامة علاقات معه، بسبب حالة العداء القائمة بينه وبين الدول الإسلامية.

3 - في الجانب الاقتصادي:

ويشمل التطبيع الاقتصادي مع الكيان الصهيوني مجموعة من الخطوات الطبيعية في مقدمتها إلغاء المقاطعة الاقتصادية التي ألحقت بالاقتصاد الصهيوني خلال سنوات المقاطعة خسائر تقدر بحوالي 48 مليار دولار، وفق ما أوردته دراسة أعدتها غرفة التجارة في الكيان الصهيوني. كما تشمل تلك الخطوات حرية انتقال رءوس الأموال والأيدي العاملة، والرحلات الجوية المباشرة وفتح المجالات الجوية أمام الطيران الصهيوني، وفتح طرق المواصلات والنقل والاتصالات «هاتف، فاكس، تلكس» وشبكات الكهرباء المشتركة والتطبيع السياحي.

ونظرًا إلى أن الدول العربية والإسلامية في غالبها هي مجتمعات استهلاكية محدودة الإنتاج، فإنها لن تكون قادرة باقتصادياتها الضعيفة على مواجهة الاقتصاد الصهيوني القوي والمتفوق بدرجة كبيرة، حيث يبلغ مجمل الإنتاج الصهيوني أكثر من 60 مليار دولار سنويًا، وهو يزيد على مجموع الناتج القومي لدول الطرق بما فيها مصر.

ولا شك في أن فتح الأسواق أمام الصادرات الصهونية، ربما يؤدي إلى إغراق الأسواق العربية والإسلامية بالمنتجات الصهيونية المتطورة وذات القوة التنافسية العالية، وهو ما قد ينجم عنه تدمير كثير من الصناعات العربية والإسلامية، وتخريب القطاع الزراعي والصناعي، وخصوصًا أن تمكين الكيان الصهيوني من

الحصول على النفط والمواد الخام الأخرى من الأسواق العربية بكلفة أقل كثيرًا سيزيد من قدرة منتجاته على المنافسة.

وإذا ما نجح الكيان الصهيوني بدعم أمريكي وقبول إقليمي في تطبيق فكرة «السوق الشرق أوسطية» المطروحة في هذه المرحلة، والتي تتضمن إنشاء شركات عملاقة متعددة الجنسية، ومصارف ومؤسسات اقتصادية وتجارية وإعلامية ضخمة، وتحركًا حرًا للسلع والخدمات ورؤوس الأموال والخبرات والأيدي العاملة دون عوائق أو حواجز، فإن النتائج السلبية التي يمكن أن تترتب على الاقتصاد العربي والإسلامي ستكون بالغة الخطورة.

والخلاصة أن العدو الصهيوني يسعى إلى الهيمنة الاقتصادية على الأمة وإلحاقها بعجلة اقتصاده عن طريق إقامة مشاريع اقتصادية كبيرة تتيح له التحكم في المصالح الحيوية للأمة في المياه والكهرباء والنفط والموصلات ... . إلخ، كما يسعى العدو إلى إدارة اقتصادية في المنطقة يكون دور العرب والمسلمين فيها دور الأيدي العاملة، ومصدر الطاقة والثروة، والسوق الاستهلاكية الضخمة.

4 – في المجال العسكري:

بحجة انتهاء حالة الحرب وضرورة الاهتمام بقضايا التنمية، سيعمد الكيان الصهيوني إلى الضغط على الدول العربية والإسلامية من أجل تقليص أعداد جيوشها، وتخفيض برامجها العسكرية في التسلح، وستلعب الولايات المتحدة دورا في الضغط من أجل الحد من تصدير الأسلحة وخاصة المتطورة، إلى دول المنطقة، باستثناء الكيان الصهيوني. كما يسعى العدو – تحت ستار التسوية والتطبيع – إلى منع الخيار النووي الإسلامي، ما استطاع، وتجريد الأمة من أسلحتها الاستراتيجية

والفاعلة، وكما أقدم في الماضي على ضرب القوة النووية العراقية، فإنه يخطط لضرب القوة النووية الباكستانية والتحريض على جهود إيران في هذا المجال.

5 – في المجال الأمني:

قامت أجهزة الأمن المصرية خلال السنوات الماضية التي أعقبت توقيع اتفاقية كامب ديفيد باكتشاف العديد من شبكات التجسس والتخريب وتهريب الأسلحة، وبالتالي فإن الكيان الصهيوني يسعى عبر برامج التطبيع والتعايش إلى اختراق المنطقة أمنيًا، عبر زرع شبكات التجسس من العملاء، واختراق أجهزة المخابرات العربية الإسلامية، وتنفيذ الأعمال التخريبية بهدف زعزعة الأمن والاستقرار في الدول العربية والإسلامية، بل وسيعمل جاهدًا، وبضغط من أمريكا، على التعاون بين أجهزته الأمنية والأجهزة الأمنية العربية والإسلامية.

6 – في الجانب التربوي:

يسعى الكيان الصهيوني في الجانب التربوي إلى تغيير المناهج التربوية في الدول الإسلامية بما يتلاءم ومعطيات المرحلة الجديدة، بحجة تعميق مفاهيم السلام والتعايش، وإزالة مشاعر الحقد والكراهية بين الشعب اليهودي والشعوب الإسلامية. وسيتطلب ذلك إدخال تعديلات وتغييرات كثيرة جوهرية على المناهج التربوية كما حصل في مصر سواء كان ذلك في المواد الدينية والتاريخية التي تتحدث عن طبيعة اليهود وتاريخهم الأسود في ممارساتهم مع الرسول ﷺ والآيات القرآنية التي تتحدث عن عدواتهم، أو كان ذلك في الجغرافيا وتعديل الخرائط بما ينسجم مع الاعتراف بالكيان الصهيوني.

7 - **في الجانب الأخلاقي:**

سيعمل الكيان الصهيوني في هذا المجال على نقل الأخلاقيات الفاسدة من فجور وزنى وشذوذ وتعاطي مخدرات، وشرب خمور إلى المنطقة، وسيعمل على توسيع انتشارها عبر شبكات الإفساد الأخلاقي التي ستدخل تحت ستار الوفود السياحية، وسيكون بإمكانها التجول بكل حرية في المنطقة. كما سيعمد إلى نشر الأمراض الجنسية كما حدث في مصر، حيث اكتشف العديد من الشبكات مهمتها نشر الأمراض في أوساط الشباب المصري.

وقد لوحظ أن انتشار مرض الإيدز والمخدرات قد تزايد بشكل واضح في المجتمع المصري نتيجة الجهود الصهيونية، برغم مقاومة الشعب المصري للتطبيع، ولا شك أن التدمير الأخلاقي للأمة وإشاعة جو الانحلال والفساد فيها هو إضعاف لها وانشغالها عن دورها الريادي والحضاري، كما أنه يمثل ضربًا لأحد عناصر قوتها الرئيسية وهو الشباب، مما يضعف قدرتها على المقاومة والصمود في وجه الهجمة الصهيونية.

8 - **الأخطار على الحركات الإسلامية:**

فالكيان الصهيوني الذي يروج بعد سقوط الخطر الشيوعي لدور استراتيجي جديد له في المنطقة يتمثل في التصدي لخطر الأصولية الإسلامية على مستوى الحركات الإسلامية والدول «إيران والسودان» ويدرك أن الحركات الإسلامية ستكون الطرف الأقوى والأقدر على مواجهة خططه التوسيعية في اختراق المنطقة. ولذلك يسعى إلى استغلال أجواء التطبيع والتقارب مع الأنظمة الرسمية من أجل تحريضها ضد الحركات الإسلامية والإيقاع بين الطرفين وإنهاك واستنزاف طاقاتهما. بل إن أصابع اليهود تمتد للمشاركة في التآمر على كل قضايا الجهاد

والتحرر الإسلامية وضرب مشاريع النهوض الإسلامية في الأمة.

9 – الأخطار على الأمن القومي العربي والإسلامي:

إن سياسة العدو الإستراتيجية في المنطقة تقوم على إضعاف الجبهة العربية والإسلامية المواجهة وتشتيتها وشرذمتها، وسيحرص الكيان الصهيوني خلال هذه المرحلة والمرحلة القادمة على إيجاد المزيد من أسباب الفرقة وتمزيق الصف العربي والإسلامي للحيلولة دون حدوث أي شكل من أشكال التقارب أو التنسيق والتضامن العربي والإسلامي. وسيعمل عبر اتفاقيات التسوية والتطبيع على جعل علاقات تحالف الدول العربية والإسلامية معه مقدمة على أي علاقة أخرى بين الدول العربية والإسلامية نفسها، كما سيؤدي إقامة الأحلاف الأمنية والاقتصادية على مستوى المنطقة، وإضعاف القدرات العسكرية والاقتصادية العربية، مقابل تعاظم القوة العسكرية الصهيونية، إلى تهديد الأمن القومي العربي والإسلامي الذي يعاني حالة من التصدع والانهيار، ولا شك أن مخططات العدو الصهيوني في إثارة النعرات الطائفية والإقليمية والعرقية في الأمة، سيهدد وحدتها ونسيجها الاجتماعي، وسيؤدي إلى عدم استقرارها وإلى تمزيقها إلى كيانات وكانتونات صغيرة متناحرة مرتبطة بالكيان الصهيوني ومستقوية به في مواجهة جاراتها، مما يعني في النهاية تدميرًا لوحدة الأمة ولأمنها واستقرارها وعناصر قوتها.

لونان خطران من التطبيع:

ونريد أن نركز هنا على لونين من «التطبيع» تهدف إليهما دولة الكيان الصهيوني، وترمي بكل ثقلها ومن وراءها لفرضهما على المنطقة، وهما: التطبيع الاقتصادي، والتطبيع الثقافي، ولا بد لنا أن نفرد كلا منهما بحديث، ولا سيما التطبيع الثقافي،

الذي يهدد هوية الأمة، وشخصيتها الدينية والتاريخية.

التطبيع الاقتصادي:

التطبيع الأول الذي تحرص عليه اسرائيل وحليفتها أمريكا في المنطقة العربية والإسلامية: «التطبيع الاقتصادي»، بمعنى فتح الأبواب والنوافذ، بيننا وبين إسرائيل، وإزالة كل الحواجز، لتبيع لنا وتشتري منا، بلا عقد ولا تأثم، وإلغاء «المقاطعة» المفروضة ضد إسرائيل وبضائع إسرائيل.

ومن العجائب أن بعضهم يزعم أن هذا الانفتاح الاقتصادي سيصب في صالحنا في النهاية، وكيف وهم الذين ينتجون ويصدرون ويبيعون، ونحن السوق المفتوحة لسلعهم، ما ينفع منها وما يضر؟

والواقع أن المقاطعة سلاح بقي في أيدينا، لا يجوز لنا أن نتخلى عنه. وقد عرف الناس من قديم هذا السلاح واستخدموه، وكان له أثره الفعال، كما رأينا ذلك في السيرة النبوية، حيث قاطعت قريش الرسول ﷺ وأصحابه ومن تعصب لهم من بني هاشم وبني المطلب، فكانوا لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات، قاسى المسلمون فيها ما قاسوا من الجوع وقسوة العيش، حتى أكلوا أوراق الشجر.

والواجب شرعا على المسلمين أن يظلوا مقاطعين لاقتصاديات إسرائيل، لأن كل درهم أو دينار أو ريال أو جنيه يصل إليهم، يتحول في النهاية إلى رصاصة في صدر واحد من أبناء فلسطين، بل في صدر العرب أجمعين.

ويجب علينا – نحن العرب – أن ندعو المسلمين في كل مكان، في داخل العالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي – حيث تعيش الأقليات والجاليات الإسلامية

المختلفة – إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية والسياحة الإسرائيلية، وأن نكشف الدعاية لذلك بين المسلمين، وهم اليوم حوالي المليار وثلث المليار في العالم.

التطبيع الثقافي وكيف نواجهه؟

والتطبيع الآخر الذي تحرص عليه دولة الكيان الصهيوني، هو «التطبيع الثقافي».

ومعنى التطبيع الثقافي: أن نغير منطقنا الثقافي، ونتنازل عن مسلماتنا الثقافية، واتجاهاتنا الفكرية، وهويتنا الثقافية المعبرة، عن ذاتيتنا، وخصوصية حضارته، وتميز رسالتنا، نتنازل عن هذا كله لننمج باختيارنا في الكيان الجديد الذي يراد لنا أن ندخل في نسيجه ونفني فيه، فلا نبقى عربا ولا مسلمين، بل – كما يقولون – شرق أوسطيين، لا فرق بيننا وبين بني صهيون.

هذا هو التطبيع الثقافي الذي يراد منا أن نقبله اليوم، ويروج له أناس من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويتهموننا – نحن المعارضين لهذا التطبيع المشؤوم – أننا جماعة منغلقون متعصبون، نعيش في الماضي، وأنهم وحدهم دعاة التسامح والانفتاح، وما هم إلا دعاة التدمير والاجتياح لشخصية الأمة وخصائصها.

ولا بد لي هنا أن أنقل في مواجهة التطبيع الثقافي، ومنهج هذه المواجهة: فقرة مطولة، مما كتبه الدكتور مجدي حماد[49] في ورقته الخصبة التي قدمها للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث في بيروت يناير 2000 يقول حفظه الله:

«وفي ظروف عالم اليوم، من الملاحظ أن مسلسل التطبيع الثقافي يفتح هوية

(49) معاون المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية، وهو قومي يفيض حماسة وإخلاصا، وأراه أقرب ما يكون إلى الإسلاميين.

العرب على تحد جديد، وبخاصة حينما يكون هذا التطبيع -على نحو ما هو عليه- فقرة في نص إمبريالي صهيوني جديد يتلى على المنطقة وأهلها الشرعيين، عنوانه: «نظام الشرق الأوسط»، وهو النظام الذي يتطلع إلى انتزاع رابطة العروبة من نسيج العلاقة بين أهل المنطقة وأقطارها الأصيلة، فيعيد تركيبها على مقتضى كيمياء ثقافية واجتماعية جديدة».

وفضلا عما تقدم، لا بد من تأكيد أن التطبيع الثقافي، بمعناه الواسع، ليس حالا تنتظر، بل هو حال تعيشها الأمة منذ عقود، بل هي الحال التي مهدت للكثير من مظاهر الانهيار والتردي التي تعيشها الأمة.

ومعنى ذلك أن المطلوب هنا هو مواجهة حال التطبيع الثقافي، لا مجرد منع حدوثه، لأنه بالفعل يشن حملته الضارية على الأمة منذ زمن. وهذا التطبيع سيجعل العدو الصهيوني بين ظهرانينا.

ويمكن القول إن أول المؤشرات على مدى فعالية الدور الذي تقوم به الثقافة العربية والإسلامية في مواجهة التطبيع، إنما يتمثل في «مقاومة» هذه الشحنة الضبابية الخانقة التي تلقيها كلمة التطبيع في وجدان كل عربي ومسلم ... ومن المهم أن ذلك يحدث بصفة تلقائية، ودون أي جهد من حاكم أو مثقف. ومن الثابت أن مصدر الأسى العميق لهذه الآلية - آلية التطبيع ورد الفعل التلقائي في مواجهته - أنها آلية تعتمد القسر والتطويع، ولا تقوم على الإرادة الحرة المستقلة، التي تبحث عن مصلحتها وترعى غايتها، بما ينسجم مع كل ما هو طبيعي في وجدانها وضميرها ونظم القيم والمعتقدات التي تعتنقها.

أهمية التجربة المصرية في رفض التطبيع:

ولا شك في أن الخبرة المصرية في هذا السياق لها أهميتها من وجوه عدة، فضلًا عن فضل السبق! فمن المعلوم أن «إسرائيل» قد اشترطت أن يكون التطبيع في مقابل الانسحاب من سيناء – بمقتضى بنود المعاهدة – كضمان لاستمراية «عملية السلام» حتى بعد إتمام عملية الانسحاب، وعلى نحو يكفل رابطًا لا ينفصم بين البلدين. ومعنى ذلك في النهاية هو أن يحل «وجود مدني إسرائيلي» في مصر كلها محل «الوجود الإسرائيلي العسكري» في سيناء. بل ذهبت المعاهدة إلى أبعد من ذلك، ونصت على أن يتم التطبيع الكامل للعلاقات بين البلدين قبل انسحاب «إسرائيل» الكامل من سيناء. لقد تم تبادل السفراء، وأبرمت اتفاقيات متعددة تتعلق بالسياحة والتجارة والبترول ... إلخ، و«إسرائيل» ما زالت تحتل خمسي سيناء. وشرط التطبيع في نظر «إسرائيل» هو الضمان ألا يتكرر في 1982 ما وقع في 1975، وهو انسحابها من سيناء دون أن تكون لها «قبضة ما» على مصر تحول دون نشوب حرب أخرى بين البلدين. وهذا مؤشر في حد ذاته على مدى يقينها من وجودها غير الطبيعي.

غير أن هذه «المعادلة» – أي التطبيع مقابل الجلاء – إنما تقوم على التباس، هو أن العمليتين ليستا بالعمليتين المتماثلتين حتى يجري تبادل بينهما. ذلك أن الجلاء عملية عسكرية تخضع لأوامر تصدرها الحكومة الإسرائيلية للجيش الإسرائيلي. أما التطبيع، فليس هو بالعملية التي تخضع للاتفاقيات التي تبرمها الحكومة المصرية فقط، بل يتوقف أيضًا على استعداد الشعب المصري لتطبيع العلاقات مع «إسرائيل»، وهو أمر لا تمتلك الحكومة المصرية السيطرة عليه.

ومن المؤكد أن القيادات المصرية قد حرصت كل الحرص على ألا تترك لحكومة

«إسرائيل» أي مبرر لمؤاخذتها على عدم احترام التزاماتها حيال التطبيع. ولكن الحكومة الإسرائيلية لا بد أن تكون قد لاحظت أن جماهير شعب مصر، وبخاصة طلائعه المثقفة، قد وقفت من عملية التطبيع موقفًا أشد عداء، وأن هذا العداء للتطبيع لم يكن من الممكن نسبته فقط إلى عناصر يمكن اتهامها بالتطرف والتعصب، على أرضية دينية أو غير دينية.

فإن افتراض أن تصبح «العلاقات بين المصريين والإسرائيليين» علاقات «طبيعية» إنما يقتضي- كافتراض سابق عليه ألا تتعارض هذه العلاقات مع الأوضاع «الطبيعية» للمصريين، أي ألا تطرح قضية «التطبيع» مع «إسرائيل» قضية «هوية» بالنسبة لشعب مصر. وبالفعل، فكيف يمكن للمصريين – المصريين كافة، وليس فقط «المتطرفين» أو «المتعصبين» بينهم – أن يقبلوا كأمر «طبيعي» عقدية حكومة «إسرائيل» المعلنة بأن فلسطين العربية لا وجود لها قط، أو قانون الكنيست بضم القدس العربية واعتبار المدينة المقدسة بشقيها عاصمة أبدية للدولة اليهودية، أو تكرار قول «القيادات الإسرائيلية» بأن من حق «إسرائيل» القيام بغارات تأديبية ضد أية دولة عربية، وبلوغ عدوان إسرائيل حد ما فعلته ضد العراق ولبنان وتونس، فضلًا عن الشعب الفلسطيني؟

لقد أصبح «تطبيع» العلاقات مع «إسرائيل»، في نظر شعب مصر – بمختلف فئاته واتجاهاته، ومن مختلف المنطلقات السياسية – أمرًا يتعارض مع كل ما هو «طبيعي» في نظره هو. أصبحت مقتضيات «السلام» نقيض ما تقتضيه «هوية» شعب مصر. ونجم ذلك من صميم بنية «السلام المنفرد». لقد فرض هذا «السلام المنفرد» على شعب مصر أن يعادي أعداء «إسرائيل» و أعداء «إسرائيل» هم عوالم ينتمي إليها شعب مصر – انتماء طبيعيًا أصيلًا – تاريخًا وتراثًا ونضالًا وهوية: العالم

العربي والعالم الإسلامي وعالم عدم الانحياز.

ومن هنا أصبحت المعادلة التي تقوم عليها «المعاهدة المصرية الإسرائيلية» تكشف عن أوجه خلل في صميم بنيتها الأساسية: الحكومة المصرية تؤكد أنها تنجز شروط التطبيع على الوجه الذي حددته المعاهدة، وعلى «إسرائيل» أن تنجز في المقابل التزاماتها بالانسحاب من سيناء. وحكومة «إسرائيل» تتهم الحكومة المصرية بأن شعب مصر لا يلبي التطبيع، أو بما كان عدم تلبية شعب مصر للتطبيع، أو ربما كان عدم تلبية شعب مصر للتطبيع تدبيرًا حكوميًا خبيثًا يجري بمقتضاه تعطيل التطبيع عمدًا، وقصره على تدابير رسمية وشكلية فقط، في انتظار جلاء إسرائيل من سيناء، وحتى تعود مصر مرة أخرى بعد ذلك إلى الحظيرة العربية. وهو «منطق» جدير بالتأمل، في ضوء ما حدث في الواقع.

وقد لاحظ قادة الكيان الصهيوني أن مقامة الشعب المصري للتطبيع بدأت في الثقافة أولًا لتنتقل إلى بقية مجالات الحياة، فكانت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية هي أولى هيئات المجتمع المصري التي تصدت لمشروع التطبيع، وهب بعدها الشعب المصري بكل فئاته إلى إغلاق المنافذ أمام التغلغل الصهيوني، فيما حرصت الدولة نفسها على التزام منهج «السلام البارد» مع الكيان الصهيوني، منطلقة من أن المعاهد تفرض على مصر إقامة «علاقات» مع هذا الكيان، ولكنها لا تفرض عليها طبيعة هذه العلاقات ونوعيتها ومدى حرارتها. ولعل هذا الموقف المصري الشعبي والرسمي هو في صلب المأزق المتعاظم الذي تعيشه العلاقات المصرية – الإسرائيلية خصوصًا، وحتى المصرية – الأمريكية عمومًا، وهو ناجم بالإضافة إلى المناخ الثقافي والوطني الموجود في مصر، عن شعور متعاظم لدى جماعات النخبة المصرية الرسمية والأهلية، فضلًا عن كل الاعتبارات المبدئية القومية والوطنية،

بأن الفكرة التي يقوم عليها «نظام الشرق الأوسط» وما يداخلها من مشاريع «تطبيع» تسعى إلى تهميش مصر وعزلها عن دورها الإقليمي والعربي.

كيف نواجه التطبيع والتدمير الثقافي؟

إن تعطيل التطبيع في مصر هو انتصار للثقافة، ولقد كان من الطبيعي «بعد أن تسكت المدافع» أن تندفع الثقافة لكي تحمل الراية من أجل التصدي لعملية التطبيع. فكيف نواجه التطبيع؟ وفي الحقيقة: كيف نواجه مشروع التدمير والتفكيك الثقافي الذي ينطوي عليه التطبيع، وبخاصة في ظل الاختلال الجسيم في موازين القوى والهجمة الإمبريالية الصهيونية على المنطقة بهدف إخضاعها ... مرة واحدة وإلى الأبد؟!

❊ ❊ ❊

1 - **المواريث الثقافية للأمة هي السد المنيع**

من ناحية أولى، تتمثل نقطة البداية في الإقرار بأن هذا التيار الآتي - التطبيع - ليس بإعصار، لكون الأمة تقبع على تراث ثقافي عميق، مما يجعلها أمة غير سهلة الانصياع للبدائل الثقافية الدخيلة، إنها أمة ترتكن إلى تراث ثقافي غير هش، بل قادر على النهوض بتأملاتها الحاضرة وآفاقها المستقبلية، ولهذا فإن ثقافتها المتراكمة تنطوي على عناصر مقاومة وضوابط تتحسس الطارئ والدخيل؛ ولهذا فقد وصفت بأنها أمة مواجهة، إذا ابتليت بأقسى محن التاريخ، وهبت عليها أعتى العواصف، وتعرضت لسلسلة من محاولات الطمس والمحو، ومع ذلك فقد زادتها تلك المحن قوة شكيمة وصلابة إرادة. ويبقى وجدان الأمة ووعيها الحقيقي هو أهم مقياس لكل سياسة، والسد العالي المنيع أمام التطبيع.

لقد نجح العرب، في أكثر من موقع وعبر أكثر من مرحلة تاريخية، في تجربة مقاومة محاولات تدمير المقومات الثقافية الذاتية لهويتهم، لا مجال لتعدادها جميعًا، سواء جرت هذه المحاولات مع حملات الغزاة الفرنجة والتتار، أو مع مشروع «التتريك»[50] الذي حاول أصحابه استغلال الولاء العربي للرابطة الإسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية لضرب الثقافة العربية واللغة العربية.

2 - **ثقافة المواجهة لا الانغلاق:**

ومن ناحية ثاتية: من المؤكد أن مقاومة هذا النوع من المشاريع، ولا سيما الثقافية منها، لا يجوز أن تنحصر بالتحذير السلبي من مخاطرها، أو بالإجراءات الشكلية التي لا تتصل بها، بل يجب أن ترتقي إلى مسئولية تطوير ثقافتنا القومية إلى المستوى الذي نجابه به لا مشروع «التطبيع» الصهيوني فحسب، بل نجابه أيضًا كل التحديات الثقافية والحضارية التي يحملها لنا العصر.

وبهذا المعنى فإن المقاومة الثقافية للتطبيع لا تكون أبدًا من مدخل الانغلاق حيث ننكفئ على ذواتنا، ونتآكل من داخلنا، ونغرق في صراعات الفرق والملل والاجتهادات الضيقة. وأساس ذلك أن الانغلاق الثقافي هو الوجه الآخر للتفكيك الثقافي، وبالتالي يصيب في خدمة مشروع التطبيع الثقافي مهما تعارضت نيات أصحابه ورغباتهم مع هذا المشروع. ولذلك تحتاج هذه المقاومة إلى «ثقافة المواجهة».

---

(50) يشير إلى حملة «التتريك» التي قام بها جماعة «الاتحاد والترقي» في تركيا، وهي جماعة علمانية لا دينية معادية للعرب وللإسلام وللخلافة ذاتها.

3 - **ثقافة الوحدة مع التنوع:**

ومن ناحية ثالثة، إذا كان عنوان مشروع التطبيع الثقافي هو التفكيك الثقافي لوحدة الأمة وتدمير مقومات تماسكها، فإن العنوان المضاد يبقى هو «ثقافة الوحدة»، أي الثقافة الحريصة على تنمية عناصر الوحدة في مجتمعنا، وتعزيز أواصر التماسك بين أبناء أمتنا. وبهذا المعنى تصبح «ثقافة الفتنة» واحدة من أبرز العناصر الممهدة للتطبيع الثقافي، بل هي ركن رئيسي من أركان ثقافة التطبيع. فالتطبيع مع أعداء الأمة لا يستقيم إلا بالفتنة داخل صفوف الأمة ذاتها. غير أن الحديث عن ثقافة الوحدة يجب ألا يوقعنا بالخطأ المقابل، أي في «ثقافة القهر» باسم الانسجام، وثقافة الصهر باسم التماسك، وثقافة هيمنة اللون الواحد باسم الوحدة. فداخل الثقافة العربية والإسلامية الواسعة هناك تنوع يمكن أن يتحول إلى مصدر ثراء لتلك الثقافة. ومن ثم فإن «ثقافة الوحدة مع التنوع» تتطلب أول ما تتطلب تكريس قيم القبول للآخر داخل المجتمع الواحد، واحترام الآخر، والسعي للتكامل معه في إطار هذه الوحدة.

4 - **ثقافة التفاعل والتجميع لا التفريق:**

ومن ناحية رابعة، إن من أبرز معالم الحضارة العربية والإسلامية أنها حصيلة تفاعل حضارات سبقتها، وشعوب اجتمعت في ظلها، وأديان موجودة في أرضها، فمن أبرز المساهمين فيها مسلمون غير عرب، وعرب غير مسلمين، على نحو جعلها تمثل تطورًا نوعيًا مميزًا في الحضارة الإنسانية بأسرها. ولا شك أن هذه السمة المتميزة للحضارة العربية والإسلامية الجامعة، لم تعطها دورًا كبيرًا على مستوى الماضي فحسب، بل تعطيها كذلك دورًا مهمًا على مستوى المستقبل. فمن أبرز الدعوات الثقافية التي تسعى الحركة الصهيونية لإنجاحها على المستوى العالمي،

وخصوصًا الأمريكي، هو الترويج لفكرة الحضارة اليهودية – المسيحية، باعتبار اليهودية والمسيحية حضارة واحدة، تعتمدان على كتاب واحد، وبهذه الحضارة يتحول يهود العالم من مجموعة قليلة العدد إلى قوة كبرى بعد انضواء المسيحيين تحت لوائهم.

وفي ظل هذه الدعوة تكاثرت كنائس جديدة في الولايات المتحدة، وفي ظلها تمارس الضغوط المتصاعدة على الفاتيكان لفك ارتباطه بالقدس، وتمسكه بهويتها العربية. إن هذه الدعوة، ومن دون شك، هي أخطر الأسلحة التي تسعى الحركة الصهيونية إلى استخدامها لمواجهة الحق العربي، بل لتكريس هيمنتها على المنطقة، وهي دعوة لا يمكن مواجهتها إلا عبر دعوة حضارية بالحجم ذاته، تركز على التلاقي التاريخي للمسيحية والإسلام، وحتى اليهودية، في صنع الحضارة العربية عبر العقود الماضية.

في ظل هذا التكامل يصبح ممكنًا قيام عنصر توحيد بين العرب وغير العرب من المسلمين المقيمين على الأرض العربية، وبفضله تتمكن المسيحية المشرقية العربية من أن تلعب دورها التاريخي كجسر حضاري بين المسيحية والإسلام، بين الشرق والغرب، فعروبة المسيحين المشرقيين تعطيهم صلة خاصة بالإسلام، ومسيحيتهم تمنحهم القدرة على التخاطب الفاعل مع الغرب المسيحي.

إن بلورة هذا المشروع الحضاري العربي الجامع تمثل، كذلك، أحد أبرز بنود جدول أعمال مقاومة التطبيع الثقافي، لأن هذا المشروع يضرب مصدرًا رئيسيًا من مصادر قوته على المستوى العالمي.

5 - **مواجهة الاختراق الثقافي:**

ومن ناحية خامسة، لأن الثقافة هي مسؤولية فكرية وعلمية وأخلاقية، فإن المثقف العربي مسؤول بشكل خاص في مواجهة مشروع التفكيك الثقافي العربي. والعقل الصهيوني بات يدرك أنه إذا كانت الثقافة العربية صعبة الاختراق، لعراقة جذورها ومتانة مقوماتها، فإن مهمة اختراق بعض المثقفين العرب تبقى أسهل، وبالتالي يمكن استخدامهم كأحصنة طروادة لاختراق الحصون الثقافية العربية.

واختراق المثقفين العرب لن يأخذ بالضرورة شكل الاختراق الصهيوني المباشر، فمثل هذا الاختراق يكشف أصحابه ويقلل من تأثيرهم، بل هو يأخذ شكل الترويج لقيم ومفاهيم وعلاقات تصب مباشرة في تدمير المناعة الثقافية العربية. فالترويج لأنماط الاستهلاك الغربي مثلًا، ونشر ثقافة اليأس في الأمة، والإيحاء بوجود تناقض بين متطلبات العصر والانتماء القومي والروحي «أي الإسلامي»، والادعاء بأن لا تقدم اقتصاديًا واجتماعيًا إلا في ظل اقتصاد السوق وشروطه العالمية، وتقديم الخصوصيات الثقافية للجماعات المتعايشة داخل مجتمع واحد على أنها عناصر تناقض وتناحر لا يمكن الجمع بينها، والسقوط باسم الواقعية في منطق الترويج لكل مشاريع الأعداء، والاستهتار بسلم القيم الأخلاقية السائدة، والتفريط بكل شروط المناعة الاجتماعية وتصويرها من مخلفات الماضي، والالتحاق بركب السلاطين، وافتعال الخصومات، وتغليب الثانوي من الخلافات على الجوهري من الصراعات ... إلخ، كلها أشكال متعددة لنمط واحد، يعتمد على نوع من المثقفين الذين سقطوا فريسة المشروع الاستعماري الثقافي، فكانوا عن وعي أو غير وعي جنودًا في خدمة التطبيع.

6 - **الثقافة العربية الإسلامية للجماهير:**

ومن ناحية سادسة، يجب أن لا تنسينا ثقافة النخبة التركيز على الثقافة العربية الإسلامية الشعبية، لأن هذه الثقافة الأخيرة تمثل عمقًا بعيد الأغوار راسخ الجذور، ولأن المواطن العربي الإسلامي العادي هو مادة العروبة والإسلام، والعجلة والفلك الذي تدور عليه أمتنا نهوضًا وانكفاء، وحقيقة الأمر أن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد على حد تعبير بوتول. وعلى هذا فالتحصين السوسيولوجي الثقافي لأمتنا يتم من خلال العض بالنواجذ على منطقنا الشعبي وموضع حماسنا واعتزازنا، بأدبنا وفولكلورنا، بموقعنا في الحياة، بموسوعتنا الثقافية، بجمالياتنا وأخلاقياتنا، بحبنا الرفيع للحياة، فهذه الديناميات هي القلاع الحصينة والروافع الناهضة. وحقيقة الأمر، أننا إذا تمسكنا بهذا المنهج استطعنا القول إن التطبيع مجرد أسطورة، ذلك أن العامة يملكون سلاحين: سلاح الإيمان وسلاح اللسان. وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي[51].

***

(51) من دراسة د. مجدي حماد – المقدمة للمؤتمر القومي الإسلامي في بيروت يناير 2000م.

2 - تحدي التجزئة والتفكيك

وإذا كان التحدي الصهيوني هو أبرز ما يواجه أمتنا اليوم، والذي أمكنه أن يفرض عليها تسوية ظالمة، تعترف للظالم الغاصب بشرعية ما اغتصبه، ويتنازل فيها صاحب الدار عن حقوقه الأساسية له. ثم لم يكفه ذلك حتى أراد أن «يطبع» العلاقة بين اللص وصاحب الدار، حتى ينسى ما وقع عليه من ظلم واغتصاب وتشريد، ويعيش الغاصب الباغي ناعم العين، مستريح البال، لا يخشى مقاومة، ولا يخاف انتفاضة من غرمانه المظلومين المقهورين ...

فهناك تحد آخر لا يقل عن هذا التحدي في عظم خطره وبعد أثره، وهو «تحدي التجزئة والتفكيك» الذي أصاب الأمة منذ ألغيت الخلافة، وهدمت قلعتها، وباتت الأمة ممزقة الشمل، مشتتة القوى.

إننا بهذه التجزئة أصبحنا كيانات صغيرة، لا ترهب عدوا، ولا تنصر صديقا في عصر تتكتل فيه القوى ذات المصالح المشتركة بعضها مع بعض، ليستطيعوا أن ينافسوا الكتل الأخرى، وأن يحققوا طموحهم ويثبتوا وجودهم.

إن الناس بجوارنا يقوون بالتوحيد، ونحن بجوارهم نضعف بالتفرق. فمن المعلوم أن الاتحاد يقوي القلة، كما أن التفرق يضعف الكثرة.

ولا غرو أن تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، مع كثرة عددنا «مليار وثلث من البشر» ولكنها كثرة كغثاء السيل، كما صورها الحديث الشريف.

إن هذا الهم الكبير لا بد أن يكون في مقدمة همومنا، لما له من ضرورة وأهمية خاصة، إنه هو هم الوحدة، التي أمرنا الله بها في كتابه ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103].

ونهانا عن التفرق والتنازع، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: 105]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

وحذرنا رسوله فقال: «**لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» متفق عليه. كما حذر من «فسادات ذات البين» واعتبرها «الحالقة» لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين.

وقد علمتنا الحياة أن الاتحاد يقوي الضعفاء وأن التفرق يضعف الأقوياء، وأن اليد وحدها لا تصفق، وأن الذي أضاع الدولة الإسلامية الكبرى، التي يسميها بعضهم «الإمبراطورية الإسلامية» إنما هي نزعات الفرقة والانفصال. وأن أمتنا لم تحقق نصرا كبيرا على أعدائها إلا بفضل الوحدة، ولو كانت جزئية مثل وحدة مصر والشام في عهد صلاح الدين الإيوبي.

فلا حياة لهذه الأمة وهي ممزقة الأوصال والأشلاء، كأنها أمم شتى، وجماعات متباينة، بل متجافية، بل متعادية، بل متقاتلة أحيانا، يذوق بعضها بأس بعض. ونحن في عالم يتقارب بعضه مع بعض، ويتكتل بعضه مع بعض، كما لمسنا ذلك في الاتحاد الأوروبي، ناسيا الخلافات القديمة، والحروب القديمة، العرقية والدينية والإقليمية، ولكن المصلحة المشتركة دعتهم أن ينسوا أو يتناسوا تلك الصراعات، وتلك الأيام السود، وأن يقيموا سوقا مشتركة واتحادا مشتركا، وأن يتلاحموا ويتضمنوا فيما بينهم: في الثقافة وفي السياسة، حتى لتكاد تذوب بينهم كل الفروق. ونحن وحدنا لا زلنا نعاني من التفرقة والتشرذم.

ونحن لا نستطيع أن نواجه المشروع الصهيوني إلا متحدين.

ولا نستطيع أن نحقق التنمية المنشودة إلا متحدين.

ولا نستطيع أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة إلا متحدين.

ولا نستطيع أن نواجه التكتلات الكبرى في العالم بالكيانات الصغيرة التي نشهدها في عالمنا. لا بد من العمل لتجميع قوى الأمة كلها: على اختلاف أديانها من مسلمين ومسيحين، واختلاف مذاهبها مع سنيين وشيعيين، واختلاف توجهاتها من عروبيين وإسلاميين، واختلاف طبقاتها من أغنياء وفقراء، وملاك ومستأجرين، وحكام ومحكومين، فالمعركة توجب أن تضم الجميع، ولا يتخلف أحد.

وعلينا أن نقوي «التضامن» الموجود حاليا، والمتمثل في «منظمة المؤتمر الإسلامي» التي تمثل الوجود السياسي للأمة الإسلامية، حتى تصبح أكثر فعالية وتأثيرا، وأن نرتقي بها - بالتدريج - حتى نصل إلى نوع من الوحدة الفيدرالية، أو الكونفيدرالية أو غيرها، يمكننا من تحقيق آمالنا وطموحتنا، ويعيننا على استرداد حقوقنا، ويجعل لنا وزنا في نظرغيرنا.

إن هذا السعي إلى الوحدة المنشودة فريضة وضرورة، فريضة بمنطق الدين، وضرورة في منطق الواقع.

لقد بات الدم المسلم أرخص دم في العالم، وغدا المسلمون يذبحون ويقتلون في أقطار شتى، ولا أحد يحمى لهم، أو يصرخ من أجلهم، إنما توجد أصوات حافتة هنا وهناك تحتج على ما يجرى لأبناء الإسلام، والصوت الخافت لا يوقظ نائما، ولا يحرك ساكنا، بل هو صوت من شأنه أن ينيم اليقظان، بدل أنه ينبه النعسان.

أمسينا طوال السنوات الماضية لا نكاد نسمع نشرة أخبار في الإذاعة، أو نشاهدها في التلفاز، إلا كانت أخبار المسلمين ومآسيهم هي التي تسود النشرات. فمن نكبة فلسطين إلى داهية أفغانستان، إلى بلوى الصومال، إلى محنة الفلبين، إلى مأساة كشمير، إلى كارثة البوسنة والهرسك، إلى مصيبة كوسوفو، إلى طامة الشيشان، إلى غيرها وغيرها من نوائب البلدان، وعاديات الزمان، حتى أصبحنا ينطبق علينا قول أبي الطيب:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ولكن أقول هنا: إن من الشر ما يأتي بالخير، ورب ضارة نافعة، فقد لاحظت أن هذه المحن والشدائد التي تنزل بالمسلمين، والمعارك التي تفرض عليهم، رغما عنهم، والمظالم التي تحل بساحتهم من قبل القوى المعادية لهم من الصهيونيين والصليبيين والوثنيين، وأعداء الملة والأمة، توقظ الروح الإسلامية، والشعور بالإخوة الإسلامية، وترى من يريد أن يرى: حقيقة الأمة الإسلامية الواحدة ماثلة للعيان، حية في وجدان الشعوب.

لقد رأيت ذلك في أزمة أفغانستان، وأزمة كشمير المسلمة، وأزمنة البوسنة والهرسك، وأزمة كوسوفو، وأزمة الشيشان، رأيت غليان المسلمين في كل مكان من أرض الإسلام من أجل إخوانهم المستضعفين في الأرض، من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. رأيت تحرق الشباب للذهاب إلى ميادين الجهاد لمشاركة هؤلاء الأبطال في جهادهم، رأيت الجمعيات الخيرية والإغاثية الإسلامية تستنجد الناس الناس لنجدة إخوانهم، ورأيت الجماهير المسلمة تتجاوب معهم، حتى إن المرأة تتبرع بحليتها وخاتم زوجها! رأيت

خطباء المساجد في صلوات الجمع، وفي قنوت الوتر في صلاة التراويح في رمضان، يدعون لإخوانهم المجاهدين بالنصر المبين، ولإخوانهم المشردين والمأسورين، أن يفك الله بقوته أسرهم، ويجبر برحمته كسرهم، ويتولى بعنايته أمرهم، وفي دعائهم على اليهود والصربيين والهندوس، وأخيرا على الروس الطغاة المتجبرين، أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر وأن ينكس أعلامهم، ويزلزل أقدامهم، وأن يهلكهم كما أهلك ثمود بالطاغية، وكما أهلك عادا بريح صرصر عاتية، وأن ينزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

ورأيت تجاوب المسلمين في كل مكان مع قضية أرض الإسراء والمعراج، وأرض المسجد الأقصى واستعدادهم لبذل الأنفس والنفائس من أجلها.

نعم، نحن نرى الحكومات في البلاد الإسلامية – إلا ما رحم ربك – غائبة عن هذه المحن الإسلامية، ولا تكاد تحس بها، لأنها نائمة أو منومة، وحتى إذا أحست بها فهو إحساس واهن، لا يحتل بؤرة الشعور، ولا يثير كوامن الوجدان، بل هو هامش الشعور، وحتى لو استيقظ هذا الشعور، وأدركته الصحوة الفطرية في بعض الأوقات، فإن مراعاة المصالح الداخلية، والخضوع للضغوط الخارجية، كفيلان أن يلجئا هذه الشعور إلى أن يختبئ فلا يظهر، وأن يصمت فلا ينطق، بل أن يموت فلا يحيا.

لكن عزاءنا عن غياب هذه الحكومات النائمة أو المنومة، التي تقودها المصالح القريبة، لا الأهداف البعيدة، وتؤثر إرضاء قوى البشر الضاغطة، على إرضاء الله تعالى والولاء له ولأمته، عزاءنا عن نوم هذه الحكومات: هو يقظة شعوبنا المسلمة ووعيها بقضاياها، وخصوصا عندما تحتد الأزمات وتحلولك الظلمات، وتتوالى الضربات الموجعات. هنا يصحو وجدان الأمة، وتتحرك مشاعرها، وتستثار

كوامنها ولواعجها، لتثبت وجودها لمن ينكره، وأنه حقيقة لا وهم، وأنها لم تزل حية لم تمت، باقية لم تزل من خارطة الوجود.

ضرورة تجميع كل القوى للمواجهة والتصدي:

إن موقفنا نحن العرب والمسلمين – ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين – يقتضي منا أن نعمل بجد وصدق، على تجميع كل القوى لمواجهة أعدائنا: الفقر والجهل والمرض والرذيلة والتعصب والحقد والبغضاء والتبعية في الداخل، والصهيونية والصليبية والشيوعية والاستكبار في الخارج.

تجميع كل المواطنين مسلمين ومسيحيين:

لا بد من تجميع القوى الوطنية والقومية كلها، بغض النظر عن اختلافاتها الدينية، فإن لم يجمعنا الدين تجمعنا «الدار» فالفقه الإسلامي يعتبر غير المسلمين في أوطاننا من «أهل الدار» أي أهل دار الإسلام، وهي كلمة نترجم عنها الآن باسم «الوطنية».

على أننا من الناحية الدينية الخالصة – يجمعنا معنى «الكتابية» أي أننا وهم من «أهل الكتاب» الذين اعتبرهم الإسلام صنفا متميزا من غير المسلمين، وناداهم في كتابه بهذا الوصف الموحي بالإيناس والتقريب «يا أهل الكتاب» وشرع لهم من الأحكام ما يميزهم عن غيرهم، فأجاز مؤاكلتهم ومصاهرتهم، كما قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: 5].

والمسيحيون منهم لهم منزلة أخص من عموم أهل الكتاب، باعتبارهم أقرب مودة للمسلمين كجماعة، بخلاف اليهود، فهم مع المشركين أشد الناس عداوة

للذين آمنوا، كما نبه على ذلك القرآن.

والعرب من هؤلاء لهم منزلة أكثر خصوصية، بسبب أن العربية – وهي لغة القرآن – لغتهم، والثقافة الإسلامية – بصفة عامة – ثقافتهم، فهم لذلك يعدون مسلمين بالثقافة والحضارة، لا بالعقيدة والملة. وهذا ما اعترف به كثير من كبار المسيحين في العالم العربي.

بل منهم من دعا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين وغير المسلمين، بحرارة وحماسة فاقت حماسة كثير من المسلمين أنفسهم، مثل الزعيم المسيحي السوري المعروف فارس الخوري. كما بينت ذلك في كتابي «بينات الحل الإسلامي» ورسالتي «الأقليات الدينية والحل الإسلامي».

وعلى كل حال، عندما يكون الخطر محدقا بالوطن كله، وبالأمة جميعا، بحرمات الأمة ومقدساتها، لا بد أن يقف الجميع مقاومين ومرابطين ومدافعين عن الحمى، المسلمون والمسيحيون سواء، ومن هنا عقد المؤتمر المشترك بين الفئتين من أجل قضية القدس الشريف في بيروت سنة 1996 تحت عنوان «مسلمون ومسيحيون معا من أجل القدس» وقد شاركت في هذا المؤتمر، وشارك فيه كثير من أعلام المسلمين، ومن آباء المسيحين من مختلف مذاهبهم وكنائسهم.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى المحاولات الخبيثة والمشبوهة التي تسعى سعيها في تفتيت الصف، وتمزيق الوحدة، وإثارة الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، التي قد يخدع بها، ويقع في شباكها الطيبون من المواطنين.

ولا بد لنا من العمل بكل قوة لسد الأبواب التي تهب منها رياح الفتنة الطائفية السموم.

وذلك ببيان الموقف الإسلامي الصحيح من الأقليات المسيحية الموجودة بالفعل في أكثر من بلد عربي وإسلامي، وتفنيد الأقوال المتشنجة التي يقولها بعض المسلمين المعاصرين، مستندين إلى آراء قديمة في بعض الكتب.

لا بد من تبين واضح وحاسم للاجتهادات المعاصرة المتسامحة والمنفتحة على الآخرين، ومن ذلك قضية «الجزية» التي هي عبارة عن «ضريبة رءوس» على غير المسلمين، في مقابل فريضتين دينيتين على المسلمين، هما: الزكاة والجهاد.

فإذا قبلوا أن يدفعوا ضريبة مساوية للزكاة: من ناحية وقبلوا أن يجندوا للدفاع عن الوطن والأمة كالمسلمين، فالواجب على أولى الأمر أن يمكنوهم من ذلك.

وقد طلب بنو تغلب – وكانوا من نصارى العرب – من أمير المؤمنين عمر أن يسقط عنهم «اسم الجزية» ويأخذ في مقابلها ما شاء «باسم الصدقة» لأنهم يأنفون من كلمة «جزية» فقبل منهم عمر، وقال قولته: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى وأبوا الاسم.

وقد شرحنا هذا المعنى في أكثر من كتاب لنا، بما لا يدع مجالا للبس أو إيهام.

ويجب علينا أن نقف في وجه الغلاة ومشعلي النار من الفريقين: المسلمين وغير المسلمين، من الحمقى الذين لا يدرون ماذا يفعلون، ومن المتعصبين الذين أعماهم التعصب وأصمهم، فهم لا يبصرون ولا يسمعون.

وعلينا كذلك أن نفوت الفرصة على الذين يصبون الزيت على النار من خارج البلاد، بدعوى أنهم يريدون حماية الأقليات من الاضطهاد الديني، وهم يجعلون من الحبة قبة، ومن الفأر جملا، فإذا لم يجدوا فأرا ولا حبة لتضخيمها، اختلفوا من عند أنفسهم أوهاما، ليتخذوا منها ذريعة للتدخل في شئوننا ومقدارتنا، كما حاولوا

ذلك في مصر وفي السودان وفي غيرهما.

والعقلاء والحكماء من المسيحيين يرفضون هذه التدخلات بوضوح، ويرون أنه لا يمكن أن يحميهم شيء غير سماحة الإسلام، وشريعة الإسلام، وتفاهم عناصر الأمة فيما بينهم دون سماح للغرباء أن يتدخلوا فيعكروا الصفو، ويسيئوا إلى العلاقات، ويقطعوا حبال المودة، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 25].

وعلى أهل الحكمة من المسلمين والمسيحيين توعية الجميع بأن «الطائفية» ليست من «التدين» في شيء، فالتدين يقوم على المحبة، والطائفية تقوم على الحقد، والتدين الحق سماحة مع المخالف، والطائفية تعصب ضد الآخر. التدين يبني والطائفية تهدم، التدين يحيي والطائفية تميت.

تجميع كل المسلمين من سنيين وشيعة:

ومن التجميع المطلوب لمواجهة القوى المعادية لأمتنا: تجميع كل القوى والشعوب الإسلامية، بالرغم من الاختلاف المذهبي بينهم، وأعني بالخلاف المذهبي: الخلاف بين السنة والشيعة، وبين السنة والأباضية. فأنا أعلم أن أعداء الأمة يريدون أن يشعلوها حربا دينية صريحة بلقاء بين المسلمين بعضهم وبعض، لم يكفهم الحرب التي قامت بين العراق وإيران، على أساس قومي: عرب وفرس، فهم يريدونها الآن بين سنة وشيعة، ويجب على العقلاء والحكماء من الفريقين: أن يكونوا أكثر وعيا وذكاء منهم، ولا يمنحوهم الفرصة، لينبشوا القديم، ويضخموا الجديد، ويخلقوا المشاكل، ويضعوا العقبات، ويثيروا الفتن.

وقد اشتركت في «ندوة التقريب بين المذاهب» التي دعت إليها المنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم، سنة 1995م والتي عقدت في الرباط، وحضرها علماء ودعاة من أهل السنة ومن الشيعة معا، وأسفرت عن توصيات طيبة.

كما زرت إيران في ربيع سنة 1998م بدعوة من مجمع التقريب بين المذاهب، برئاسة الرجل السمح آية الله الشيخ واعظ زاده الخراساني، وتأييد من صديقنا آية الله الشيخ محمد علي التسخيري. ولقيت عددا كبيرا من العلماء في طهران وقم ومشهد وأصفهان، كما لقيت رئيس الجمهورية السيد محمد خاتمي، واستمرت مقابلتي معه نحو ساعة، كما لقيت رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام حجة الإسلام علي أكبر رفسنجاني(52).

ووجدت عند الجميع رغبة في التفاهم والتعاون والتلاقي، وقد ذكرت لهم بصراحة الأشياء التي تحول دون التقريب الحقيقي، وهو: سب الصحابة والموقف من أهل السنة داخل إيران، ومحاولة نشر التشيع في بلاد أهل السنة.

وقد تجاوب معي الفضلاء من علمائهم، وأكدوا معي أن لا مبرر لسب الصحابة، وبخاصة الكبار منهم مثل أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا، كما أكدوا لي أنهم في كتبهم الدراسية ذكروا مواقف تحتذى لأبي بكر وعمر، باعتبارها نماذج إسلامية للبطولة والهداية، وهذه لا شك خطوة إلى الأمام، نرجو أن تتبعها خطوات.

---

(52) كان مرشد الجمهورية وقائدها السيد علي خامنئي مريضا في ذلك الوقت، فلم أتمكن من مقابلته.

وما أبلغ ما قاله الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز حين سئل عما شجر بين الصحابة، فقال: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلا نلطخ بها ألسنتنا!

والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134، 141].

ومما يساعد في هذا الاتجاه التقريبي: أن أهل السنة جميعا يحبون أهل البيت حبا جما، فمن ذا الذي لا يحب فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وأحب بنات رسول الله إليه؟ ومن ذا الذي لا يحب زوج فاطمة البتول، وابن عم الرسول، وسيف الإسلام المسلول، فارس الأمة المعلم، وخطيبها المفوه وعالمها وأقضاها علي بن أبي طالب؟ ومن ذا الذي لا يحب السبطين الكريمين، سيدي شباب أهل الجنة: الحسن أشبه الناس خلقا وخلقا برسول الله ﷺ، والحسين أبا الشهداء؟

كل أهل السنة من عرب وعجم يتقربون إلى الله تعالى بحب هؤلاء جميعا لقربهم من رسول الله ﷺ، ودخولهم في دائرة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

ويريد أهل السنة من الشيعة أن يقابلوا حب أهل البيت بحب الصحابة رضي الله عن الجميع، فكما نحب أهل بيته عليه الصلاة والسلام، يجب أن نحب صحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

ولا سيما من كان أقرب منهم إليه مثل الخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرة، والمهاجرين والأنصار، فكل من كان قريبا من مشكاة النبوة أصابه قبس من نورها.

وحسبنا في فضل الصحابة: ما نطقت به آيات الكتاب العزيز في أواخر سورة الأنفال، وفي سورة التوبة، وفي آخر سورة الفتح، وفي وسطها، وفي سورة الحشر،

وخصوصا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهـل بـدر، وأهـل أحـد، وأهل بيعة الرضوان.

أضف إلى ذلك ما صرحـت بـه الأحاديـث الصـحاح المستفيضـة في فضـلهم عموما، وفي فضل آحاد منهم خصوصا.

يؤكد ذلك أن هؤلاء هم الذين نقلوا إلينا القرآن، متلوا بألسـنتهم، محفوظـا في صدورهم، مكتوبا في مصاحفهم.

وهم الذين رووا لنا سنن الرسول الكريم، وتفاصـيل سـيرته وأقوالـه وأفعالـه وتقريراته، فما خانوا ولا بدلوا.

وقد ذكر بعض الإخوة أن الشيعة - كل الشيعة - يؤمنـون بتحريـف القـرآن، وأنه ناقص، ونقلوا في ذلك من كتب الشيعة ما يؤيد هذ الدعوى. وأنا لا أنكـر أن هذه الأقوال موجودة في كتب الشيعة، ولكن ليس كل ما يوجد في الكتـب يكـون صحيحا مائة في المائة، ويؤمن كل الشيعة بما فيه.

فالمحققون من الشيعة يقولون: إن الذي ينقـل في هـذا المعنـى إنـما هـو كـلام «الإخباريين» لا من كلام «الأصوليين».

والذي لا شك فيه أن الجميع يؤمنون أن ما بين دفتي المصـحف هـو كـلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه.

وأن المصحف الذي يطبع في إيران هو نفس المصحف الذي يطبع في المدينة وفي القاهرة، وسائر بلاد المسلمين.

وأنه هو الذي يحفظه أبناؤهم في المدارس، ويتلى عندهم في الإذاعة والتلفاز.

وهو الذي يحتج به علماء العقيدة على عقائدهم، ويستدل به علماء الفقه والشريعة على الأحكام.

صحيح أننا قد نختلف معهم في تأويل بعض الآيات. كما نختلف معهم في استنباط بعض الأحكام، ولكن هذا لا يوجب أن نكفرهم ونخرجهم من الملة، فكثيرا ما يختلف أهل السنة بعضهم مع بعض، في قليل أو كثير من الاجتهادات الفرعية في العقائد أو الفروع، النظرية والعملية، ولا يوجب هذا تكفيرا، كالاختلاف بين مدرسة الرأي والنظر، ومدرسة الحديث والأثر في الفقه، والاختلاف بين مؤولي آيات الصفات وأحاديثها من نظار الأشاعرة والماتريدية، وبين مانعي التأويل مطلقا من الحنابلة ومن وافقهم.

والخلاف بين أهل السنة والأباضية أضيق دائرة، وذلك في مثل قضية رؤية الله تعالى في الآخرة، وأفعال العباد بين الجبر والاختيار، ونحو ذلك.

ومثل هذا الخلاف لا ينبغي أن يؤدي إلى قطيعة مع الإباضية، أو تحريم الصلاة خلفهم، فهذه قضايا نظرية لا يترتب عليها أمر عملي، ولكل فيها اجتهاده، أصاب أم أخطأ، وما على الباحث عن الحق إلا أن يستفرغ وسعه، ويجرد نفسه من اتباع الهوي، والانقياد لغير الحق، ولا يكلفه الله تعالى أكثر من هذا، إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وقد رجح الإمامان ابن تيمية وابن القيم أن المجتهد في مسائل الدين العلمية أو العملية معذور إن أخطأ الصواب، بل مأجور أجرا واحدا، ولا دليل عن التفرقة بين العلميات والعمليات.

وأعتقد أن المصائب الكبرى التي تحيق بالأمة من يمين وشمال، جديرة أن تجمع

المتفرقين، وتوحد المختلفين. وما أصدق ما قال شوقي: إن المصائب يجمعن المصابين!

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في أوائل سورة الروم كيف حزن المسلمون لغلبة الفرس - وهم مجوس يعبدون النار - على الروم، وهم نصارى أهل كتاب، ووقع بينهم وبين المشركين من قريش جدال ومراهنة حول مستقبل الفريقين. ونزل القرآن يبشر المؤمنين، بأن الريح ستتجه لصالح الروم، وأن النصر سيكون لهم. ﴿الٓمٓ 1 غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ 3 فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 1 - 5].

أفليس ما بين السنة والشيعة أقرب وأقرب مما بين المسلمين والروم؟

إننا لا ننكر الخلاف ما بين المذهبين، ولكن ما نتفق فيه من القضايا الأصلية والفرعية، النظرية والعملية، أوسع بكثير مما نختلف فيه، أو ليس الأولى بالجميع تبني هذه القاعدة الذهبية الحكيمة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

ولا ريب أن الذي نتفق عليه كثير وكثير جدا، فليضع كل منا يده في يد أخيه ليشد أزره فيه: «**والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» متفق عليه.

ألسنا جميعا من أهل القبلة؟

ألسنا جميعا من أهل «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؟

ألسنا نؤمن جميعا بأركان الإيمان الخمسة كما ذكرها القرآن: «الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين»؟

ألسنا جميعا نؤمن بأركان الإسلام الخمسة «الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»؟

ألسنا جميعا نؤمن بمكارم الأخلاق؟

ألسنا جميعا نرفض الإلحاد والإباحية؟

ألسنا جميعا نقاوم الاستعمار والصهيونية؟

ألسنا جميعا نحارب الاستبداد والمظالم الاجتماعية؟

ألسنا جميعا نقف مع المستضعفين في الأرض من المسلمين؟

ألسنا جميعا ضد الطغاة والمستكبرين في الأرض بغير الحق؟

ألسنا ... ... ألسنا ... ... ؟

فلنتعاون في هذه الأمور التي تفتقر منا إلى بذل الجهود، وتجنيد الجنود، وحشد القوى، وتعبئة الطاقات، ورص الصفوف، للوقوف في المعركة جنبا إلى جنب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

تجميع كل الاتجاهات إسلامية وقومية:

ومما يدخل في إطار التجميع والتكتيل المطلوب: توحيد كل الاتجاهات الإيجابية والفاعلة في الساحة الوطنية، والحريصة على سيادة الأمة واستقلالها، والمدافعة عن حقوقها وحرماتها، والواقفة في وجه المعتدي عليها.

وأهم هذه التيارات أو الاتجاهات: الاتجاه الإسلامي الذي ينادي بالإسلام مرجعا للأمة، ومنهاجا للحياة، وأساسا للإصلاح والتغيير.

والاتجاه القومي، ويمثله في الوطن العربي: الاتجاه العروبي، الذي يدعو إلى العروبة أساسا للوحدة، ومنطلقا لحفز الأمة، وربطها بتراثها وحضارتها، اعتمادا على اللغة الجامعة، والتاريخ المشترك.

ولا يخفى أن في كل من التيارين غلاة ومتشنجين، لا يقبل كل منهما التفاهم مع الآخر، ولا يود الاقتراب منه.

ففي الإسلاميين من يعتبر كل دعوة قومية دعوة جاهلية، ومروقا من الدين، وإنكارا للإسلام ورسالته وحضارته وأمته.

وفي القوميين من يرى الإسلام عائقا للأمة عن التقدم، ومن يرى أن الدعوة للدين دعوة إلى الرجعية والعودة إلى الوراء، وهو يعتبر القومية كأنما هي نبوة جديدة تجمع الناس، بدل نبوة محمد ﷺ، ومن يرى قطع كل علاقة بالمسلمين من غير العرب، وهؤلاء الغلاة من الفريقين لا يمكن أن يلتقيا، ولا أرضية مشتركة بينهما.

ولكن المدار على أهل الاعتدال من الفريقين، ممن يمثل التيار الوسطى أو يقترب منه.

إذ لا ريب أن العربية هي لسان الإسلام، والعروبة وعاؤه، وأرض العرب فيها نشأت دعوة الإسلام، ومنها انطلقت وفتحت الآفاق، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وصحابته عرب، وهم الذين تلقوا عنه القرآن، ونشروا الإسلام، وعلموا الأمم. وكل مقدسات الإسلام الكبرى مثل المسجد الحرام والبيت الحرام، ومسجد الرسول وقبره، والمسجد الأقصى، كلها في أرض العرب.

وحضارة الإسلام وثقافته إنما عبرت عنها لغة العرب، فإذا كان معتمد القومية

العربية على اللغة والتاريخ، فاللغة هي لغة القرآن، والتاريخ في جوهره هـو تـاريخ الإسلام.

والإسلام بغير خلاف هو الذي وحـد أمـة العـرب، وهـداهم مـن ضـلالات الوثنية، وعلمهم بعد الجاهلية، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وحملهـم رسـالة الهداية للعالم، وجعل منهم رعاة الأمم بعد أن كانوا رعاة الغنم، وزكاهم وعلمهـم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فلا يشك عربي مسلما أو غير مسلم، في فضل الإسلام عـلى العـرب والعروبـة، وأنه الذي رفع ذكرهم في العالمين.

ترى ماذا كان سيكون مثل أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة وسعد وخالد لـو لم يكن الإسلام، ولو لم يـدخلوا فيـه ويجاهـدوا في سـبيله، ويسـاهموا في تمكينـه في الأرض؟

لقد كان عمر بن الخطاب يقارن بعمرو بن هشـام «أبي جهـل» وأسـلم عمـر، وبقى أبو جهل على شركه وضلاله، ومات عليه، فأين هذا مـن ذاك، وأيـن الثريـا وأين الثرى؟ وهل سيكون خالد بن الوليد أكثر من فارس مثل عنـترة بـن شـداد العبسي؟

إن فخر العرب إنما هو بالقرآن لا بشعر امرئ القيس أو عمرو بن كلثوم.

فخر العرب إنما هو بمحمد الذي جعلهم الله به أمة وسطا، وكانوا بحـق خـير أمة أخرجت للناس، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها.

فخر العرب إنما هو الإسلام الذي أورثهم ممالك كسرى وقيصر، وأصبحوا بـه كالشامة بين الأمم، حتى قال ابن الخطاب بحـق: نحـن كنـا أذل قـوم فأعزنـا الله

بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

وفي ضوء هذه المعاني ينبغي أن يلتقي الفريقان: القومي والإسلامي، وهـذا مـا دعا عقلاء التيارين أن يفكروا معا في إطار الجوامح الواشجة، والقواسم المشتركة، للوقوف صفا واحدا في وجه التحديثات الكبيرة الهائلة التي تواجهها الأمة اليوم.

وقد أدى هذا إلى تقديم ورقتين من كل من التيارين تدعوان إلى ضرورة التلاقي والتجمع في إطار ما قدمه الطرفان من جوامع وضوابط.

وكان من وراء ذلك المؤتمر القومي الإسلامي الذي انعقد في مدينـة بـيروت في أكتوبر سنة 1994، واعتبر المؤتمر التأسيسي، وأقـر صـيغة التلاقـي، كـما اعتـبر مؤسسة دائمة، تلتقي كل سنتين.

وقد التقى المـؤتمر ثـلاث مـرات: اللقـاء الأول في 1994، والثـاني في 1997، والثالث في هذه السنة يناير 2000، وكلها في بيروت، وكان لي شرف المشـاركة في الأول والثالث منها.

وفي اعتقادي أن هذه ظاهرة صحية، وخطوة إيجابية، وكل من التيارين له قوتـه وله أتباعه وأنصاره في العالم العربي، ولـه دعاتـه ومفكـروه، وقـد عـاش التيـاران متباعدين فترة طويلة من الزمن، بل أقول بصراحة: متنافرين، بل متعاديين، بسبب سيطرة الغلاة والمتفيهقين من هؤلاء وهؤلاء، وبسبب جهل كل طرف بـالآخر، أو معرفته من السطح، ومن جهل شيئا عاداه.

فلما اقترب الطرفان، وخصوصا العقلاء منهما، وجدا أن ما يجمـع بيـنهما أكثـر بكثير مما يفرق، وأن الخير كل الخير في الاتحاد والائتلاف، وأن الشر كـل الشر في الافتراق والاختلاف، وأنه إذا أحسن كل طرف الظن بالآخر، وأحسن التعمـق في

فهمه، واقترب خطوة من صاحبه، استحال الخلاف إلى وئام، ووقف الجميع في صف واحد كالبنيان المرصوص.

وأشد أني رأيت هذا التقارب قد أدى إلى خير كثير، فقد وجدت الذين يتحدثون من القوميين في جلسات المؤتمر يبدأون حديثم بـ «بسم الله» والصلاة والسلام على رسول الله.

ووجدت الجميع يؤكدون على معاني الإيمان، والتمسك بالقيم والفضائل الأخلاقية، ويعتزون بالتراث والحضارة الإسلامية، بل وجدت هذا عند غير المسلمين، كما عند المسلمين.

ولقد سميت بعض إخواننا من المسيحين مثل الأب أنطوان ضو يثني في كلمته على موقعنا الإسلامي العالمي على الإنترنت، وهو موقع (**Islam On Line**) وعلى ما يقدمه من معرفة وخدمات.

كما رأيت الدكتور جورج جبور من سوريا يثني على برنامجي في قناة الجزيرة «الشريعة والحياة» ويقول لي: إنني أتابعه باستمرار، وهو خير ما يقدم في عصرنا للتعرف على الإسلام، وخصوصا لغير المسلمين.

ولقد قرأت الأوراق المقدمة من القوميين، فلم أجد فيها ما ينكره الإسلام، إلا ما ندر، مما قد يقع من الإسلاميين الخلص أنفسهم، بل رأيت عددا منها يفيض إيمانا وحماسا لثقافة الإسلام، وأمة الإسلام.

تجميع كل القوميات عربا وغير عرب:

وفي إطار التجميع والتكتيل وتوحيد الصفوف الذي ننشده، يلزمنا أن نجمع كل القوميات المختلفة، في ديارنا العربية خاصة ما دام يضمها الدين الواحد،

والوطن الواحد، والثقافة الواحدة.

ومن هنا لا ينبغي بحال أن يوجد مجال للتفرقة بين عرب وأكراد في العراق، ولا بين عرب وبربر في شمال أفريقيا «الجزائر والمغرب».

فقد ضم الإسلام الجميع في حضانته، وصبهم في قالبه، وصبغهم بصبغته، ربطت بينهم العقيدة الواحدة، والشعائر الواحدة، والقبلة الواحدة، والآداب الواحدة، والشريعة الواحدة، فكلهم يؤمنون برب واحد، وبرسول واحد، وبقرآن واحد، وكلهم جاهد في سبيل هذا الدين، وزاد عنه أعداءه.

الأكراد هم الذين دافعوا عن أرض العرب، أرض المقدسات والمسجد الأقصى، أرض فلسطين، وهم الذين قادوا المعارك وقاوموا الصليبيين بصلابة وشراسة، حتى انتصروا عليهم بقيادة صلاح الأيوبي، وهم الذين نصرهم الله نصره المبين في معركة حطين، وهم الذين فتح الله على أيديهم بيت المقدس، فاسترده المسلمون من الصليبيين؟؟ بعد أن ظل أسيرا في أيديهم تسعين عاما كاملة.

والبربر هم الذين نصروا الإسلام منذ أن وطئت قدمه بلاد المغرب، ومن ذا الذي ينسى طارق بن زياد وأصحابه الذين اجتازوا البحر، وانطلقوا إلى الشاطئ الأوربي، ليرفعوا فيه راية التوحيد، ويعلوا كلمة الإسلام، ويقيموا دولة أنشأت حضارة شامخة البناء، تعلمت منها أوربا لعدة قرون، وتركت وراءها آثارا لا تزال تشير إليها وتدل عليها، إلى اليوم.

ولن ينسى الجزائريون أن الذي بعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر، كان رجلا بربريا، وهو الشيخ ابن باديس، ومعه كثيرون من العرب مثل الشيخ الإبراهيمي، ومن البربر مثل الشيخ الفضيل الورتلاني، والجزائريون عربهم

وبربرهم يفخرون برجلين كبيرين في تاريخ الجزائر الحديث: الأمير عبد القادر العربي، والشيخ ابن باديس البربري، الأول جاهد بالسيف والسنان، والثاني جاهد بالقلم واللسان.

ثم إن هذه القوميات هي جزء أصيل من وطنها، لا يجوز الجور عليها، ونكران حقوقها، وجحود خصوصياتها الثقافية واللغوية، مع الاعتراف بحق اللغة العربية في السيادة والسلطان على الأمة كلها.

ومن المعلوم الذي لا نزاع فيه: أن الإسلام رسالة عالمية، وأنه لا يفرق بين عرب وعجم، ولا بين شرق وغرب، وأنه جاء ليذيب الفوارق بين الناس، وليمحوا النزغات العصبية التي تفرق جماعتهم، وتعادي وحدتهم، فهو يبرأ ممن دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، وأنه جاء ليدعو الجميع إلى أخوة إيمانية جامعية، تضم كل الأعراق، وكل الألوان، وكل الأقاليم، وكل الألسنة، وكل الطبقات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

وقال الرسول الكريم: «**المسلم أخو المسلم**»، «**كونوا عباد الله إخوانا**» متفق عليهما، «**المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم**» رواه أبو داود وابن ماجه.

ومع هذا لم ينكر الإسلام خصوصيات القبائل والشعوب، فقد قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13].

فلا يجوز أن نؤجج حربا مفتعلة بين القوميات الإسلامية بعضها وبعض، وخصوصا بين القوميات التي تعيش في داخل الوطن العربي، وتعترف باللغة العربية ومكانتها باعتبارها لغة القرآن والحديث النبوي، ولغة العبادة، ولسان

الثقافة الإسلامية الأصلي، ويجب أن تكون لغة التفاهم المشترك بين المسلمين كافة.

تجميع قوى الأمة الإسلامية في العالم:

ومما يدخل في إطار التجميع الواجب علينا: تجميع قوى الأمة الإسلامية، وإن اختلفت عروقها، وتباينت ألسنتها، وتباعدت أوطانها. فنحن جزء من هذه الأمة، وهي أمتنا التي نعتز بالانتماء إليها، ونعتبر أهلها جميعا إخوة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] وقد من الله علينا بهذه النعمة، نعمة الأخوة، حين قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103].

وإذا كنا نحن العرب نحرص على كسب العرب غير المسلمين، وهم أقلية محدودة، فكيف لا نحرص على كسب المسلمين غير العرب، وهم أكثرية ضخمة؟ فالعرب بالنسبة لسائر المسلمين، يساوون نحو الخمس، فكيف نضيع ولاء أربعة أخماس الأمة لنا؟ وهل يصنع هذا عاقل؟

هذا لو كنا نتحدث بالمنطق القومي الذي ينظر إلى هذ الأمر بمعيار المكسب والخسارة، أما المنطق الديني، فيرى تجميع الأمة المسلمة كلها فريضة دينية مقدسة، لا سيما في مواجهة التحديات الكبرى التي نواجهها اليوم. وإذا كان كل يهودي في العالم مستنفرا لحساب إسرائيل، فلماذا لا نستنفر المسلمين حيثما كانوا لقضية فلسطين والمسجد الأقصى، وسائر قضايا الخطيرة التي تطالبنا أن نقف صفا واحدا، كما أمرنا الله تعالى؟

وأعود فأوكد أهمية «الدائرة الإسلامية» لنا نحن العرب، وضرورة التلاحم

بيننا، لنصرة قضايانا، ولا يجوز لنا أن ننسى أن الإسلام عرب عواطف المسلمين في العالم، وجعلهم يعتزون بالعرب، ويحبونهم، لأنهم أهل رسول ﷺ، كما لا ينبغي أن ننسى أن سبب إنشاء منظمة «المؤتمر الإسلامي» العالمية، إنما كان هو «حريق المسجد الأقصى» سنة 1969م، الذي أشعل جمرة الحماس في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ولم يملك القادة إلا يتجاوبوا مع الشعوب، ويعقدوا القمة التي انبثقت عن قيام المنظمة المذكورة.

صحيح أن المنظمة ليست على مستوى آمال الشعوب وطموحاتها، ولكنها أحسن من «لا شيء». ويجب أن تتكاتف لتقويتها واستمرارها.

ويسرني أن أنقل هنا صفحات مشرقة لرجل مفكر متوازن، مقبول من القوميين والإسلاميين جميعا، يتحدث فيها بعمق ووضوح عن واجب العرب نحو ما سماه «دائرة الحضارة الإسلامية». ذلكم هو صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني حيث يقول حفظه الله وسدد خطاه:

استرتيجية عربية تجاه دائرة الحضارة الإسلامية:

«نعم ... الحاجة ماسة إلى انتهاج استراتيجية عربية متكاملة تجاه دائرة حضارتنا الإسلامية في هذه المرحلة من تاريخنا، وفاء بحق أنفسنا، ومن أجل القيام بإسهام حضاري في عمران عالمنا. وإنجاز هذا الأمر يفتح الباب واسعا أمام قيام جميع الأمم والشعوب والدول في الدائرة لبلورة الاستراتيجية الإسلامية المتكاملة تجاه حضارات عالمنا وعمرانه.

إن المناخ السائد في العالم المعاصر مناسب لازدهار فكرة تضامن دول دائرة الحضارة الإسلامية. والحديث عن مكان الدائرة ودورها يتردد في أوساط المفكرين

في عالمنا على اختلاف اتجاهاتهم، ومن هؤلاء السويدي انجمار كارلسون صاحب كتاب «الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة»، وبول كينيدي الذي أفرد فصلا خاصا في كتاب «الإعداد للقرن الحادي والعشرين» انتهى فيه إلأى خلاصة «أن العالم الإسلامي يفتقد ثقافة المشروع» على حد تعبيره، في إشارة تتحدانا كي نوفر ثقافة المشروع هذه. وقد سبق أن شرحنا في كتاب «عن المستقبل برؤية مؤمنة» في مطلع التسعينات ما فكرة التضامن هذه التي تشير إلى «علاقات تعاون وتكافل تقوم بين المنتمين للحضارة الإسلامية شعوبا وحكومات ودولا، وتنطلق من هذا الانتماء ومن استشعار وجود رؤية كونية مؤمنة تجمع بينهم». كما أوضحنا تفاعل عامل داخلي يحث على الوحدة، مع عامل خارجي يتمثل في تحديات قوى الهيمنة، مع واقع عالمنا عالم الكتل الكبيرة، وثورة الاتصال والمشكلات العالمية، في صنع فكرة التضامن هذه. وانتهينا إلى إثبات ثلاث حقائق بشأنها هي: أصالتها في ضمير الأمة، ووجود معوقات وصعوبات وعقبات أمام تنفيذها، وفي الوقت نفسه وجود ما يفرض اليوم الاشتغال بها، والتغلب على العقبات بغية تحقيقها. والواقع القائم يؤكد هذه الحقائق في ختام التسعينات».

تساؤلات حيوية:

«إن إمعان النظر وإعمال الفكر فيما ينبغي أن تكون عليه هذه الاستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرتنا الحضارية الإسلامية، يضعنا أمام تساؤلات حيوية حول كيفية تعزيز الوثائق والروابط في هذه الدائرة على الصعيدين الشعبي والرسمي، وكيفية معالجة صراعات محتدمة داخلها في القطر الواحد أحيانًا أخرى، وكيفية تنظيم العلاقات داخلها وبين نواتها العربية وشقيقاتها فيها، وكيفية اعتماد الاستراتيجية عربيًا. وتصل بنا محاولات الإجابة عن هذه التساؤلات إلى مجموعة

أفكار نطرحها في ختام هذا الحديث.

أفكار:

الفكرة الأولى: التوعية بحقيقة الانتماء الحضاري لدائرة الحضارة الإسلامية، أفرادًا وشعوبًا وأممًا ودول، وتكامل هذا الانتماء القومي في دائرة الانتماء الثلاثية الوطنية والقومية والحضارية التي لا تناقض بينها. والحرص على الانجرار إلى اصطناع تناقض من خلال تعصب مقيت في الأسرة الواحدة أو بفعل نزاعات تاريخية نشبت وأخرى قد تنشبت. وإدراك هذا الانتماء الحضاري يقوم على الرؤية الكونية المؤمنة، والاعتزاز بألسنة أقوام الدائرة، مع تبجيل اللسان العربي الذي أنزل الله به القرآن الكريم، واستحضار تاريخ مشترك طويل، وهذه العناصر الثلاثة هي أركان الهوية الحضارية. وهكذا يدرك الجميع، كل على مستواه، أنه فضلًا على انتمائه الوطني، وانتمائه القومي، منتم لحضارته الإسلامية التي تعممها وسائل الإعلام، وتعتمدها الحكومات سياية لها.

الفكرة الثانية: القيام بقراءة موضوعية منصفة للحضارة الإسلامية نابعة من الذات، مستنيرة بآراء الآخرين، معتمدة نظرة نقدية عادلة تلاحظ الإيجابيات والسلبيات على السواء، وتعميم هذه القراءة من خلال التوعية ... والحق أن الحاجة ماسة لهذا الأمر في واقع تسود فيه بين قطاع واسع من المثقفين والمتعلمين قراءة أبسط ما يقال فيها: افتقارها للعمق، ونقلها رأيًا آخر متحيزًا ظهر في أوساط الحضارة الغربية، وجرى تعميمه بوسائل مختلفة من بينها مناهج تعليم متبعة في بعض المدارس. وتقدم هذه القراءة الحضارة الإسلامية على أنها كانت محكومة باستبداد الحكام، شأن حضارات أخرى شرقية. فالشرق عند هؤلاء «استبداد»، وعالم الإسلام الحضاري جزء من هذا الشرق. وهكذا بكلمتين يقدم تاريخ كامل

وما أكثر الأمثلة على الخطأ والخطر والتعصب والتحيز في قراءة هؤلاء. وقد قدم إنجمار كارلسون في الفصل الأول من كتابه نماذج منها، ونبه إلى أنها تنتهي «إلى حكم بانحطاط الشرق وعجز الشرقيين عن التفكير بشكل منطقي، وتخلفهم في جميع ميادين الحياة. بل والقول إن الإنسان العربي وكذلك الإنسان المسلم لا يمكن أن يتطور أو يتقدم. وبناء على هذا الاعتقاد غدا مقبولًا الادعاء بأنه لا ينبغي تمكين العرب من التعبير عن ذاتهم «ويضيف كارلسون قائلًا» ولقد تقبل الكثيرون هذا الادعاء الغريب بمن فيهم شخص من طراز كارل كارلسون بأن العرب لا يستطيعون تمثيل أنفسهم! «فكتب يقول» إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، ويجب تمثيلهم. «لويس بونابرت، الثامن عشر من برومير».

القراءة الموضوعية المنصفة لحضارتنا تتصف بالنظرة الشاملة، وتعني بها أسماه البعض «التاريخ الأكبر». وهو التاريخ الحضاري الشامل، ولا تقتصر على إيراد جزئيات تتعلق بتاريخ الحكام فقط. وهي لذلك تجعل من التاريخ حافزًا بدل أن يكون عبئًا. وما أغنى ما يمكن أن تثمره هذه القراءة وتعميمها على أبناء حضارتنا.

الفكرة الثالثة: تقوية الروابط الشعبية والرسمية في دائرة الحضارة الإسلامية. وهذا يقتضي تواصل المؤسسات الأهلية في مختلف الميادين بعضها مع بعض، أو اعتمادها برامج تستهدف توثيق العلاقة والتعاون. كما يقتضي العناية «بالنظام الإسلامي» الرسمي. ومعلوم أنه منذ إنهاء «نظام الخلافة» في دائرتنا عام 1924، والشعور بالحاجة إلى إطار يجمع الدول في العالم الإسلامي ملح، وقد أسهم في تحقيق فكرة إقامة منظمة دول المؤتمر الإسلامي الذي انعقد عام 1969 بعد محاولة إسرائيل حرق المسجد الأقصى. ولا يزال هذا «النظام الإسلامي» الرسمي في حده الأدنى من الفاعلية، واستمراره وانتظام انعقاد مؤسساته الرئيسة، وأعلاها القمة

الإسلامية يدل على إمكان تقويته وتطويره، ليصبح نظامًا إقليميًا فاعلًا، يأخذ مكانه اللائق به بين الأنظمة الإقليمية في عالمنا. وقد فصل كاتب هذا الحديث شرح النظام الإقليمي لدائرة الحضارة الإسلامية في كتابه «عن المستقبل برؤية مؤمنة» وأورد أحد عشر مبدءًا له بلورها الفكر الإسلامي الحديث.

إن العناية بالنظام الإسلامي تسير متزامنة مع العناية «بالنظام العربي» المختص بالدائرة ضمن دائرتنا الحضارية الإسلامية. ولا بد من إقامة علاقة وثيقة بين النظام الإسلامي والنظام العربي، وأنظمة أخرى فرعية قائمة أو ستقوم داخل الدائرة.

الفكرة الرابعة: إعلان النظام الإسلامي «ميثاق استنباط السلام بين أعضائه»، والتزام الدول الأعضاء بهذا الميثاق، وبحل المشكلات التي قد تنشب بين دول أخرى بروح الأخوة المنطلقة من الانتماء الحضاري، المتمسكة بتعاليم الإسلام، والمحترمة للقانون الدولي، وهذا يعني نبذ اللجوء إلى الحرب داخل دائرة الحضارة الإسلامية. ومعلوم أن الدول في دائرة الحضارة الغربية وصلت - بعد أن اكتوت بنيران حربين عالميتين طاحنتين في النصف الأول من القرن العشرين - إلى رفع شعار: «لا حرب بين الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي» ومعالجة الخلافات سلمًا. إذ يكفي ما عانيناه من حروب بين هذه الدول في النصف الثاني من القرن العشرين.

الفكرة الخامسة: وثيقة الصلة بسابقتها، وإنما نفردها لتأكيد أهميتها. وهي اعتماد «النظام الإسلامي» «مناطق التخوم»، القائمة على الجوانب «الحدود السياسية» المستحدثة للدول القطرية الأعضاء فيه، مناطق «وصل» وليس «مناطق فصل». وانظر إليها على أنها «تصل» بين أقطار الدائرة، وتربط بين أبنائها، وتشهد أعلى نسبة في التفاعل بين ثقافات حضارتنا، وتعبر عن مصالح دولنا المشتركة.

إن اتخاذ هذه الخطوة يترتب عليه معالجة جميع بؤر التوتر لحدودية القائمة اليوم في دائرتنا الحضارية. وهي بؤر قصد المستعمر الغربي عند رسمه الحدود السياسية للأقطار أن يبقيها، كما قصد أن ينفخ ويؤجج نارها بممارسة مفهوم متعسف للسيادة القطرية، لا ينظر أبعد من الأنف، قاصر النظر. وهكذا تتحول مناطق التخوم إلى مناطق مزدهرة، بعد أن عانت الأمرين منذ نشأة الدولة القطرية. وقد فصل كاتب الحديث شرح هذه الفكرة في كتابه «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر».

الفكرة السادسة: عناية «النظام الإسلامي» وأنظمته الفرعية، ومنها النظام العربي، والدول الأعضاء، بالتواصل مع أبناء الحضارة الإسلامية المقيمين في دائرة الحضارة الغربية بخاصة الدوائر الحضارية الأخرى بعامة، ومنها الأفريقية والأمريكية الجنوبية، ومتابعة التفاعلات الحضارية الجارية في أوساطهم، وتبادل التأثير بينهم وبين مجتمعاتهم الجديدة التي اكتسبوا مواطنتها. ذلك أن هذه الظاهرة تتسم بالاستجابة الفاعلة، وتعتمد على الدراسة المتعمقة، وتنأى عن ردود الأفعال، وتحرص على العناية باللسان الأصلي، وباللسان العربي، وبالذاكرة التاريخية. وقد فصل كاتب هذا الحديث شرح هذه الفكرة في مقاله «العرب والمسلمون في أوربا برؤية حضارية».

الفكرة السابعة: اعتماد «النظام الإسلامي» استراتيجية عمل لدائرة الحضارة الإسلامية، تأخذ في الاعتبار واقع كل عنصر فيها، والظروف المحيطة به، وتحدد دورًا له فيها، في حدود ما يستطيع، مع الحرص على تكامل الأدوار. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وإن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص.

الفكرة الثامنة: اعتبار «قضية القدس» رمزًا لقضية فلسطين، واعتمادها قضية مصيرية لدائرة الحضارة الإسلامية، ووضع هدف تحريرها نصب عين «النظام الإسلامي» ونصب عيون أعضائه عضوًا عضوًا، وبلورة استراتيجية لبلوغ هذا الهدف. وإفشال «الحل العنصري» لقضية فلسطين الذي تحاول قوى الهيمنة الغربية فرضه، لأنه ينتمي باغتصاب القدس وتهويدها.

وبعد ... فإن هذه الاستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرة الحضارة الإسلامية، تتطلب كي يتم اعتمادها أن تكون محل حوار أهل الفكر والحل والعقد، ومحل بحث النظام العربي الرسمي، كي يتوافر لها الاقتناع بها اللازم لتنفيذها. وإن لنا ونحن نمضي مع القرن الخامس عشر الهجري ومع مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي أن نستعين بالله لبلوغ هذا الهدف ونقول القول السديد ونعمل الصالحات ونتواصى بالحق ونتواصى بالصبر. والله منجز وعده»[53]. اهـ.

تجميع كل فصائل الصحوة الإسلامية:

ومن أوائل ما يدخل في التجميع والتوحيد المنشود لمواجهة التحديات والقوى المعادية للدين والأوطان وللأمة كلها: تجميع فصائل الصحوة الإسلامية، على اختلاف مدارسها، وتعدد وجهاتها، وتنوع مشاربها. بحسبهم أنهم جميعًا إلى الإسلام ينتمون، وعنه يصدرون، وإلى نصرته يتسابقون، وفي خدمة أمته يتنافسون، وفي سبيل شريعته يجاهدون، فلماذا على كلمته لا يجتمعون؟ ولإعلاء رايته يتحدون؟ وعلى البر والتقوى يتعاونون؟ وإذا كنا ندعو أبناء الوطن أن يقفوا صفًا واحدًا لمواجهة الخطر، وإن اختلفت أديانهم مسلمين ومسيحيين، أو

(53) من دراسة للدكتور أحمد صدقي الدجاني قدمها للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث.

اختلفت عروقهم من عرب وأكراد، أو عرب وبربر، أو اختلفت مذاهبهم الدينية من سنيين وشعبيين، أو اختلفت اتجاهاتهم الفكرية، من إسلاميين وقوميين، فكيف لا ندعو إلى وحدة صف «الإسلاميين» بعضهم مع بعض؟ وهم أولى الناس أن يتحدوا ولا يختلفوا، وأن يجتمعوا ولا يتفرقوا، وأن يتناصروا ولا يتخاذلوا، وأن يسامح بعضهم بعضا، بدل أن يتعصب بعضهم ضد بعض.

لقد رأينا الكنائس والمذاهب النصرانية يتقارب بعضها مع بعض، رغم أن كل مذهب منها يعتبر دينا مستقلا بذاته، وإن انتسبوا جميعا إلى المسيحية، فالكاثوليكية غير البروتستانتية، وكلتاهما غير الأرثوزكسية، وقد وقع بين هذه المذاهب من الصراعات والحروب ما انتفخت به بطون الكتب، وما سجله التاريخ بمداد من الدم الأحمر. ثم وجدوا المصلحة في تناسي هذا كله، والاتفاق على الحد الأدنى.

بل رأينا المسيحية تتقارب مع اليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما، وبرغم ما صنعه اليهود بالمسيح عليه السلام، رأينا ذلك في موقف الفاتيكان وتبرئة اليهودية من دم المسيح، ورأينا ذلك في المسيحية الأصولية ومساندتها المتحمسة والمتعصبة لدولة إسرائيل. ورأينا ذلك أخيرا في اعتذار بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني بصراحة عما وقع لليهود على يد الكنيسة المسيحية.

ورأينا اليهودية والوثنية الهندوسية تتقاربان وتتعاونان وتتحالفان سرا وعلانية، ورأينا الشييوعية الروسية السوفيتية والرأسمالية الأمريكية الغربية – في زمن الحرب الباردة – تتعايشان سلميا، بل تعتقدان سياسة الوفاق من أجل المصالح المشتركة.

فلماذا يكون المسلمون دون غيرهم، هم الاستثناء الوحيد في العالم، ليظلوا

متناكرين غير متعارفين، متباعـدين غـير متقـاربين، متخـاذلين غـير متنـاصرين، متفرقين غير مجتمعين؟

لم ذلك كله؟ وكتاب ربهم يناديهم بقوة وجلاء: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2].

ولو لم يكن منطق الدين يفرض عليهم أن يجمعوا صفهم ولا يتفرقوا، لكان منطق الحياة ومنطق الواقع يفرض عليهم ذلك، فإن الأهداف الكبيرة لا تتحقق إلا بتكاتف القوى، والأعمال العظيمة لا تتم إلا بتضافر الجهود، كما قال ذو القرنين للقوم الذين طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا، ويدفعوا له مبلغًا من المال، فعرض عليهم ما هو أجدى وأرشد من ذلك ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]. فبالتعاون بينه وبين القاعدة الشعبية – مع عون الله تعالى وتمكينه – أمكنه أن يبني سده العظيم.

يؤيد هذا المنطق ويؤكده: أن أعداء الأمة يتكتلون بعضهم مع بعض، ويوالي بعضهم بعضا، ويتفقون على الكيد للمسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم. يشير إلى ذلك القرآن حين يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73].

ومعنى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي إن لم يوال بعضكم بعضا، ويساند بعضكم بعضا، ويشد بعضكم أزر بعض، كما يفعل خصومكم: تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

لماذا؟ لأن معنى ذلك أن يكون أهل الكفر مجتمعين وأهل الإسلام متفرقين، أن يكون أهل الكفر متوالين متناصرين، وأهل الإسلام متخاذلين. تجمع هناك، وتفرق هنا، عمل هناك وفراغ هنا، نظام هناك، وفوضى هنا، وسنة الله تنتصر الفرقة والتنازع على الاجتماع والتلاحم، وأن ينهزم الفراغ أمام العمل والدأب، وتهزم الفوضى أمام النظام ولن تجد لسنة الله تبديلا.

رفع الخلاف غير ممكن:

وأود أن أبين لبعض الإخوة الذين يضيفون بالخلاف ذرعا، ويريدون أن يرفعوا الخلاف في فروع العقيدة أو فروع الفقه من الأمه، وأن يجمعوا الناس على رأي واحد، وهو - بالطبع - رأيهم: أنهم واهمون في ذلك كل الوهم، فرفع الخلاف غير ممكن أصلا، وغير مطلوب شرعا، وغير ضار واقعا.

أما أنه غير ممكن، فلأن أسبابه موجودة ولازمة، وهو - كما بينت في بعض كتبي(54) - ضرورة لا مفر منها، ضرورة دينية، وضرورة لغوية، وضرورة بشرية، وضرورة كونية.

أما أنه ضرورة دينية، فلأن الله تعالى لو أراد أن يجمع الناس على رأي واحد، لجعل نصوص الدين كلها قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فلا مجال فيها لخلاف، ولكن لم يفعل ذلك، فدلنا على أنه تعالى لم يرد أن يمنع الناس من اختلاف الاجتهادات والآراء.

وقد اختلف الصحابة في اجتهاداتهم في عصر الرسول ﷺ، كما في صلاة العصر

(54) كتاب «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» نشر دار الوفاء بمصر، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

في بني قريظة وغيرها، وبعد عصر الرسول ﷺ، ولكن وسع بعضهم بعضا، وقدر بعضهم اجتهاد بعض.

وأما أنه ضرورة لغوية، فلأن الدين يتمثل في نصوص قرآنية ونبوية، وهي تفهم في ضوء اللغة، واللغة فيها الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والمنطوق والمفهوم، والظاهر والمؤول، وما يفهم بالعبارة، وما يفهم بالإشارة، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والأمر والنهي ... وكل هذه قابلة للاحتمال وتعدد الأقوال، ولا حرج على مجتهد اتخذ منها موقفا غير موقف صاحبه، فلكل مجتهد نصيب.

وأما أنه ضرورة بشرية، فلأن البشر يختلفون في طباعهم واتجاهاتهم ومواقفهم، فمنهم الميسر، ومنهم المشدد، ومنهم من يميل إلى الظواهر، ومنهم من يميل إلى المقاصد، منهم من يميل إلى الأثر، ومنهم من يميل إلى النظر، وهذا من أسباب تعدد المذاهب، وتنوع المشارب. وكل إلى خير، وقد عرف تراثنا الفقهي فيما عرف: شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس.

وأما أنه ضرورة كونية، فلأن اللّه تعالى أقام هذا الكون على «التنوع»، ولذا شاع في القرآن هذا التعبير ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾. فلماذا لا تختلف ألوان الاجتهاد والاستنباط وتتنوع مدارسه؟ فمن أثري، إلى ظاهري، إلى قياسي، إلى استصلاحي. وكلها أشبه بما يخرجه النحل من شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

وهذا يدلنا على أن منع الخلاف غير ممكن، كما يدلنا على أنه غير مطلوب، وأنه غير ضار أيضا. وقد قبل المسلمون – منذ عهد الصحابة وتابعيهم بإحسان – الخلاف في الآراء العلمية، والاجتهادات الشرعية، فما ضرهم شيئا، وصلى بعضهم

وراء بعض، وأثنى بعضهم على بعض، وقبل المسلمون بعدهم تعدد المذاهب، منذ القرن الثاني للهجرة، فما نال ذلك من وحدتهم ولا من أخوتهم، إنما الذي ضرهم بعد ذلك هو التعصب الأعمى للمذهب، ومحاولة نصره بالحق وبالباطل، واعتبار المخالفين خصوما.

اختلاف الاجتهادات رحمة بالأمة:

بل رأي رجل مثل عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين: أن اختلاف الصحابة كان رحمة، وأنه لم يكن يود أبدا أنهم لم يختلفوا، لأنهم لما اختلفوا أمكن الناس أن يأخذوا برأي واحد منهم، ولو كانوا على رأي واحد، ما وسع الناس إلا هذا الرأي. كما أنهم باختلافهم شرعوا للناس بعدهم أن يجتهدوا ويختلفوا، فليسوا أفضل من الصحابة.

وقد ألف بعض العلماء السابقين كتابا سماه «رحمة الأمة باختلاف الأئمة».

والذي مارس الفقه، وغاص في أعماقه، يرى أن هذا التعدد والتنوع قد أتاح لنا أن نملك ونحن المسلمين، ثروة هائلة من الفقه الذي خدمته عقول عبقرية، فقد يضيق مذهب بقضية، ويوسع فيها آخر، ويشدد مذهب في أمر وييسر فيه غيره، وقد يصلح مذهب في بيئة ولا يصلح في أخرى، وقد ينجح في زمان ولا ينجح في زمان آخر، فيستطيع الفقيه أمام هذه الخصوبة أن يختار ما يراه، أهدى سبيلا، وأرجح دليلا، وأدنى إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، دن أن يخرج من إطار الشريعة وفقهها الثري.

بل إن هذه الثروة الفقهية الطائلة تنير له الطريق، ليبني على أساسها فقها معاصرا، يستمد من منطق هذا الفقه وروحه ومنطلقاته وتعليلاته وتخريجاته، ما

يعالج به مشكلات عصره، مراعيا تغير الزمان والمكان وحال الإنسان.

رأيي صواب يحتمل الخطأ:

ومن المهم هنا أن يكون صاحب الرأي الذي يؤمن بصوابه متواضعا، بعيدا عن الغرور بالنفس، والإعجاب بالرأي، فهو أحد المهلكات، وأن يعلم أن اعتقاده بصواب رأيه لا يضفي عليه «العصمة»، فهو رأي بشر، قابل للصواب والخطأ. وهذا هو موقف المجتهدين الكبار، فلم يروا أنفسهم معصومين، بل قال أبو حنيفة: فقهنا هذا رأي، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه. وقال مالك: كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ، وأشار إلى القبر النبوي، فقد كان يعلم الناس في مسجده عليه الصلاة والسلام.

وقال الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

وهذا الاحتمال في الجانبين يقرب المسافة بين المختلفين، بل ذهب بعضهم إلى أن نسبة الرأيين المختلفين إلى احتمال الصواب والخطأ واحدة، وأن الصواب هو ما انتهى إليه رأي المجتهد، وأنه قد يتعدد، وهؤلاء هم الذين يسميهم الأصوليون «المصوبة».

وسمعت بعض الإخوة يقول: كيف يحتمل قولي الخطأ، وأنا أعمل بالحديث النبوي، فهل يخطئ الوحي؟

وقلت لهؤلاء: إن الحديث وحي، ولكن فهمك للحديث ليس وحيًا، بل هو رأي قد يخالفك فيه غيرك، كما خالف الصحابة في قصة بني قريظة لفظ الحديث، وصلوا العصر في الطريق، وقال ابن تيمية: إن الصواب كان معهم.

وبعض الإخوة يقول ببطلان صدقة الفطر إذا أخرجها المسلم في عصرنا

بالقيمة، لأنه خالف السنة في رأيه. ورأيي أن هذا المفتي هو الـذي خـالف السـنة، لأن السنة أرادت التيسير على المعطي، والمنفعة للآخذ، وهو هنا يعسر على المعطي، ويضر بالآخذ، فقد خالف روح السنة، وإن ظن أنه عمل بجسمها.

إحسان الظن بالآخرين:

على أن من الواجبات التي يفرضها الدين على الناس كافة، وعـلى الـداعي إلأى الإسلام خاصة: أن يحسن كل منهم الظن بأخيه، ولا يسيء به الظـن، فـإن بعـض الظن إثم، وهو ظن السوء. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» متفق عليه.

ومن أعظم خصال الخير: حسن الظن بالله تعالى، وحسن الظن بالناس.

ومن أسوأ خصال الشر: سوء الظن بالله سبحانه، وسوء الظن بالناس.

فينبغي أن يحمل المسلم حال أخيه - وخصوصا إذا كان من أهل الدعوة - على الصلاح، ويفسره على أفضل وجه محتمل، ويلتمس له العذر ما استطاع، فـالمؤمن أبدا يلتمس المعاذير، والمنافق يتصيد العيوب.

وقد كان من كلام السلف: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه، فهذا هو الذي يجب أن يسود جو الـدعاة إلى الإسـلام، لا جـو الكيد بعضهم لبعض، ومحاولة كل منهم أن يبني نفسه على أنقاض إخوانه. فـإنهم جميعا ركاب سفينة واحدة، تتغير عليها الرياح من ريـح طيبـة إلى ريـح عاصـف، ويحيط بها الموج من كل مكان. فإذا نجت السفينة نجت بكل من فيها، وإذا غرقت غرق معها الجميع.

فلتختلف الاجتهادات، ولتختلـف المواقـف والسـيايات، ولكـن لا يجـوز أن

يؤدي ذلك الاختلاف المشروع إلى التفرق الممنوع.

* * *

3 - تحدي العولمة

وثالث التحديات الكبرى التي نواجهها، هو: تحدي «العولمة» التي يروج لها اليوم، والتي تقوم أمريكا بتصنيعها وتسويقها، وقد أمست حديث الناس في مشرق ومغرب، شأن كل ما يصدر عن أمريكا من سلع وأفكار.

ويتساءل الكثيرون: ما موقفنا من «العولمة» المطروحة اليوم على كل صعيد؟ وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل، لا بد أن نحدد مفهوم «العولمة» وماذا يراد منه؟ فالتعبير نفسه جديد على لغتنا، وهو مترجم قطعًا، كما سنرى.

والعولمة مصطلح من المصطلحات التي شاعت بيننا في هذه السنين الأخيرة، مثل الحداثة، وما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، وما بعد الإمبريالية، وغيرها.

والمعروف أن «العولمة» مصدر على وزن «فوعلة» مشتق من كلمة «العالم»، كما يقال «قولبة» اشتقاقا من كلمة «قالب».

فالتعبير صحيح من الناحية اللغوية، ولكن يبقى علينا أن نعرف معناه والمقصود منه، حتى يمكننا الحكم عليه، فالحكم على الشيء فرع من تصوره، كما قال قديمًا علماء المنطق.

العولمة: تعني في نظر البعض: إزالة الحواجز والمسافات بين الشعوب بعضها وبعض، وبين الأوطان بعضها وبعض، وبين الثقافات بعضها وبعض. وبذلك يقترب الجميع من «ثقافة كونية» و «سوق كونية» و «أسرة كونية». ويعرفها بعضهم بأنها تحويل العالم إلى «قرية كونية».

ويرى العالم الاقتصادي والاجتماعي المعروف الدكتور جلال أمين: أن لفظ

«العولمة» حديث، ولكن الظاهرة نفسها قديمة جدًا. يقول: فإذا نحن فهمنا «العولمة» بمعنى: التضاؤل السريع في المسافات الفاصلة بين المجتمعات الإنسانية، سواء فيما يتعلق بانتقال السلع أو الأشخاص أو رءوس الأموال، أو المعلومات، أو الأفكار، أو القيم، فإن العولمة تبدو لنا وكأنها تعادل في القدم نشأة الحضارة الإنسانية(55). اهـ.

ويبدو من صيغة التعريف أن الدكتور أمين يتحدث عن «التعولم» لا عن «العولمة» والتعولم هو أثر العولمة أو هو مصدر «الفعل المطاوع» للعولمة، مثل «التعلم» هو مصدر فعل مطاوع لـ «التعليم».

فالتضاؤل السريع في المسافات، الذي ذكره الدكتور أمين، إنما هو أثر، والعولمة إنما هي تأثير قاصد. وهذا هو الذي يجري الحديث عنه اليوم.

ويمكن تصحيح التعريف المذكور للعولمة إذا أضيفت إليه عبارة، مثل: العمل على التضاؤل السريع ... إلخ.

ويعرف الدكتور محمد عابد الجابري «العولمة» بقوله:

«العولمة» ترجمة لكلمة «**Monodialisation**» الفرنسية التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة. والمحدود هنا هو أساسا الدولية القومية التي تتميز بحدود جغرافية وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك: تنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو بالسياسة

---

(55) انظر: مقدمة كتاب «العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأورغواي» للدكتور جلال أمين، نشر مركز دراسات الوحدة العربية.

أو بالثقافة. أما اللامحدود فالمقصود به «العالم»، أي الكرة الأرضية. فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي «المالي والتجاري» وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها، ومن هنا يطرح مصير الدولة القومية، الدولة / الأمة، في زمن تسوده العولمة بهذا المعنى.

على أن الكلمة الفرنسية المذكورة إنما هي ترجمة لكلمة **(Globalization)** الإنكليزية التي ظهرت أول ما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نحدس، أو على الأقل نفترض، أن الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل الجميع: العالم كله.

من هنا نستطيع أن نحدس، منذ البداية، أن الأمر يتعلق بالدعوة إلى توسيع النموذج إلى العولمة قد ظهرت فعلا في الولايات المتحدة الأمريكية بهذا المعنى، في أوساط المال والاقتصاد، فإن لنا أن نستنتج أن الأمر يتعلق ليس فقط بآلية من آليات التطور الرأسمالي الحديث، بل أيضًا بالدعوة إلى تبني نموذج معين، وبالتالي فالعولمة هي، إلى جانب كونها نظاما اقتصاديا هي أيضا ايديولوجيا تعكس هذا النظام وتخدمه وتكرسه، وهناك من الكتاب من يقرن بينها وبين «الأمركة»، أي نشر وتعميم الطابع الأمريكي[56].

---

(56) انظر: «قضايا في الفكر المعاصر» للجابري. نشر مركز دراسات الوحدة العربية (ص136، 137).

بين العولمة والعالمية:

وربما كان معنى العولمة في ظاهرة يقترب من معنى «العالمية» الذي جاء به الإسلام، وأكده القرآن في سورة المكية، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ 87 وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: 87، 88].

ولكن هناك في الواقع فرق كبير بين مضمون «العالمية» الذي جاء به الإسلام، ومضمون «العولمة» التي يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعا ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]. فقد استخلفهم الله في الأرض، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، جميعا منه. وكذلك على أساس المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسئولية، وأنهم جميعًا شركاء في العبودية لله تعالى، وفي البنوة لآدم، كما قال الرسول الكريم أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى ...** »(57).

وهو بهذا يؤكد ما قرره القرآن في خطابه للناس كل الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ

(57) رواه أحمد في «مسنده» (5/ 411) عن جبي نضرة عمن سمع خطبة رسول الله ﷺ أيام التشريق. وذكره الهيثمي في «المجمع» (3/ 266) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. ونقل الشيخ الألباني عن ابن تيمية في «الاقتضاء» (69)، أنه قال: إسناده صحيح.

ﵟٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡﵞ [الحجرات: 13].

ولكن القرآن في هذه الآية التي تقرر المساواة العامة بين البشر، لا يلغي خصوصيات الشعوب، فهو يعترف بأن الله تعالى جعلهم «شعوبًا وقبائل» ليتعارفوا.

أما «العولمة» فالذي يظهر لنا من دعوتها حتى اليوم: أنها فرض هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي. الولايات المتحدة بتفوقها العلمي والتكنولوجي، وبقدرتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التي ترى فيها نفسها أنها سيدة العالم.

إنها لا تعني معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين.

العولمة في أجلى صورها اليوم تعني: «تغريب العالم» أو بعبارة أخرى: «أمركو العالم». إنها اسم مهذب للاستعمار الجديد، الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدا جديدا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف «العولمة» إنها تعني فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأي دولة تتمرد أو تنشز، لا بد أن تؤدب، بالحصار، أو التهديد العسكري. أو الضرب المباشر، كما حدث مع العراق والسودان وإيران وليبيا. وكذلك تعني: فرض السياسات الاقتصادية التي تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالمية التي تتحكم فيها إلى حد كبير، مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وغيرها.

كما تعني: فرض ثقافتها الخاصة، التي تقوم على فلسفة المادية والنفعية وتبرير الحرية إلى حد الإباحية، وتستخدم أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالمية، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.

وتجلى ذلك في «مؤتمر السكان» الذي عقد بالقاهرة في صيف 1994م. والذي أريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس، «زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء» وإطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور التي تخالف الأديان السماوية كلها، كما تخالف ما تعارفت عليه مجتمعاتنا، وغدا جزءا من كينونتها الروحية والحضارية.

ومن هنا وجدنا الأزهر الشريف في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والجماعات الإسلامية المختلفة، تقف جنبًا إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة، لمقاومة هذا التوجيه المدمر، إذ شعر الجميع أنهم أمام خطر يهدد قيم الإيمان بالله تعالى ورسالاته، والأخلاق التي بعث الله بها رسله عليهم السلام.

كما تجلت هذه العولمة في «مؤتمر المرأة» في بكين سنة 1995م وكان امتدادا لمؤتمر القاهرة وتأكيدا لمنطلقاته، وتكميلا لتوجيهاته.

وهذه قضية في غاية الأهمية «الاعتراف بالخصوصيات» حتى لا يطغى بعض الناس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

بل نجد الإسلام يعترف باختلاف الأمم، وحق كل أمة في البقاء حتى في عالم

الحيوان، كما جاء في حديث النبي ﷺ: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**» رواه أبو داود[58] وهو يشير إلى ما قرره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38].

وإذا خلق الله أمة مثل أمة الكلاب، فلا بد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئًا إلا لحكمة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: 191] فلا يجوز إذن حذف هذه الأمة المخلوقة من خارطة الوجود، فإن هذا تطاول واستدراك على خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية؟ إلا أن ترتضي أمة باختيارها الانصهار في أمة أخرى: في دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر وبلاد شمال أفريقيا وغيرها، حين اختارت الإسلام دينًا، والعربية لغة، بل أصبحت عضوًا مهمًا في جسم هذه الأمة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان.

إن «العولمة» كما تطرح اليوم، إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء، ولكسب الأغنياء ضد الفقراء، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير.

وهذا طبيعي، لأن التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة، بل بين المصارع المدرب الممارس، وبين خصمه الضعيف الذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أول ضربة.

وماذا يمكن أن نتصور من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

---

(58) انظر تعليقنا على هذا الحديث في كتابنا «السنة مصدرا للمعرفة والحضارة» (ص146، 147) طبعة دار الشروق القاهرة.

إن فتح الأبواب على مصاريعها - بدعوى العولمة - في مجالات التجارة والاقتصاد، والتصدير والاستيراد، أو في مجالات الثقافة والإعلام، سيكون لحساب القوى الكبرى، والدول التي تملك ناصية العلم والإعلام الجبار والتكنولوجيا العالية المتطورة، ولا سيما الدولة الأكبر قدرة، والأشد قوة، والأعظم نفوذًا وثروة، والأقدر والأوسع في عالم المعرفة، وهي أمريكا.

أما بلاد «العالم الثالث» كما يسمونها، وخصوصا «البلاد الإسلامية» منها، وهي ما أطلق عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ «محور طنجة - جاكرتا» فليس لها من هذا السباق العالمي، إلا بقايا ما يفضل من الأقوياء، إن بقي لديهم ما يجودون به من فتات على الآخرين.

إنه الاستعمار القديم بوجه جديد، واسم جديد، إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء، ويغير جلده كالثعبان، ويغير وجهه كالممثل، ويغير اسمه كالمحتال، ولكنه هو هو، وإن غير شكله، وبدل اسمه: استكبار في الأرض بغير الحق، وعلو كعلو فرعون في الأرض، والذي جعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم. ولكن الاستعمار الجديد الذي يريد العلو والفساد في الأرض كافة، لا يستضعف طائفة، بل يستضعف شعوب الأرض، لمصلحة أقلية ضئيلة منهم.

***

موقفنا من العولمة

ثلاثة مواقف من العولمة:

وللناس من العولمة مواقف ثلاثة، طرفان وواسطة، شأن الناس في معظم القضايا الكبيرة، إما مُفرطون أو مفرِّطون أو متوسطون.

فأما الطرف الأول فهو طرف المندفع إلى العولمة، المتحمس لها، السابح في تيارها، ممن يتعاملون معها بغير قيود ولا تحفظ. كالذين ذكر عنهم الحديث النبوي أنهم يتبعون سنن غيرهم من الأمم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخل الآخرون جحر ضب لدخلوه.

وهذا موقف الغلاة من دعاة «التغريب» ودعاة «التطبيع» في عالمنا العربي والإسلامي.

وأما الطرف الآخر، فهم عكس هؤلاء، يهربون من المواجهة، ويلوذون بالصومعة، وينكفئون على الذات، في عزلة وتقوقع، وغيبة عما يدور به الفلك حولهم في دنيا الفكر، ودنيا الاقتصاد، ودنيا السياسة، وغيرها، مؤمنين بسياسة إغلاق الأبواب، التي تهب منها الرياح، خشية أن تحمل هذه الرياح بعض الأتربة أو الأهوية الضارة. مع أن الحاجة إلى هذه الرياح مؤكدة.

وهذا هو موقف كثير من الخائفين من اللقاء مع الآخرين، من المتمسكين بكل قديم، والمتوجسين من كل جديد.

وأما الواسطة، فهو الموقف المقبول، الذي يمثل المنهج الوسط للأمة الوسط. إنه موقف المؤمن القوي البصير المنفتح، المعتز بهويته، الواعي لرسالته، المتمسك

بأصالته، المؤمن بعالميته، المغالي بثقافته، وحضارة أمته، الذي لا يفر من المواجهة، ولا يخاف من الحوار، بل ينطلق من أفق واسع، ويقف على أرض صلبة. يأخذ ويعطي، ويستقبل ويرسل، ولا يفرط في خصائصه الذاتية، ولا مقوماته الأساسية.

وهذا هو موقف تيار الوسطية والاعتدال من الإسلاميين ومن القوميين والوطنيين، الذين آمنوا بربهم وبأنفسهم وأمتهم، وعلموا أنهم لا يمكن أن يعيشوا وحدهم.

خلاصة موقفنا من العولمة:

الواقع أننا لا نملك أن نفر من هذه «العولمة» فيبدو أنها قدر مفروض علينا في هذه المرحلة. وليس في استطاعتنا رفضها أو الهرب من حصارها وضغطها.

كما أنه لا ينبغي لنا أن نتقبلها كما هي، ونستسلم لها مطأطئي الرءوس، قائلين: سمعنا وأطعنا.

لا بد أن نتحرك - عربا ومسلمين وأفارقه ودول عدم الانحياز، وكل الفقراء والمستضعفين في الأرض - لنحمي أنفسنا من هذا الغزو الجديد، بالتماسك والتناصر والتكتل، ولا بد من توعية شعوبنا وتحصينها عقائديا وفكريا وثقافيا، حتى لا تنساق وراء هذه الهجمة الجديدة، وتفقد خصوصيتها ومشخصاتها.

الموقف اللائق بنا هو «الموقف الوسط» الذي يجتهد أن يستفيد من إيجابيات هذه العولمة وانفتاحها، ويأخذ خير ما فيها، وأن يجتنب سلبياتها المادية والمعنوية، متحصنين بإيماننا، معتزين بأنفسنا، عاملين بكل ما نستطيع لتطوير قدراتنا، وتحسين إمكاناتنا، حتى يكون يومنا خيرا من أمسنا، وغدنا خيرا من يومنا.

ومعنى ذلك: أن نطور علومنا، ونطور أعمالنا، ونطور مواردنا، ونطور زراعتنا،

ونطور صناعتنا، ونطور إدارتنا، وقبل ذلك كله نطور إنساننا، الذي هو الوسيلة والغاية للتنمية والتقدم، وأن نسعى لتحقيق ذلك منفردين ومجتمعين. حتى نقوم بدورنا في هذا العالم ولا نظل عالة أو كلًا على غيرنا.

يقول الدكتور جلال أمين في خاتمة كتابه عن «العولمة»:

«أصابت العولمة دولتنا القومية بالتدهور والضعف عن طريق الاستعمار المباشر أولا، ثم عن طريق مختلف وسائل فرض النفوذ والسيطرة الاقتصادية في مرحلة ما بعد الاستقلال الصوري، ثم عن طريق ما فرضته وتحاول ترسيخه مؤسسات التمويل الدولية من سياسات، أشهرها سياسة التكييف الهيكلي والتثبيت الاقتصادي، وأخيرا عن طريق استدراج دولنا إلى الارتباط الجبري باتفاقيات دولية، كان آخرها وأشهرها تلك الناجمة عن جولة الأوروغواي. كان الضعف والهوان اللذان أصابا الدولة القومية في المنطقة العربية في عصر الاستعمار واضحين وضوح الشمس، إذ لم يكن ما حدث إلا إحلال دولة استعمارية محل أخرى، ولكن الضعف والهوان كانا شديدين أيضا حتى في ظل الاستقلال الصوري، وإن كان فرض الإرادة والتحكم في الدول القومية في ظل هذا الاستقلال أنعم ملمسا وأرق مظهرا. ولم يتبدل الضعف والهوان في ظل السياسات الاقتصادية الجديدة، واتفاقيات «التحرير» الأخيرة، وإنما زاد المظهر رقة والملمس نعومة.

والمحبذون والمتحمسون للسير في هذا الطريق يعدون البلدان العربية بأن هذه السياسات الجديدة سوف تحقق آمالهم في التصنيع، والنهوض بأحوال الفقراء، ولن تشكل خطرا على الثقافة الوطنية. وفي هذا يتخذ كثير من المحللين العرب، للأسف، الموقف نفسه، ولكن الزعم نفسه قديم، سمعناه من قبل ولم يتحقق. لقد قال المستعمرون الأوائل كلاما مشابها عندما قدموا إلى بلادنا لأول مرة منذ قرنين،

تحت شعار التمدين ونقل الحضارة. وقاله خلفاؤهم في منتصف القرن الحالي تحت شعار التنمية الاقتصادية. ثم قالوه مرة أخرى في الثمانينات تحت شعار إصلاح ما أفسده الماضي والتصحيح الهيكلي. ويقولونه الآن تحت شعار العولمة.

شعار العولمة جديد، لكن الظارهة قديمة. وهي لم تخل في أي مرحلة من تاريخها من نفع، ولكن النفع يعود أغلبه على مركز بثها وإشاعتها، وأغلب أضرارها تعود على الأطراف، ومن بين هذه الأطراف بالطبع المنطقة العربية. وهي ظاهرة حتمية بمعنى أن تقارب أجزاء العالم وتضاؤل المسافات الفاصلة بين جزء وآخر من العالم، ماديًا وفكريًا، لا مجال لوقفه أو صده، ولكن من الممكن دائما أن تحقق أمة من أمم الأطراف نهضة تحولها من طرف سلبي في التعامل الدولي إلى قوة فاعلة وإيجابية». اهـ.

وأقول للدكتور أمين: إن كلامه صحيح، ولكن «الدولة» القومية لن تستعيد قوتها، ما لم تستعد «الأمة» ذاتها قوتها. فإنما قوة الدولة بقوة شعوبها، فالشعوب الميتة لا تقيم دولة حية، والشعوب الضعيفة لا تبني دولة قوية، كما في الأثر المشهور: «كما تكونوا يول عليكم».

إعادة التوعية للأمة:

ومما يفيدنا هنا أن نعلم أن أمتنا حية لا تموت، ولكنها تنام أو تنوم، فعلينا أن نوقظها من سباتها، وننبهها من غفلتها، ونعيد إليها وعيها بذاتها وبرسالتها، وبدورها المنشود لنفسها ولغيرها، فهي أمة عالمية، أمة لم تخرج لنفسها، وإنما ﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ لنفع الناس، ولهداية الناس، ولخير الناس.

ولن تستطيع أمتنا أن تقدم الخير لغيرها قبل أن تقدمه لنفسها. فإن إصلاح

الداخل مطلوب قبل إصلاح الخارج.

يجب أن نعيد توعية شعوبنا توعية بصيرة سليمة، بعيدة عن الرومانسية والمبالغة والتهوين والتهويل. يجب أن نتخلى عن الظواهر السلبية في تفكيرنا وسلوكنا، مثل الاكتفاء بالتغني بأمجاد ماضينا التليد، والبكاء على أطلال حضارتنا الزاهرة، ومثل شتم الغرب ومهاجمة حضارته المادية الآلية، فإن مجرد التمدح بمآثر الماضي لا ينفع إذا لم يحيي الحاضر، والبكاء على الأطلال هو من عمل الشعراء العاطفيين، وليس من عمل البنائين للحضارات، وسب الآخرين - ولو كانوا مسيئين - لا يغنينا في شيء ما لم نفقهم - أو على الأقل نكافئهم - بعملنا وجهودنا. والحديث الشريف يعلمنا - بدل أن نسب الشيطان - أن نقول: بسم الله! سب الشيطان عمل سلبي، أما ذكر اسم الله لنستمد منه القوة، فهو عمل إيجابي.

يجب أن نصنع لأنفسنا مجدا جديدا بأيدينا وعقولنا، كما صنع آباؤنا من قبل، أيام عصورنا الذهبية. وننشد معا قول الشاعر:

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني، ونفعل مثلما فعلوا

يجب علينا أن نملأ قلوب أبنائنا بالإيمان والأمل والعزم، والثقة بالله ثم بأنفسهم، والتخلص من أسطورة الزعيم الملهم، والقائد الذي لا يخطئ، والاعتماد على سواعد الشعوب والجماهير، فهي التي تصنع التاريخ.

يجب أن نكون شجعانا ونعترف بعللنا النفسية، وآفاتنا العقلية، وانحرافاتنا السلوكية، وأمراضنا الاجتماعية، وسلبياتنا الاقتصادية، وخطايانا السياسية.

واعترافنا بها لا يعني استسلامنا لها، وقنوطنا من علاجها، فما من داء إلا له

دواء، وما من عقدة إلا ولها حلال. وإذا عرفنا الأسباب أمكننا تشخيص الداء، ووصف الدواء.

وأول خطوة في العلاج أن نعرف الخلل في أنفسنا، ولا نحمل كل فساد على غيرنا، وأن نعمل جاهدين لتغيير ما بأنفسنا، وبهذا تتغير حياتنا، ويتغير مجتمعنا وفق السنة الإلهية المطردة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11].

ضرورة الدين في حياتنا:

هناك بعض الناس الذين يسمون بـ «الحداثيين» أو «التقدميين» أو ما شابه ذلك، يرون أن لا تقدم ولا نمو لنا إلا بحذف «الدين» من حياتنا.

وأنا أقول لهؤلاء: إن حذف الدين من حياة الإنسان غير ممكن، ولو أمكن، فهو غير مفيد، والإنسان بغير دين، إنسان بلا جذور، ولا أمل، ولا غد. إنسان مكشوف مخترق من كل جانب، فقد اليقين والرضا، وحطمه الشك والسخط، وعاش في الحياة محروما من سر الحياة وهو الدين.

ولو جاز لإنسان ما أن يستغني عن الدين، ما أمكن للإنسان العربي أو الشرقي أن يستغني يوما عن الدين. فكيف إذا كان هذا الدين هو «الإسلام» الذي ختم الله به الرسالات، وضمنه من عناصر الخلود والشمول والعالمية، ما يجعله بحق دين البشرية في المستقبل، يصلح منها ما فسد، ويجدد منها ما بلى، بشرط أن يحسن المسلمون فهمه، ويحسنوا تطبيقه، ويحسنوا الدعوة إليه، وتقديمه للعالمين بلسان القرن الحدي والعشرين، حتى يفهموه.

لهذا كان علينا أن نحذف «الفهم السقيم» للدين، الذي شوشه بخرافات في

العقيدة، ومبتدعات في العبادة، وسلبيات في التربية، وجمود في الفكر، وتفـريط في السنن، وتقصير في الحياة.

على أن الذين حاولوا أن يستغنوا عن الدين كالشيوعيين، صنعوا لهم دينا آخـر، له إلهه، وله شيطانه، وله أنبياؤه، وله مقدساته، وله عقائده، وله طقوسه، وله جنتـه وناره، فقد استغنوا عن الدين الحق بدين باطل و«بئس للظالمين بدلا».

نحن - المسلمين - والغرب:

بقي علينا أن نبين: ما موقفنا – نحن المسلمين – من الغرب؟ وما علاقتنـا بـه؟ أيمكن أن تكون العلاقة تعارف وتفاهم أم لا بد أن تكون علاقة صراع وتصادم؟

إن الإسلام رسالة عالمية، فلا فرق عنده بين غرب وشرق، فهو جزء مـن مملكـة اللَّه الواسعة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115].

والغربيون هم جزء من العالمين الذين أرسل اللَّه رسوله محمدا رحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

مشكلة الغرب والإسلام:

ولكن المشـكلة تكمـن في أنفـس الغـربيين أو – إذا أردنـا الدقـة – في أنفـس الكثيرين منهم، وموقفهم من الإسلام، فقد توارثوا عـن الإسـلام صـورة شـائهة المنظر، دميمة الوجه، لا تمت إلى الإسلام من قريب أو بعيد، ولا ترجع إليه في ورد ولا صدر.

وهذه الصورة ورثوها منذ الحروب الصليبية، حين قدمت جيوشهم من أوربـا من حملات متواصلة، مكتسحة دول المنطقة الممزقة، مقيمة لهـا ممالـك وإمـارات.

وقد انتصرت في أول الأمر، ثم تلبث أن هزمت هزيمة ساحقة في معارك حطين، وفتح بيت المقدس، ومعركة المنصورة، وأسر «لويس التاسع» في دار ابن لقمان الشهيرة.

وهذه الحروب كان لها آثارها النفسية والعقلية، وكانت من أسباب نهضة الغرب بعد ذلك مما اقتبسه من حضارة الشرق الإسلامية. ولكن رجال الدين صوروا الإسلام والمسلمين لعوام الناس صورة كريهة منفردة، لا تمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، بيد أنها رسخت في الذهنية الغربية، والنفسية الغربية، وتوارثها الناس جيلا بعد جيل.

ولذلك ترى الغربي حين يتحدث عن الأديان الأخرى غير الإسلام، وعن الأمم الأخرى غير أمة الإسلام، يتحلى بكثير من الموضوعية والإنصاف، فإذا تحدث عن الإسلام وعن حضارته وأمته، وقف موقفًا آخر، فيه كثير من التحيز والميل مع الهوى، وكان على من يريد الإنصاف منهم أن يتجرد من العقد الخبيثة الموروثة، ويتقمص شخصية أخرى تغلب الموضوع على الذات، والحق على العصبية. وهذا ما اعترف به غوستاف لوبون، ومونتجومري وات وغيرهما.

لماذا ننفتح على الغرب؟

أما نحن المسلمين فنريد أن ننفتح على الغرب، ونجد من ديننا ما يحثنا على ذلك، ولا نحل أن ننغلق على أنفسنا، أو نعادي غيرنا. والذي يدعونا إلى ذلك جملة أمور:

أولها: أننا أصحاب رسالة عالمية، جاءت لكل الناس في كل أنحاء الأرض. صحيح أن كتاب الإسلام عربي، وأن رسول الإسلام عربي، وأن الإسلام نشأ في

الشرق، ولكن لا يعني هذا أن الإسلام لجنس خاص، أو لهجة معينة، بل الإسلام لأهل الأرض جميعا.

ولقد نشأت المسيحية في الشرق، وانتشرت في أنحاء العالم.

ثانيها: أن أسباب اللقاء والتقارب والتفاهم كثيرة ووفيرة، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: 13].

فالتعارف – لا التناكر – هو واجب شعوب الأرض جميعًا.

لسنا مع الأديب الأوربي الذي قال: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا. فإن اللقاء ممكن، بل واجب إذا صحت النيات، وصدقت العزائم.

ثالثها: أن العالم تقارب جدا وخصوصا بعد ثورة الاتصالات، والثورة الإلكترونية، حتى قال بعض الكتاب: إن العالم أصبح قريتنا الكبرى. وأنا أقول: إن العالم أصبح قرية صغرى لا كبرى، فالقرية الكبرى لا يعرف الناس في شرقها ما يجري في غربها إلا بعد يوم أو يومين، أو على الأقل بعد ساعات من وقوع الحادث.

أما العالم اليوم فيعرف الناس ما يجري في أي مكان فيه بعد لحظات، وقد يتابع الناس الحادث في أثناء وقوعه.

وكل هذا يحتم على أصحاب الأديان السماوية أن يتحاوروا، وعلى أصحاب الحضارات أن يتفاهموا ... والحوار والتفاهم أولى من الخصومة والتنافر، ونحن المسلمين مأمورون – بنصوص قرآننا – أن نحاور المخالفين بالتي هي أحسن، وخصوصا «أهل الكتاب» منهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . . . وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ

وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46]. يأمرنا القرآن هنا أن نركز على الجوامع المشتركة، أي على نقط الاتفاق، لا نقاط التمايز والاختلاف، سعيا إلى التفاهم، ما دمنا نؤمن جميعا بالإلوهية الواحدة، وبالرسالات السماوية المنزلة من عند الله.

ماذا نطلب من الغرب؟

كل ما نطلبه من الغرب يتلخص في هذه الكلمات:

1 - أن يتخلى عن الأحقاد القديمة، فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس.

2 - وأن يتخلى عن الأطماع الجديدة والرغبة في السيطرة على بلادنا ومقدراتنا، فعصر الاستعمار قد ولى.

3 - وأن يتبنى النظرة العالمية والإنسانية الحقة، ويتخلى عن نظرة الاستعلاء، التي كانت عند الرومان الذين يرون كل من عداهم برابرة.

4 - وأن يتجرد من مخاوفة منا، فلسنا وحوشا ولا أغوالا، ولا سيما ونحن - منذ قرون - ضحايا ظلم الغرب.

5 - أن يدع لنا الحرية في أن ننظم حياتنا وفق عقيدتنا إذا أرادت ذلك شعوبنا، ولا يتدخل في شئوننا بفرض فلسفته علينا بالقوة أو بالحيلة. فنحن أحرار في ديارنا.

6 - لا داعي للغرب أن يتخذ منا «عدوا» يعبئ مشاعر أممه ضدنا، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وأن يسمينا «الخطر الأخضر» بعد زوال «الخطر الأحمر» والتقارب مع «الخطر الأصفر».

إن الإسلام ليس خطرا إلا على الإباحية والإلحاد، وعلى الظلم والاستعباد،

وعلى الرذائل والفساد. وفيما عدا ذلك هو رحمة الله للعالمين، والمسلمون هم دعاة الخير والمحبة والسلام للعالم.

وإذا وجد في المسلمين أفراد أو فئات محدودة تستخدم العنف في غير موضعه، فهؤلاء لا يمثلون كل المسلمين، بل هم فئات صغيرة، ضخمها الإعلام الغربي نفسه. وغالبهم دفعتهم إلى التطرف مظالم الغرب وعدوانيته وتحيزه ضد المسلمين، ووقوفه أبدا مع إسرائيل الغاصبة لدياره، المشردة لأهله، وشدة الضغط تولد الانفجار.

نحن المسلمين تقر أعيننا، وتنشرح صدورنا إذا وجدنا من ينصفنا ومن ينظر إلينا نظرة خالية من التعصب، وإذا وجدنا ذلك نوهنا به، ورحبنا بأهله، وفتحنا لهم قلوبنا وديارنا.

ويسرني أن أنقل هنا: هذه الكلمات العاقلة العادلة المنيرة للأستاذ جيسلينج الذي ختم بها بحثه «الشرق والغرب وأزمة سوء الفهم بينهما» فقد قال:

«إنني شخصيا مقتنع اقتناعا تاما بأن هناك أرضية مشتركة بين الغرب والعالم العربي، وبأن العلاقات بين الطرفين يمكن أن تتطور بطريقة بناءة ومثمرة، هذا إذا اعترف كل فريق بالقيم والمبادئ التي يؤمن بها الفريق المعسكر الآخر، ويقبل حق الآخرين في الاختلاف معه، فمن الممكن أن يعني هذا بالنسبة للغربيين: أنه لا ينبغي عليهم أن يفرضوا قيمهم ونظرياتهم السياسية على العالم العربي. وسوف يرتكب الغرب خطأ فادحا، إذا حاول أن يفرض «نظاما عالميا جديدا» على منطقة الشرق الأوسط. ذلك أنه إذا قدر لنظام عالمي جديد أن يظهر، فينبغي أن يكون

مبنيا على التفاهم المتبادل بين الغرب والعرب. إني آمل أن يتحقق ذلك فعلا»[59].

***

(59) من مقدمة المؤلف لكتاب الباحث المسلم ثابت عيد «الإسلام في عيون السويسريين».

خاتمة

❋ ❋ ❋

نهاية التاريخ وصدام الحضارات

نهاية التاريخ:

حاول كثيرون أن يوقفوا عجلة الدائرة والمستمرة، عند نقطة معينة، زينتها لهم أفكارهم أو أهوائهم.

قال الماركسيون يوما: إن صراع الأضداد، أو النقائض الذي اعتبروه حتمية تاريخية - وهي فكرة هيجيلية الأصل - سيظل قانونه ساريا في الوجود، حتى يصل الشيوعيون أو - بعبارتهم - تصل طبقة البيروليتاريا إلى الحكم، وتتسلم مقاليد السلطة من الرأسماليين والبرجوازيين الأشرار، وعند ذلك تنحل كل العقد، وتنتهي كل المفرقات بين الناس من الدين والأسرة والطبقة والقوم، ويعيش الناس في ظل مساواة كاملة، تذوب فيها الفوارق بين الناس. ويقف التاريخ عند هذا الحد، ولا يتحرك إلى أمام ولا إلى خلف!

هذه هي «الجنة الموعودة» التي وعد الشيوعيون بها الناس - بدلا عن «جنة الخلد» التي وعد الله بها عباده الصالحين في الآخرة كما يقول المؤمنون بالأديان - والتي لم يصل الموعودن بها في بلاد الشيوعية إليها يوما ما، ولم يجدوا ريحها، أو يقتربوا منها، بل عاشوا حياة أقرب ما تكون إلى الجحيم، فقد سلبوا الحرية بحلم الحياة الطيبة، وبحلم المساواة التامة، ولم يحققوا هذه ولا تلك.

بل الواقع أن كل الأيديولوجيات الوضعية التي اتخذها بعض الناس لتكون بديلا عن الدين، وأرادت أن تجعل من الإنسان «حشرة اجتماعية» أو نملة في «مجتمع النمل» كما يقول توينبي، قد سقطت وخاب سعيها، وبقيت حاجة الإنسان

إلى الدين كما هي، بل ازدادت حاجة الإنسان إليه، في خضم تيار المادية والنفعية، الذي مزق أواصر الناس، وجعل الإنسان يعيش لنفسه فقط، أي لنزواته وشهواته.

الذي يهمنا هنا: أن الشيوعيين حلموا يوما بإنهاء التاريخ أو إيقاف سيرة عند مرحلة معينة، ثم جاء التاريخ واكتسحهم، وكنسهم بمكنسته، وانتهى «الاتحاد السوفيتي» وسقطت الشيوعية، وتبخرت أحلامها، وظلت عجلة التاريخ تدور.

ثم فاجأ العالم مفكر أمريكي – ياباني الأصل – هو فرنسيس فوكوياما، الذي ظهر على الناس بكتابه، الذي فجر في دنيا الفكر قنبلة مدوية، هو «نهاية التاريخ» وهذا هو عنوان الكتاب. الذي ظهر في سنة 1993م وقد انتهى التاريخ – في رأيه – لحساب القوى الرأسمالية والليبرالية الديمقراطية واقتصاد السوق الحرة، وأن هذا ما يفرضه منطق العلوم الطبيعية الحديثة، بعد أن أخفقت كل أشكال الحكم السابقة، لا سيما الشيوعية، ووصل العالم بأسره إلى ما يشبه الإجماع بأن الليبرالية الرأسمالية الديمقراطية هي النظام الصالح للحكم.

على أن الأديان الكتابية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، كلها تؤمن بنهاية التاريخ على غير ما ذكره فوكوياما. فهي جميعا تنتظر «مسيحا» يبعثه الله أو ينزل من السماء، ويقيم دين الله في أرض الله، وينشر العدل والخير، ويحارب الظلم والفساد.

ونحن المسلمين نؤمن بنزول المسيح في آخر الزمان/ وأنه سيملأ الأرض عدلا وخيرا وبركة، وسيحكم بشريعة الإسلام، ولكننا لا نعرف متى يكون ذلك، فهو من علامات الساعة الكبرى التي لا يعلم موعدها إلا الله تعالى.

وقد هلل المهللون، وطبل المطبلون لهذا الكتاب عند ظهوره، واحتل مساحة

واسعة في ساحة النقاش والجدل بين المثقفين في أنحاء العالم، بين مؤيد ومعارض.

هذا مع أنه يقوم على فرضية لم يسندها دليل قوي من علم أو منطق أو واقع. وفشل الشيوعية ونظامها الاقتصادي والسياسي الاستبدادي، لا يكفي ليكون دليلا على صواب مقابلها الرأسمالي الليبرالي.

ولم لا يكون هناك نظرية أخرى، مشروع آخر أو منهاج آخر، لا هو رأسمالي ولا شيوعي، ولا هو دكتاتوري ولا ليبرالي، بل يأخذ أفضل ما في المشروعين، ويتجنب أسوأ ما فيهما، فلا هو فردي ولا جماعي، وإنما هو نظام متوازن يقوم على الوسطية، والجمع بين الثنائيات أو المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربا من المحال، مثل المادية والروحية، والمثالية والواقعية، والربانية والإنسانية، والفردية والجماعية، والدنيوية والأخروية، والقدرية والحرية، والعقل والوحي، والنص والاجتهاد، والحق والواجب، والثبات والتطور.

وهذا هو المنهج المتكامل الذي يقدمه الإسلام للبشرية، رحمة للعالمين، وهداية للحائرين، وعدلا وإخاء وسلاما للناس أجمعين.

صدام الحضارات:

ولم تكد تمضي سنتان على كتاب «فوكوياما» وما أحدث من ضجة وصخب في دنيا الفكر والثقافة والسياسة، على الطريقة الأمريكية في الدعاية والإعلان، والتهويل والتضخيم، لتسويق كل ما هو أمريكي الصنع، في عالم الأشياء، أو عالم الأفكار. حتى خطف الأضواء كتاب آخر لمؤلف آخر في نفس الموضوع: الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية.

ذلك هو كتاب «صمويل هانتنغتون» أستاذ العلوم والسياسة بجامعة هارفارد

الشهيرة، وأحد أساتذة الداسات الاستراتيجية القريبين من صناع القرار، بالإضافة إلى أنه يهودي. فانتقل الضجيج والبريق والوهج إلى المؤلف الجديد، والكتاب الجديد، الذي سماه «صدام الحضارات» أو «صراع الحضارات».

ورغم أن الكتاب كان في أصله مقالة مطولة في مجلة «الشئون الخارجية» القريبة من وزارة الخارجية الأمريكية، إلا أنه أحدث هذا الدوي أو أريد له أن يحدث هذا الدوي، ويسحب البساط من تحت «نهاية التاريخ». ولا غرو أن كثرت حوله المناقشات، وتوالت التعقيبات، ما بين مؤيد ومعارض، كليًا أو جزئيًا، في أمريكا نفسها، وفي أوربا، وفي آفاق العالم، ومنه العالم العربي والإسلامي.

وهذا ما جعل الكاتب ذاته يعقب على المعقبين، ويضيف أفكارا جديدة على مقالته الأولى، أثرى بها كتابه، واتضحت بها فكرته أكثر فأكثر. والآن نسأل: ما هدف الكتاب وفكرته الأساسية؟ وما سبب إحداثه لكل هذا الصخب الذي كاد يصم الآذان؟

تقوم فكرة «هانتنغتون» على أن التاريخ لم ينته، ولم ينته الصراع فيه، ولم تغلق ملفاته، بسقوط الاتحاد السوفيتي، وسقوط الخطر الشيوعي معه، بل لا يزال في جعبة التاريخ سهام لم يرم بها بعد، ولا زال الصراع كامنا، وأسبابه قائمة، ولكن أسباب الصراع ليست بسبب الأيديولوجيات المختلفة والمتناقضة كالشيوعية الدكتاتورية، والرأسمالية الليبرالية، ولا بسبب المصالح الاقتصادية المتعارضة للدول المختلفة.

ولكن الصراع الذي يخبئه المستقبل سيكون سببه اختلاف الحضارات أو الثقافات، وتناقضها. ومحاولة كل حضارة أن تثبت وجودها، وتفرض رؤيتها

للإنسان وللكون والدين والحياة والتاريخ.

ولقد بين الكاتب أن هناك حضارات سبعا أو ثمانيا، هي التي يمكن أن يقوم بينها النزاع والصراع، في المستقبل، وهي: الحضارات الغربية، والكونفشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية.

كان الصراع والحروب قديما بين الملوك والأباطرة بعضهم وبعض بسبب الأطماع والرغبة في التوسع، ثم بعد الثورة الفرنسية، أصبح الصراع والحروب بين الدول والأمم بسبب تعارض المصالح، ثم صار بين الأمم ذات السياسات المختلفة مثل النازية والفاشية وحلفائهما، ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا، ثم أصبح سبب الصراع بين الأيديولوجيات المتناقضة، مثل الرأسمالية والشيوعية، كالنزاع بين أمريكا وحلفائها، وروسيا وحلفائها.

أما حروب المستقبل فيرى «هانتنغتون» - بعد سقوط دولة الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي - أنها حروب حضارات متباينة، وخصوصا الحضارات السبع المذكورة.

وقد لاحظنا - كما لاحظ بعض الباحثين[60] - أمه لا يوجد أساس واحد أو معيار واحد، بنى عليه المؤلف تصنيفه للحضارات.

فبعضهما بناه على أساس جهوي، مثل الحضارة الغربية.

وبعضها بناه على أساس إقليمي مثل الحضارة الهندية والحضارة اليابانية،

---

(60) انظر: الجبابري - قضايا في الفكر المعاصر.

وحضارة أمريكا اللاتينية، وإن ضم إليها عنصرًا آخر مع الجهة، «اللاتينية».

وبعضها بناه على أساس ديني مثل الحضارة الإسلامية، والحضارة السلافية الأرثوذكسية، وإن ضم إليها العرق مع الدين.

وبعضها بناه على أساس فلسفي مثل الحضارة الكونفشيوسية «وكونفيشيوس هو فيلسوف صيني أخلاقي».

وكأني ألمح العنص الديني مختفيا وراء هذا التقسيم، وإن لم ينبئ عنه الكاتب بصراحة، إلا بالنسبة للحضارتين: الإسلامية، والأرثوذكسية.

فحضارة الهند هي حضارة الهندوس والديانة الهندوسية بمعبوداتها الوثنية والحيوانية «كالأبقار» وفلسفتها البرهمية، وتقسيمها للناس إلى طبقات مفروضة عليهم قدرا.

وحضارة اليابان هي حضارة الديانة الشنتوية.

وكذلك حضارة الصين أقرب إلى ما تسمى «الحضارة البوذية» منها إلى الحضارة «الكونفيشيوسية».

والواقع أن الدين هو أعظم المؤثرات في تكوين الحضارات أو الثقافات، وقد اعترف بذلك هانتنغتون نفسه حين ذكر مكونات الحضارة من اللغة والتاريخ والتقاليد ... إلخ. ثم قال: وأهمها الدين. فكشف بذلك عما يمكنه صدره من اعتبار الدين وراء هذا الصراع المرتقب، بل الحتمي في نظره.

وهو في هذا يتفق مع بعض المفكرين الذين يرون «الدين» جوهر «الثقافة» وأن الثقافات تختلف أساسا بمقدار اختلاف الأديان.

ومما يحمد لـ «هانتنغتون» أنـه اعـترف أن في العـالم حضـارات مختلفـة، يتميـز بعضها عن بعض، وهذا أمر مهم. ويرد على الذين يزعمون أنه لا توجـد اليـوم إلا حضارة واحدة، أو ثقافة واحدة، هي الحضارة الغربية، والثقافة الغربية، على اعتبار أن الثقافة هي الحضارة، أو هي حوهر الحضارة. فقد ادعى هؤلاء أن الثقافة الغربية أو الحضارة الغربية، أصبحت ثقافة – أو حضارة – كونية، حضـارة للعـالم كلـه، غربه وشرقه، وشماله وجنوبه، كتابييه ووثنييه، مؤمنيه وملحديه. وعلى الجميع أن يولوا وجوههم شطر هذه الثقافة، ويكيفوا أنفسهم وفقـا لفلسـفتها، ومفاهيمهـا وقيمها وتقاليدها وأنظمتها.

وهؤلاء قوم «مهزومون» في داخلهم، يريـدون أن يـبرروا الواقـع، ويفلسـفوا ويؤصلوا غلبة القوي، أو قوة الغالب.

والواقع أن هناك حضارات عدة في عالمنا، ولا تزال باقية وفاعلة إلى اليوم، لكـل حضارة فلسفتها ونظرتها إلى الإنسان والكون والحيـاة، وإلى الـدين والـدنيا، ولهـا مصادرها، ولها أهلها، ولها تاريخها، ولها عطاؤها وتأثيرهـا الممتـد مـن الأمـس إلى اليوم.

ومن الخير أن نقر بأن لكل حضارة خصوصيتها، وأن نبقي على خير مـا فيهـا، وأن نقتبس من إيجابياتها، ونتجنـب سـلبياتها، وألا نقهـر أمـة عـلى الـتخلي عـن حضارتها، والانقطاع عن جـذورها، مـا لم تتحـول هـي مـن حضـارة إلى أخـرى باختيارها الحر، وإرادتها المستقلة، كما رأينا إيران قديما – بعد الإسلام – تنتقل بكل حريتها من الحضارة الفارسية إلى الحضارة الإسلامية، وكما رأينـا مصرـ – كـذلك تنتقل مـن الحضـارة الفرعونيـة والرومانيـة طائعـة مختـارة إلى الحضـارة العربيـة الإسلامية. وكذلك شمال أفريقيا انتقل من الحضارة البربرية إلى الحضـارة العربيـة

الإسلامية.

ومما يحمد لهانتنغتون أيضا: أنه اعترف بـ «الحضارة الإسلامية» كواحدة من أبرز الحضارات القائمة والمؤثرة في العالم. وهي حقيقة لا ريب فيها، وهي ترد على أولئك المفتونين المطموسين من بني جلدتنا، الذين يريدون لنا أن نقطع جذورنا، ونهدم أساس بنياننا، وأن ندع حضارتنا مختارين، لنأخذ حضارة غيرنا لا سيما الحضارة الغالبة والمنتصرة: حضارة الغرب: نأخذ منها الفلسفة والمفاهيم، ونأخذ منها القيم والمعايير، ونأخذ منها الآداب والتقاليد، ونأخذ منها الأنظمة والقوانين. فماذا بقي لنا من حضارتنا؟

بل الواقع أن كل ما ذكره «هانتنغتون» من حضارات، إنما يغطي به ما يهدف إليه بالفعل من الصراع المخبوء والمخوف، وهو الصراع مع الحضارة الإسلامية، أو قل بصراحة مع الإسلام. كما ينكشف القناع بعد.

ولقد ذكر مؤلف «صدام الحضارات» في كتابه أن سائر الحضارات - اليابانية والهندية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية - يسهل التفاهم والتقارب معها لأسباب شرحها، إلا حضارتين ناشزتين، هما الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية «الصينية». فإذا تفاهمتا أو تقاربتا أو اتفقنا - وهو أمر محتمل بل مرجح - كونا خطرا على الغرب، ليس بالهين(61).

أهو صدام حضارات أن صدام مصالح أم صدام أديان؟

وقد ناقش كثيرون «هانتنغتون» معارضين له في صدام الحضارات، مبنين: أن

---

(61) انظر: صدام الحضارات والتعقيبات عليه من عدد من المفكرين. نشر مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق - بيروت الطبعة الأولى 1995م.

الدافع الحقيقي وراء الحروب إنما هو مصالح الدول والقوى الكبرى، ومطامع الزعماء، وليس الخلاف الحضاري.

قال ذلك الدكتور بيكو المكلف بحوار الحضارات في الأمم المتحدة في لقائه بقناة الجزيرة، وقال ذلك الدكتور الجابري في تعقيبه على هانتنغتون وكتابه، وهذه عبارته:

لو أن الكاتب كان يفكر في قضايا عصره من أجل فهمها، والتماس حلول تخدم صالح الإنسانية ككل، مع افتراض أنه مقتنع فعلا بأن «صدام الحضارات» يتهدد الأمن العالمي في المستقبل، كان المفروض أن ينتهي هذا الكاتب إلى نتيجة يدعو فيها جميع الجهات، جميع الدول والأمم، إلى الوعي بهذا الخطر، ويطالبها بل ويقترح عليها اتخاذ التدابير الضرورية الكفيلة بتلافي هذا الخطر الماحق. لكن صاحب المقالة سلك مسلكًا آخر معاكسًا تمامًا، فتعامل منذ البداية مع «الفرضية»، لا كمجرد فرضية تعبر عن احتمال وقوع أمر ما، بل كحقيقة تاريخية حكمت تطور التاريخ في الماضي وستحكمه في الميتقبل. وهكذا راح يعيد بناء «التاريخ كله» بالصورة التي تجعل منه «صدام الحضارات»، الماضي في ذلك والحاضر سواء، باذلا كل جهده لحشد الأمثلة والوقائع التي تؤيد هذه «الحقيقة التاريخية» المزعومة: يختار أمثلة من هنا وهناك، ويؤولها تأويلا يبتعد بها عن إطارها ويلبسها دلالات لا تحتملها. ثم يكرر المثال الواحد مرات ويقفز ويراوغ، سلاحه المنطقي في كل ذلك «المغالطة» أو «الاستدلال المغالطي» بالتعبير المنطقي.

والهدف من كل ذلك: التهويل والتخويف، وإعداد القارئ لتقبل النتيجة وتحمل ما يلزم عنها، وكأن ذلك قدر لا مفر منه. والنتيجة التي أفصحت عنها المقالة، هي: ضرورة أن يستمر الغرب في تطوير قواه العسكرية، وبالتالي ضرورة أن

يصرف ما يلزم من الأموال في سبيل ذلك.

لكن خطورة المقالة ليست في النتيجة التي تنتهي إليها، فدعوة الغرب، إلى الحفاظ على مركزه وهيمنته، والعمل بكل الوسائل على صيانة مصالحه، أمر مفهوم وعادي.

إن خطورة المقالة تكمن في نظرنا في ما بين «المقدمة» و«النتيجة»، ويشغل كل منها بضعة أسطر لا غير. أما «بؤرة» أو «قلب» الموضوع - بالتعبير الأمريكي - فهو «الإسلام بالدرجة الأولى «والصين» بدرجة أخف قليلا». ذلك أن صاحب المقالة يركز على الإسلام سواء في تحليله «التاريخي» أو في عرضه لوقائع الحاضر، بينما لا يستحضر الصين إلا في حديثه عن اتجاه تطور النمو في الوقت الحاضر بجنوب شرق آسيا.

و«الإسلام» هو الآن، ومنذ عقد من السنين، الشغل الشاغل في الغرب. وما يعنيه ليس «الإسلام» كدين، ولا كحكومات تحكم باسمه. فبالأمس القريب فقط كان الغرب يتخذ من «الإسلام» حليفا له ضد الشيوعية.

كان ذلك بالأمس القريب، أما اليوم فـ «الإسلام» في نظر الغرب - الذي يتكلم باسمه هانتنغتون - شيء آخر. إنه «العدو رقم 1»، إن لم يكن اليوم فسيكون كذلك غدا. لا، بل إنه كذلك أمس واليوم وغدا. فماذا تغير؟ ولماذا هذا الخوف «الجديد» بل «المتجدد» من الإسلام؟

يقول الجابري: يمكن القول إن هناك ثابتًا واحدًا أساسيًا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من العرب أو من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العالم يتغير دائما، وقد يقفز من النقيض إلى النقيض إذا

اقتضى ذلك منطق «الثابت». وليس «الثابت» في تحركات الغرب شيئا آخر غير المصالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهددها يتغير الموقف.

وفي الختام يقول: الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح. وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية «الغرب = المصالح» إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن «المصالح» وتوجيهها إلى الانشغال بما يخيفها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل «الحضارة» و «الثقافة» و «الدين» و «الأصولية». اهـ(62).

وأقول للأستاذ الجابري: صحيح أن الغرب تحكمه المصالح قبل كل شيء، ولكن الغرب بالنسبة للإسلام تحكمه – مع المصالح – عقد قديمة جديدة، هي عقدة الحقد، وعقدة الخوف. الحقد المتوارث من عهد الحروب الصليبية، وربما من عهد اليرموك وأجنادين وفتح مصر وشمال أفريقيا، وكلها كانت مسيحية أصبحت إسلامية ... وعقدة الخوف من انطلاق المارد الإسلامي مرة أخرى. وهذا سر قلقهم من الصحوة الإسلامية، ورصدهم الأموال الطائلة لدراستها، وعملهم على تعويقها، وحديثهم الدائم عن «الخطر الإسلامي»، العدو الجديد بعد زوال الاتحاد السوفيتي.

إنهم يسمون الإسلام «الخطر الأخضر» خطر ظهور «صلاح الدين» من جديد، وهو الخطر المخوف رغم ضعف أهله وتفرقهم، وقد زال «الخطر الأحمر» السوفيتي، وتقاربوا مع «الخطر الأصفر» الصيني.

إن هاجس الخوف، مع هاجس الحقد، هما اللذان يؤثران في السياسة الغربية، بل

---

(62) انظر: الجابري: قضايا في الفكر المعاصر (ص125 – 127).

والفكر الغربي دائما تجاه الإسلام.

يقوي هذه الهواجس ويؤكدها في عصرنا «البعد الديني» الذي بـرز بوضـوح في العقدين الأخيرين في أمريكا، عن طريق «المسيحية الأصولية» المرتبطـة بـالتوراة، والتي تعمل لخدمة الصهيونية وإسرائيل تدينًا، وتعبدًا، كما بينت ذلـك دراسـات علمية أكاديمية جادة[63].

وكم نود من صميم أفئـدتنا أن يتحـرر الغـرب مـن هـذه العقيـدة، ويعامـل المسلمين كما يعامل سائر الأمم والقوى في العالم. وإن كنا نـؤمن أن الغـرب لـيس نمطًا واحدًا، ولا صنفًا واحدًا، ففي الغـرب أنـاس وأفـراد منصـفون، نرجـو أن يتزايدوا يومًا بعد يوم.

❋ ❋ ❋

---

(63) انظر: البعد الديني في السياسة الأمريكية، للدكتور يوسـف الحسـن. نشرـ مركـز دراسـات الوحدة العربية.

مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوي

في الفقه وأصوله:

1 - الحلال والحرام في الإسلام.

2 - فتاوى معاصرة جـ1.

3 - فتاوى معاصرة جـ2.

4 - تيسير الفقه: فقه الصيام.

5 - الاجتهاد في الشريعة الإسلامية.

6 - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.

7 - من فقه الدولة في الإسلام.

8 - تيسير الفقه للمسلم المعاصر.

9 - الفتوى بين الانضباط والتسيب.

10 - عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.

11 - الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد.

12 - الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

في الاقتصاد الإسلامي:

1 - فقه الزكاة «جزءان».

2 - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.

3 – بيع المرابحة للآمر بالشراء.

4 – فوائد البنوك هي الربا الحرام.

5 – دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي.

في علوم القرآن والسنة:

1 – الصبر في القرآن الكريم.

2 – العقل والعلم في القرآن الكريم.

3 – كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟

4 – كيف نتعامل مع السنة النبوية؟

5 – دروس في التفسير – تفسير سورة الرعد.

6 – المدخل لدراسة السنة النبوية.

7 – المنتقى من الترغيب والترهيب «جزءان».

8 – السنة النبوية مصدرًا للمعرفة والحضارة.

عقائد الإسلام:

1 – وجود الله.

2 – حقيقة التوحيد.

سلسلة: تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة:

1 – الحياة الربانية والعلم.

2 – النية والإخلاص.

3 - التوكل.

4 - التوبة إلى الله.

في الدعوة والتربية:

1 - ثقافة الداعية.

2 - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا.

3 - الإخوان المسلمون 70 عامًا في الدعوة والتربية.

4 - الرسول والعلم.

5 - الوقت في حياة المسلم.

6 - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

في ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية:

1 - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي.

2 - أين الخلل؟

3 - أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة.

4 - في فقه الأولويات.

5 - الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه.

6 - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة.

7 - ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده.

8 - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

9 - شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

10 - الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم.

11 - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.

12 - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

13 - من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا.

سلسلة: حتمية الحل الإسلامي:

1 - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.

2 - الحل الإسلامي فريضة وضرورة.

3 - بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين.

سلسلة: وحدة فكرية للعاملين للإسلام:

1 - شمول الإسلام.

2 - المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة.

3 - موقف الإسلام من الإلهام والكشف، والرؤى من التمائم والكهانة والرقي.

4 - السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.

إسلاميات عامة:

1 - الإيمان والحياة.

2 - العبادة في الإسلام.

3 - الخصاص العامة للإسلام.

4 - مدخل لمعرفة الإسلام.

5 - الإسلام حضارة الغد.

6 - الناس والحق.

7 - جيل النصر المنشود.

8 - درس النكبة الثانية.

9 - خطب الشيخ القرضاوي جـ1.

10 - خطب الشيخ القرضاوي جـ2.

11 - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر.

12 - قضايا معاصرة على بساط البحث.

13 - قطوف دانية من الكتاب والسنة.

شخصيات إسلامية:

1 - الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه.

2 - الشيخ الغزالي كما عرفته: رحلة نصف قرن.

3 - نساء مؤمنات.

في الأدب والشعر:

1 - نفحات ولفحات - ديوان شعر.

2 – المسلمون قادمون – ديوان شعر.

3 – يوسف الصديق – مسرحية شعرية.

4 – عالم وطاغية – مسرحية تاريخية.

رسائل ترشيد الصحوة:

1 – الدين في عصر العلم.

2 – الإسلام والفن.

3 – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.

4 – مركز المرأة في الحياة الإسلامية.

5 – فتاوي للمرأة المسلمة.

6 – جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة.

7 – الأقليات الدينية والحل الإسلامي.

8 – المبشرات بانتصار الإسلام.

9 – مستقبل الأصولية الإسلامية.

10 – القدس قضية كل مسلم.

11 – ظاهرة الغلو في التكفير.

محاضرات الدكتور القرضاوي:

1 – لماذا الإسلام؟

2 – الإسلام الذي ندعو إليه.

3 – عوامل نجاح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر.

4 واجب الشباب المسلم اليوم.

5 – مسلمة الغد.

6 – الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير.

7 – قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام.

8 – لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر.

9 – التربية عند الإمام الشاطبي.

10 – مع المصطفى في بيته.

11 – السنة والبدعة.

12 – زواج المسيار – حقيقته وحكمه.

13 – الضوابط الشرعية لبناء المساجد.

14 – موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى.

15 – الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل.

* * *